

مَالِكُ الْوَعْدِ
بِالْجَنَّةِ
فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ

العنوان: ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى

تأليف: الدكتور محمد أبو النصر عطار

ردمك ISBN: 978-625-00-7561-6

تصنيف ديوبي: 213 الدعوة الإسلامية

القياس: 24×17 سم

عدد الصفحات: 394

الإخراج الطباعي: أحمد بلال بيانوبي و محمد زكريا زعترى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2024 م

مَلَائِكَةُ الْوَحْيِ
بِأَدْبَرِهِ
فِي الدَّعْوَةِ إِلَىَ اللَّهِ تَعَالَىٰ

ألفه

الدكتور محمد أبو النصر عطار



تقرير العلامة المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلبي^(١)

كتابات الشيخ أبي النصر عطار

أخي الشيخ محمد أبو النصر عطار حفظه الله بخير وعافية من الدعاة إلى الله تعالى، وكتباته واستنباطاته في علم الدعوة لطيفة نفيسة، هي خلاصة ما عنده من تجربة طويلة في دعوة الخلق إلى الله عز وجل وتقريرهم منه سبحانه، بعد غوص عميق في اللمحات المستفادة من مدرسة النبوة في السيرة النبوية العطرة والحديث النبوي الشريف.

أدعو كل محب للتعرف على تلك اللمحات، أن يحرص على قراءتها في كتابات أخي الشيخ أبي النصر، وأؤكد على الإخوة الدعاة أن يغتنموا كتاباته التي سطّرها في عدد من رواع الكتب، فهي من خير الزاد في هذا المضمار. وأسائل المولى عز وجل أن ينفع بها، وأن يجعل المثوبة لكتابها وأن يجعلها له ذخرا يوم يلاقاه.

وكتبه

صلاح الدين بن أحمد الإدلبي

في ١٤ شوال ١٤٤٥.

(١) وقد نشر الشيخ هذا المقال على منصاته الاجتماعية، وفي المجموعات العامة، فجزءه الله خيراً، وذلك بعد قراءته واطلاعه على كتاب: «ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى»، وكتاب: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى»، وكتاب: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى».

تقرير العلامة أ. د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزidge، والصلوة والسلام الأتمان
الأكملان على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم
الدين.

وبعد:

فقد اطلعت على كتاب فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبو النصر عطار
«ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى»، فقد وجدت فضيلته قد نحا في كتابه
منحي قل من يكتب في مثل ذلك المنحى، وأول من ألف وفق هذا المنحى
الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «صيد الخاطر»، ومن ألف في العصر
الحديث وفق ذلك الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه
«هكذا علمتني الحياة»، ومثل هذه الكتب لا بد لصاحب الكتاب من أمرتين:

الأول: أن يكون الله قد حبا به علم نافع.

الثاني: أن يكون قد أفنى عمره في طلب العلم على يد علماء واحتكم
بطلبة العلم، وعاشر الناس سنين طويلة.

أما الأمر الأول فقد حبا الله تعالى المؤلف بالعلم النافع وبارك فيه.

وأما الأمر الثاني: فهو مازال في ريعان الشباب، لكنه عوض ذلك بالاستفادة من أساتذته وعلماء عصره.

ثم إن المعاناة التي يمر بها الشعب السوري صقلت شخصيته بخبرات كثيرة، والكتاب ليس وليد لحظة آنية، بل نتيجة خبرات سنوات كثيرة أخذت من تفكيره وتجربته في الحياة، فقد صب فيه تجربة كثير من علماء عصره، ومن هنا أرى أنه لا بد لكل طالب علم من الاطلاع عليه، ليزدادوعيًّا ومعرفة بأمراض يقع فيها بعض طلبة العلم، ومن هم محسوبون عليه، ليستفيد طالب العلم من كل تلك الخبرات ويبني عليها.

والله أسأل أن ينفع بالكتاب ويبارك في جهود مؤلفه، إنه جواد كريم وبالإجابة جدير.

أ. د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني

تقرير فضيلة العلامة الشيخ سلمان أبو غدة حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى، وعلى آلام ومن اقتفي، أما بعد:

فقد شرفني أخي الداعية العالم الحبيب فضيلة الشيخ محمد أبو النصر ابن سيدى العالم المجاهد محمد جمیل عطار - رعاهم الله وأكرمهم - بقراءة كتابه «ملامح الوعي»، فقرأته واستفدت منه، ووجده بديعاً مفيداً محرياً محرياً، وفيه جدةً وإبداع، كما وجدته مكتوبًا بروح العصر، مخاطباً شريحة الدعاة بعللها وأسقامها، مدوّناً لهم ما يناسبهم من دواء، وأنا أُنصح عموم الدعاة بقراءة هذا الكتاب القيم ، والاستفادة منه.

تقبل الله من أخي أبي النصر، ونفع به وكتب له القبول، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه المحب

سلمان أبو غدة

جدة ١٤٤٥/١٠/١٦

٢٠٢٤/٤/٥

تقرير خط العالم الداعي إلى الله الدكتور عبد الجود صباح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم تنزيله: ﴿أَدْعُ إِنَّ سَيِّلِ رَبِّكَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلَهُمْ بِأَلْتَقَى هِيَ أَحَسَنٌ﴾ [النحل: ١٢٥]
وقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظًا أَفْلَقِ
لَا نَفَضُّلُوا مِنْ حَوْلَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، الذي قال كما في الصحيحين، عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَشَرِّوْا، وَلَا تُنَفِّرُوا».

وبعد: فقد أكرمني ربي - في جملة ما أكرمني به في ليالي شهر رمضان المبارك الذي ودعنا قبل قليل - بقراءة كتاب: «لاماح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى»، لأنني الحبيب الشيخ الدكتور محمد أبو النصر عطار - أكرمه الله وفتح عليه فتوح العارفين -، كتاب قييم يقدّم رؤية شاملة ومتوازنة لمفاهيم الدعوة الإسلامية، ويوفر فهماً عميقاً ومفيداً للقراء الذين يسعون إلى توسيع معرفتهم، وفهمهم لهذا المجال المهم في الدين الإسلامي.

وبعد قراءتي المتأنية والفاصلة للكتاب، أخص أهم امتيازاته العالية على

حسب قراءتي وفهمي المتواضعين، وهي كما يلي:

أولاً: الكتاب نتاج تجارب، وخبرات، ومحريات طويلة في ميدان الدعوة، بعيداً عن التعابير الفلسفية، والمثالية الأكاديمية، وفيه التركيز على الوعي، والتفكير النقدي في الدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً: يبرز أهمية الوسطية والتوازن في الدعوة، فهو بمثابة بوصلة مضيئة تساعد على توجيه النفس نحو هذا الميدان الذي ينبغي لكل داعية أن يسلكه. فيرفض الانحراف نحو الإقصائيات، ويبني بدلاً منها جسراً للتفاهم المتبادل في زمن تتصارع فيه الأصوات، وتتبارى الآراء.

وفي الحقيقة: هذا التوازن لا يأتي بسهولة، فهو يتطلب شجاعة القلب، وقوة العقل، بعد الإمام العلمي لختلف أنواع العلوم الشرعية.

وبهذا التوازن يكون الطريق نحو النور والهدى، ونمسي فيه بثقة مبتغين رضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ثم ما يمكن أن يُقال: خيري الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الكتاب يسلط الضوء على أهمية استخدام الحكمة والمحبة في الدعوة إلى الله تعالى، مؤكداً على أنَّ الرسالة الإسلامية تحمل بين طياتها المفهوم الحقيقي للقدوة، وكيفية التعامل مع الآخرين بمنتهى الحكمة والمحبة.

وبما أنَّ الكمال لله تعالى، وكما ورد في الأثر: «كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيَرَدُ إِلَّا صَاحِبَ هَذَا الْقَوْلِ»، فقد كانت هناك بعض الملاحظات والنصائح

التي قدَّمتُها له، وهو بدوره جزاء الله كل خير تلقَّاها بكل حب وتواضع جمًّا، ووعَدَ على العمل بها، واستدراكها.

وفي الختام أقول:

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْكِتَابَ سَبَبَ هُدَى وَوَعْيٍ، وَتَنبِيهَ لِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّرُ لِلْدُعْوَةِ بِشَكْلِ عَامٍ، أَوْ كَانَ فِي مَحَالِ الْفَتْوَىِ.

وَصَلَى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَاحِبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عبد الجواد محمد الصباغ

يوم الاثنين: ٦/شوال/١٤٤٥

الموافق: لـ ١٥/٤/٢٠٢٤

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي الفتاح، والصلة والسلام على زينة الأنبياء وسيد المرسلين، وإمام الدعاة لرب العالمين، صاحب الحوض واللواء، وفخر المرسلين والأتقياء، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم من أهل الولاء، وبعد:

فقد تكرم ربى علياً وتفضل، ووفق بأن كتبت عدة كتب في تأصيل علم الدعوة، وقد اختلفت مستويات هذه المؤلفات، حيث جعلت:

المستوى الأول: ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى.

المستوى الثاني: هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى.

ثم جاء أخوهما الثالث ليحيى بشكل أرقى، وخطاب أقوى، يختص بالدعوة، وليس لطلبة العلم المبتدئين، وهو:

المستوى الثالث: ملامح الوعي في الدعوة إلى الله تعالى.

وإخوانهم في الطريق إليهم آتون، ولكن لن يأتي الأخ إلا بعد فترة حمل كافية، وولادة وتمام خلقة، من تأليف وتصفييف وتنسيق وطباعة، فاللهُمَّ أسقط علينا من رُطْبِ تيسيرك، حتى أكتب وأراجع وأدقق وأقرَّ عيناً، ويسر

عليَّ أَن آتِي بِهِمْ قُوَّى أَحْمَلُهُمْ، وَأَشِيرُ إِلَيْهِمْ لِيُنْطَقُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُنْشَرُوا نُورُ هَدِي الدُّعَوَةِ الصَّحِيحةِ.

وَلِيَكُنْ بَعْلُمُ الْقَارئِ أَنِّي أَلَا أَكْرَرُ فِي هَذِهِ الْكِتَبِ، اللَّهُمَّ إِلَّا حِرْفًا سِيَرَةَ دَعَتُ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا، لِتَكُونَ مِنْهَا جَأْلًا لِمَنْ قَرَأَهَا بِتَسْلِسْلِهَا، وَلَوْ كَانَ فِيهَا التَّكْرَارُ لَسُئْمَ مِنْهَا.

وَلَا أَدَعِي أَنِّي أُتِيتُ عَلَى أَبْوَابِ الدُّعَوَةِ بِتَمَامِهَا، وَلَا حَلَّتْ مَعْضَلَاتِهَا، وَلَا دَاوَيْتُ جَرَاحَهَا، وَإِنَّمَا هِيَ جُهْدُ الْمُقِلِّ، مَثَلِي مَثَلُ طَبِيبٍ دَخَلَ إِلَى بَلْدَ مُمْلُوءٍ بِالْطَّاعُونِ، فَمَا قَدَرَ أَنْ يَدْاُوِي غَيْرَ بِضَعَةٍ مَرْضِيًّا، أَعْانَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَمَا زِلْتُ أَكْتُبُ فِي قَوَاعِدِ الدُّعَوَةِ يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ، وَكُلَّمَا أَوْعَلْتُ فِي الدُّعَوَةِ رَأَيْتُ بَحْرَهَا أَكْبَرَ مِنْ ظَنِّي.

قد يقال: إنك تعرضت لأمثلة من التيارات الإسلامية التي تعمل ليل نهار ونقدتها، مع أن أكثر أبناء هذه التيارات لا تقرُّ هذه الأعمال، بل تتبرأ منها وتتنصل، أقول:

المهم عندي أن الأمر قد مُورِسَ باسم الإسلام، وشاع وذاع باسم الإسلام، ويُهْمِنِي أن أنقده وأصححَ العمل، وأنا ابن هذه التيارات الإسلامية، فهل يروق لنا أن ينسب هذا لدينا العظيم، أريد من التاريخ أن يسجل لي أنني أحد أبناء هذا الإسلام قد نَفَيْتُ عنه تحريفاً لِعَالِيٍّ، وانتحalaً لِمُبْطِلٍ، وتأوياً لِجَاهِلٍ.

قد يقال لي: ألم تُعبَّ في كتابك هذا على الذي نجا من لسانه العدو، ولم يسلم أخوه من نَقْدِه؟ فلِمَ لَمْ تَرُدَّ عَلَى أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ بَدْ الرَّدِّ عَلَى أَبْنَاءِ فَكْرِكَ؟

أقول: إن العيب الذي ازدريته هو قصرُ النقد على الأحباب دون الأعداء، وعَبَرَت عنه بما يليق في موضعه، أما هنا فإني أحاول أن أقتدي بسيدي رسول الله ﷺ الذي وجَّه نصحه للقريب والبعيد، وأبعد الكافرين وإلى الحِبَّ ابن الحِبَّ، ومنْ قال له: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»**.

وفي عملي بناءً كثير ونقد قليل ولو إلى الأقربين، قد وقعت في هذا القائل: **«أَفَتَأْنُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ»**.

فما أدَّعَيْ أن كل أبناء التيار يؤمِّنون بهذه الممارسات الخطأ.

أما عن أسباب كتابة هذا الكتاب، فإنها أمور عدّة:

- الإِفادة من تاريخ المشايخ وخبراتهم في الدعوة.

- تقديم الجديد مما أُفِدْتُهُ، وإلا فلا حاجة للكتابة.

- تقديم النصائح والتوجيه الخاص بالدعاة، وليس الصالح لكل مسلم: ولطالما كتب الْكُتَّاب في أخلاق الدعاة، والواقع هي: أخلاق المسلمين عامة، وإن أي مسلم يقرأ كتاب **«رياض الصالحين»** يجد الكتاب من أوله إلى آخره يتكلم عن صفات الكمال، ومكارم الأخلاق، لكن الصفات التي تخص الدعاة تزيد على هذه الأخلاق أموراً وآداباً وموازنات ومزايا.

وتعجَّبت من أخ أراد أن يحاضر في دورة عن فن الدعوة، فجعل يسرد صفات الداعي:

الابتسامة، لين الجانب، الرد الحكيم، الجواب المحكم، التزود الكافي،

الخبرة الكافية، الصدق، الأمانة، الفطانة، تجاهل أخطاء الناس.

فقلت له: ماذا لو طلبت منك أن تحاضر في المعلم الناجح؟ ألا تصلح هذه الدورة بالذات؟

ماذا لو قلَّبنا الدورة إلى التاجر الناجح؟ ألا تصلح الدورة بعينها؟

ماذا لو حضرت بالأب المربى؟ ألا تقدم هذه الدورة؟

ومثلها الكاتب المتألق.

ثم أعقبتها بقولي: هذه صفات عامة بجميع المسلمين، تصلح للجار الصالح، والصهر الكريم، والشريك الناجح، وغير ذلك، ولكن عندما أطلب منك أن تحاضر في أخلاق الداعي، فمن الضروري ذكر بعض هذه الصفات، ولكن لا يصح أن تكون الدورة كلها هكذا، ثم تسمى: «دورة في أصول الدعوة».

ولن أدعى يوماً أني أنا المؤلف لهذا الكتاب، إنما هو خلاصة تجارب شيوخي، ومارساتهم الدعوية، فقلعة الدعوة بنيت في نفسي حجرًا حجرًا على يدي شيوخي، وأعتذر إن كان قد صدر في الكتاب ما يوحى بلغة الاستعلاء، فسرد النقد، وتسلیط الضوء عليه يوحى بذلك، ولا سيما أني الراصد لهذه الزلات، الجامع لها، المنبه إليها، مع وجود الحسنات، ولكن الذي يبقى في الذهن جانب النقد.

ومن له اليد الطولى في بناء هذا الكتاب شيوخي وإخوتي وأحبابي، الذين تصدقا على بثمين وقتهم، وتكرّموا بقراءة الكتاب بتمامه أو بعضه،

ووضعوا بضماتهم، وأبدوا انتقاداتهم، و كنت قلت لكل واحد منهم: اقرأ كتابي هذا قراءة العدو لعدوه، المترصد للخطأ، والصياد للرَّلَلِ، فإني أحب أن أسمع النقد من حبيبي لا عدوبي، ولا تأخذك بي رأفة، فكان من جُلّهم هذا النصح الحبيب الغالي على قلبي، فقد لحظت من كل أحد منهم أنه لم يسكت عن زلة، ولكن بثوب الحبيب الشفوق، أخص منهم بالذكر سادتي وتابع راسي الشيخ الصدور البدور الأستاذة:

والدي الشيخ محمد جميل عطار، عاطف بيانوني، أحمد معاذ حقي، جابر بن نوري مصري، عبد البديع نيرباني، سلمان أبو غدة، صلاح الدين إدليبي، عبد الجواب صباغ، حسن يوسف، أحمد خلوف أديب، نور الدين عطار، وغيرهم.

وتكرم بتقريره أصحاب الفضيلة: الدكتور أحمد معاذ حقي، والدكتور عبد الجواب صباغ، والدكتور صلاح الدين إدليبي، والشيخ سلمان أبو غدة.

ويلاحظ القارئ الكريم أن هذا الكتاب يخاطب شريحة ليست مبتدئة، ولم أكن لأرسم هذا الكتاب إلا في فترة مطولة جدًا، حيث كنت أرصد نجاحات وإخفاقات وملحوظات الدعاة، وأضم كل ملحوظة إلى أختها، حتى يسرها ربي فكانت رسالة متكاملة من عدة مزايا، فحاولت - فيها كما حاولت في أخواتها - أن أكتبها وأشهد بالسنة النبوية قدر الاستطاعة.

فقد جمعت في هذا الكتاب نوايغ من خبرات علماء حدثوني، وقصصاً من أربع القصص التي مرت بي أو معي أو حدثني الثقة بها، وكنت وما زلت

أكتب وأنظر في علم الدعوة إلى الله تعالى، ولكني منظرٌ من القسم الثاني، لأن المتكلم نظريًا على قسمين:

الأول: أكاديمي ولد وعاش ونما في التنظير، فهذا ليس لديه ممارسة دعوية ترشده، إنما مثُلُه مثُلُ الذي درَسَ ألف كتاب في إصلاح الطائرات ثم درَسَ المادة النظرية، ولكنه ما أمسك بقطعة من طائرة، ولا رأتها عيناه.

الثاني: صاحب عمل وممارسة يومية، فخبرته النظرية ولدت من رحم معاناته وتجاربه العملية.

وجمعت في هذا الكتاب أطراً تتعلق كلها بالوعي، فقد تكون الفتوى صحيحة، ولكن من الوعي ألا يصرَح بها، أو يكون المطلب حقاً ولكن ليس من الوعي الكلام فيه.

وقد حدثني شيخنا الشيخ عبد المجيد بياني، أنه كان يدرِّس في إحدى الثانويات في حلب، ومعه صديق دراسته وتدريسه وعمره شيخنا العالم التقى الشيخ محمد سعيد بن أمين إدلي (ت: ١٤٣٥ هـ) رحمه الله، وكلاهما يدرِّس مادة التربية الإسلامية، وكان معهما شاب قلبه كالحليب المصقُّ، يجمع بين التقوى والعمل، ولكنه حاسر العقل من الوعي فيما بدا لهم بعدها، وكان الأخوان يحذِّران جاسوساً معلوم التجسس لهما، قد اتخذ الإخبارات عنواناً زائفاً، وتجمل بالخلق الحسن تصنعاً، وتشاور الأخوان بالواجب عليهم تجاه صديقهما التقى، وسارعاً بالنصح دون تَرِيُّث، محذِّرين إياه من ذاك الرخيص المتتجسس، وإذا بالتقى غير الوعي يأخذ الكلام على عواهنه، ويحمله ويطرحه في حِجْرِ الحاسوس طرحاً عنيفاً ويسأله: هل أنت جاسوس كما أُخْبِرْتَ عنك؟

فاعتذر إليه، ونفى التهمة عن نفسه، وصوب عينيه تجاه مدرسية التربية الإسلامية، ولم يكن لديه متهم غيرهما، ووصلت الصورة إلى الأخرين كما هي، فلما عاتبا ذاك التقى كان رده: أليس الله أمرنا أن نثبت من كلام الفاسقين؟ فقد قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَحَالٍ فَنُصِيبُوهُ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِنَ﴾ [الحجرات: ٦].

مثل هذا: حفظ الآية ولم يُؤتِ الوعي الذي في ظلالها، وما سأل نفسه: وهل الجاسوس يخبرني عن نفسه أنه كذلك؟

فكان هذا الكتاب للحديث عن الوعي الدعوي، وليس عن تأصيل الدعوة.

وقد جعلته في أبواب ثمانية كأبواب الجنة، تكلمت فيه عن: فهم الدعوة، وظلال الدعوة، وتقديم الدعوة، والعلاقة مع الدعاة، والعلاقة مع المدعين، والقيادة الدعوية، وسلوك الداعي، والدعوة مع المعارضين.

وهدف الأول من هذه المؤلفات إفاده أبناء عصرى من الشباب في مجال الدعوة، لأن الإنسان يولد بلحام غض وعصب وعظام وعقل، فيكبر وتتمو كلها وتقسوا وتتصلب شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى حد توقف فيه العظام عن التصلب، ويبدأ اللحم بالترهل، لكن العقل يستمر بالتصلب، حتى يصل إلى حد تُبْقِي الطبقة الكلسية حول العقل، فلا يكاد المرء يغيّر من قناعاته فكره في السنة، إلا من حفته عنانية الله تعالى.

هذا: وأسائل الله تعالى أن ينظر إلى كتابي بعد حقبة من الزمن أنه ليس

فيه كبير تميز، تدرؤن لم؟ لأن هذه الأفكار إذا انتشرت وعمّت لم يعد يُنظر إليها نظرة الإجلال الزائد، وكنا ننظر إلى كتب بعض المصنفين على أنها آية في الإبداع، وفيها ما تتطلع إليها نفسك وزيادة، ثم خلف من بعدها خلف أصبحوا يرون أنها مفيدة ولكن ليست بذاك الحجم، وأن كلامها معروف.

قلت لبعض الشباب: ما ترونـه معروفاً كـنا نـتـخـاصـمـ فـيـ المـجـالـسـ بـيـنـنـاـ -
نـحـنـ طـلـبـةـ الـعـلـمـ - وـتـرـتـفـعـ الـأـصـوـاتـ، وـتـقـتـلـ الـلـيـالـيـ - ذـوـاتـ العـدـدـ - وـنـحـنـ
نـتـحـاـوـرـ فـيـ أـمـرـ أـصـبـحـ الـآنـ بـدـهـيـاـ لـدـىـ عـقـلـكـ، وـكـلـكـ مـقـتـنـعـ بـهـ.

اللَّهُمَّ إِلا مَنْ دَرَّبَ نَفْسَهُ عَلَى الْلَّيْنِ وَالْمَرْوَنَةِ، وَكَانَ مُسْتَمِرًا فِي تَعْدِيلِ
الْأَفْكَارِ، وَتَصْحِيفِ الْمَسَارِ، حَتَّى صَارَ التَّنَازُلُ عَنِ الْقَنَاعَاتِ سَهْلًا عَلَى رُوحِهِ.
هـذـاـ، وـأـسـأـلـ اللـهـ تـعـالـىـ قـبـولـ جـهـدـ عـبـدـهـ الـمـقـلـلـ، كـمـاـ أـسـأـلـهـ جـلـ شـأنـهـ
الـشـبـاتـ وـالـتـرـقـيـ وـالـهـدـاـيـةـ إـلـىـ أـحـسـنـ الـاعـتـقـادـ وـالـأـقـوـالـ وـالـأـفـعـالـ.

المؤلف:

أبو النصر عطار

كتبت أصل هذه المقدمة في الروضة الشريفة من المسجد النبوى، في ساعات التجلی من السحر، عقب الحج في أواخر ذي الحجة سنة ١٤٤٤ هـ.



فهم الدعوة





طريق الدعوة متعب

أجل والله: إن العلماء هم ورثة الأنبياء، بحلو هذه الوراثة ومُرّها، بما فيها من كرامة في الدنيا، وشفاعة في الموقف، ورفعة من النبئين في الآخرة، وبما فيها من إرث بعض متابعي الأنبياء والمرسلين، من تكذيب وطرد وإيذاء جسد وسمعة وغيرها.

هذا وإن طريق الدعوة ليحوي العجائب، منها:

أ— حُفَّرٌ فِي الطَّرِيقِ

يطيب لبعض الشباب المتعلّم لفن قيادة المركب حديثاً ألا يزحزح المقوّد يمنة ولا يسراً، فتراه يمشي في الطريق بأسلوب أهوج يتحدى بها الحفر ومطبّات الطريق، وأشدّ منه سذاجة مع هوجاءَ مَن استعمل هذه العقلية في الدعوة، وهو يعلم أن جُل الحفر ما عملته يدا عدوه، ومع ذلك فلا يحرك المقوّد يمنة ولا يسراً، ولا يبطئ عند المطب المفتعل، ولا يتحاشى الحفرة التي تضرُّ بل قد تُكسّر رجليه في الدعوة، ويتعطل عن الاستمرار والمضي، ومثل هذا يموت أول الطريق - ولو كان موتاً دعوياً لا حقيقياً - وتنتهي صلاحيته، ويتجاوزه الزمان، وما أسوأ العناد.

ب— بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ

إن لكل صاحب مشروع طريقاً عريضاً يمضي فيه ليصل من خلاله إلى نجاح مشروعه، وتظهر بين الفينة والأخرى ُلُرْق صغيرة جانبية، وهي تُغْرِي بجماليها، وتختلف عن الجادة الأم اختلاف الشابة الفتية عن أمها العجوز

الشَّمْطَاء، وَخَلْقُ الْمَشْرُوعِ الْعَارِفُ لِحَدَافِيرِهِ يَعْرُفُ أَنَّ خَرْوَجَهُ إِلَى بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ سَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْهَدْفِ الْمَنْشُودِ، وَلَنْ يَتَخَلَّ عَنِ الْطَّرِيقِ الْكَبِيرِ الْعَرِيشِ لَحْظَةً، وَلَنْ تَغْرِيهِ بُنَيَّاتُهُ الْجَمِيلَاتِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ سَلَكَ الدُّعَوَةَ مِنْ شَارِعِهَا الْعَرِيشَ، وَفِي سِيرِهِ مَرَّ عَلَى زُقَاقِ التَّفَرُّغِ لِلتَّجَارَةِ وَهُوَ يَلْمُعُ، فَإِنْ سَلَكَهُ فَلَنْ يَسْتَطِعَ الرَّجُوعَ إِلَى الدُّعَوَةِ، وَإِنْ اسْتَغْنَى عَنْهُ وَصْلَهُ، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِي أَبَدًا أَنِّي ضَدَّ التَّوْفِيقِ وَالتَّشَارِكِ بَيْنِ إِعْمَالِ التَّجَارَةِ، مَعَ إِفْرَاغِ الْجَزْءِ الْيَسِيرِ مِنَ الْوَقْتِ لَهَا، وَالْخُطُّ الدَّعَوِيِّ الْعَرِيشِ الْكَبِيرِ، فَذَاكُ أَوْمَانُ بِهِ كُلُّ الإِيمَانِ، لَكِنَّ الْحَدِيثَ مَنْصَبٌ عَلَى سُلُوكِ الْطَّرِيقِ الَّذِي ظَاهِرُهُ الْوَرُودُ، وَبَاطِنُهُ الصَّومُ عَنِ الْعِلْمِ وَالدُّعَوَةِ.

أَلَا إِنَّ سُلْعَةَ الدُّعَوَةِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ الدُّعَوَةَ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ مَرِيجِ مَعْبَدٍ، فَمِنْ وَفَّاها حَقُّهَا مِنَ التَّعْبِ وَالنَّصَابِ وَصَلَ، وَمِنْ تَفَلَّتْ وَآثَرَ الرَّاحَةَ فَإِنَّ الْطَّرِدَ مِنْهَا هُوَ الْمَأْوَى.

لَسْتُ الْوَحِيدُ فِي الْمَيْدَانِ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، وَيَقْدِرُ كُلَّ ذَرَّةٍ يَقْدِمُهَا فِي الدُّعَوَةِ، وَيَرِى عَمَلَهُ جَبَلًا تَنَوَّعَ بِحَمْلِهِ الْعِبَادُ، وَأَمَا غَيْرُهُ فِي نَظَرِهِ: فَجُلُّ النَّاسِ مُهَدَّمٌ، وَالْقَلِيلُ مِنْ يَبْنِي مَعَ الْخَطَا الْكَبِيرِ، وَالْأَقْلَمُ مِنْ يَقْدِحُ وَيَكْدَحُ وَلَكِنَّ فِي عَمَلِهِ خَلْلٌ، أَمَا نَفْسُهُ فَهُوَ مَحْورُ الصَّوَابِ فِي الْكَوْنِ، وَالْوَزْنُ الَّذِي يَقْاسِ بِعَمَلِهِ كُلُّ عَمَلٍ.

حَدَّثَنِي أَحَدُ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ مِنْ تَلَامِذَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْفَتَاحِ أَبُو غَدَةِ (ت: ١٤١٧ هـ) رَحْمَهُ اللَّهُ، قَالَ: أَرَادَ بَلْدُ عَرِيَ إِقَامَةً مَوْتَمِرٍ عَنِ الْمَذاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَأَرْسَلَ الْمَسْؤُلُ عَنِ الْمَوْتَمِرِ دُعْوَةً إِلَى عُلَمَاءِ باكِستانٍ يَدْعُوْهُمْ إِلَى الْمَوْتَمِرِ،

لكنه فوجئ بالرَّد القاسي منهم، وأبوا أن يحضروا المؤتمر، وعللُوا امتناعهم عن الحضور أن بعض علماء البلد يطعنون بالإمام أبي حنيفة (ت: ١٥٠ هـ) رحمه الله، وسألوا: كيف نحضر ومنكم من يسيء إلى رمنا الأعظم، بل في بعض جامعاتكم تخرج عدد من الطلبة وأطروحتهم في الطعن بالإمام رحمه الله تعالى.

حارَ المنسق للمؤتمر في الأمر، ولا يمكن في حال من الأحوال أن يتم المؤتمر وعلماء باكستان لم يحضروا.

شاور الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، فتدارك الموقف بفطنة، وقال له: أنا أرسل لهم ليحضروا، ولكن ائتي بشاب نَائِبِهِ رُسْلُهُ إلى باكستان، ليسلم الدعوة باليد، وكتب الشيخ عبد الفتاح رحمه الله بيده كُتُباً للعلماء بأسمائهم، يدعوهُم فيها إلى المؤتمر، فلَبَّوَا الدعوة عندما جاءتهم من عالم محب للإمام أبي حنيفة رحمه الله، ثم رجع الشاب إلى بلده.

فأرسل الشيخ عبد الفتاح رحمه الله إثره وجلس معه يطمئن عن سفره واستقبال الشيوخ له، وردهم عليه، وليس معه ملخصاً عن السفر كاملاً.

– الشيخ عبد الفتاح: كيف وجدت باكستان وعلماءها؟

– الشاب: وجدت أننا مصابون بغرور الاهتداء، لأنني اكتشفت أن في العالم أنساً كثيرين، وعلماء عظاماً يعملون في خدمة دين الله تعالى غيرنا.

البعد جفاء، قاتل الله حجاب البعد ما أصْفَقَه!

لَا يَسْتَوِونَ

لقد شاءت حكمة الله أن يجعل الخلق درجات:

فالملائكة غير متساوين في الرتبة والفضل، فليس جبريل كسائر الملائكة، وكذلك الأنبياء، وقد قال الله تعالى: ﴿تَلَكَ الْرَّسُولُ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَتٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

وكذلك الصحابة رضي الله عنهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتحِ وَقَتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾ [الحديد: ١٠]، فليس الأقرع بن حابس، وعيينة ابن حصن الفزاري، ومعقل بن سنان، والذين نادوه من وراء الحجرات كأبي بكر وعمرو وعثمان وعلى رضي الله عنهم.

ومثلهم البشر يتفاوتون في المراتب والفضل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَايِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِلَيْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَيْرُ﴾ [فاطر: ٣٦].

فكذلك الدعاء إلى الله تعالى على درجات، وكذلك المدعون لا يستوون في الفهم، ولا في التلقي، ولا في الاستجابة.

لِيُسْوَا سَوَاء

وقل مثلها في غير المسلمين، فالكفر دركات، كما أن الإيمان درجات، فليُسوَا سَوَاء:

كافر نفع الإسلام ولم يسلم، مثل: أبي طالب.

وكافر محайд لم ينفع الإسلام ولم يضره، مثل: الحارث بن گلدة.

وكافر آذى النبي ﷺ، مثل: أبي هب.

لا يستوون عند الله، ولسنا نعاملهم في الدنيا معاملة واحدة.

من الوعي في الدعوة أن تعرف دركات الكفر، فلا تضع الكافرين جميعاً في سلة واحدة، سواء منهم المساالم، والقاتل، وال مجرم، والمساعد، وهذا خلط ينافي منهج القرآن الكريم، ﴿ لَيَسُوا سَوَاءٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣]. ﴿ وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمَنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومن طريف القصص المبكية في مسألة كفر دون كفر، أن رجلاً في كربلاء وقف في قارعة الطريق، ومعه حمل غير خفيف من المtau، وهو يقصد من يساعد في حمله على عاتقه، فمر به شخص، فخاطبه متلطفاً يلتمس منه أن يرفع له مtauه، فانحنى الرجل - فلامس المtau أو كاد - وهو ينادي: يا حسين! امتعض صاحب الحمل، وتغير لونه، وانتفخت أوداجه، فلم يملك نفسه حتى طلب منه ترك الأغراض، وحق له ذلك والله، فهذا النوع من الاستغاثة حماقة يئُّ عن إيغال في طريق الجهل المظلم.

تعجب منه الرجل وأبدى استعداده، فاعتذر له ثانية بجزم وجزم.

وهو في وهلة وذهول وقلبه يردد قول القائل: «العلم بصر، والجهل عم»، إذا برجل ثانٍ يمر أمامه، فتوسم به خيراً، وما تردد في طلب المساعدة منه، فانحنى ليأخذ الأغراض من الأرض وشفاته تدمدم بالكلمة الأولى نفسها - يا حسين -، زادت صعقة الرجل، وطلب بغضب منه أن يترك الزاد والمtau.

وجاء الثالث: وتكررت الحادثة مما أشعلت في نفس المسكين حسرة
كأنها جمرة تغلي.

ثم جاء آخر: وما إن سمع الطلب إلا وقد بادر إلى المتاع يحمله، وهو
يصبح من سواديء قلبه: يا الله!

تهلل وجه الرجل بشرًا، وفتح عينيه وذراعيه يَلْفُهُ بهما، ويخاطب سوياً في
زمن المرض والعدوى والوباء: بارك الله بدينك! بادره قائلاً: ما السبب؟

أجابه: ربك يشهد أن ثلاثة قبلك طلبت منهم هذا الطلب ولكنهم
صادموني بقولهم أجمعين: يا حسين، أهكذا العبادة؟

حسيل الرجل السامع وبدت الحسرة في عينيه قائلاً: أَوَّمِلُكُ وقد انسلاخ
الفهم منهم، أهكذا قدر الحسين في نفوسهم؟ أيسْتَغاث بالحسين في مسألة
حقيقة كهذه! إن الحسين لأرفع من أن يستغاث به في أمر تافه، لو كان على
الحق لاستغاث بالله لهذا الحمل الحقير، ووفر الاستغاثة بالحسين للأمر الجلل!

قد يستغرب العاقل حدوث هذا وأمثاله، ولكنه لو تبصر لأدرك أن الجهل
دركات، كما أن العلم درجات، وأن العصاة أنواع، هناك العاصي النادر،
وال العاصي المعاند المجاهر، والكافر اللئيم الخبيث النفس، والكافر المسالم
والمحبُّ الذي يقدم الخدمة، فإياك والخلط بينهم.

تعمّق في تحليل المشكلات وإلا سقطت نتيجتك

يأتيك من يدعى أنه مصاب بالعين، تسأله: كيف عرفت؟ فيقول: لم أُوقق
في عملي قط.

وبعد عِدَّة أَسْئَلَة تجُدْ أَنَّه ينام إِلَى مِنْتَصِف النَّهَارِ، وَأَصْحَابُ الْعَمَلِ لَا يَحْتَمِلُونْ هَذَا الْغِيَابِ فَاعْتَذِرُوا إِلَيْهِ، وَهُكُنَا دَائِمًا يَعْمَلُونْ، وَيُطْرَدُونْ، ثُمَّ يُغَيِّرُونْ الْعَمَلَ، وَيَقْصُّونْ، ثُمَّ يُطْرَدُونْ، ثُمَّ يَدْعَى أَنَّ السَّبَبَ ضَرْبَةٌ عَيْنٌ مِنْ حَاسِدٍ! وَالسَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ غَيْرُ ذَلِكَ.

تَدَعُّي أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ مِنْ زَوْجِهَا الْكَلْمَة الصَّالِحةُ، وَلَا أَلْفَاظُ الْغَزْلِ، وَكُلُّمَا دَخَلَ الْبَيْتَ بِدَأَ النَّكَدُ وَالْتَّعبُ، ثُمَّ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَتَعَمَّقَ فِي الْكَلَامِ فَتَكْتَشَفَ أَنَّهَا السَّبَبُ الَّذِي أَظْلَمَتْ بِهَا حَيَاتُهُ، فَبِمَجْرِدِ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ يَقْعُدُ فِي زِنْزَانَةِ عَذَابٍ، يَتَجَرَّعُ فِيهَا كَؤُوسُ الْمَرَارِ!

لَقَدْ تَغَيَّرَ السَّبَبُ، فَتَغَيَّرَتِ النَّتِيْجَةُ، وَكَنْتُ سَاعِظَ الرَّجُلَ، فَالْتَّفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ.

وَتَسْأَلُ عَنْ اْمْرِي: لَمْ لَا يُوفَّقَ؟ فَيَبَدِّرُ أَحَدُهُمْ لِيَقُولَ لِكَ: هُوَ عَاقٌ لِوالدِيهِ.
فَتَسْأَلُ: وَلَمْ أَرِي فَلَانًا ناجحًا فِي الْعَمَلِ وَهُوَ عَاقٌ لِوالدِيهِ! وَهُلْ كُلُّ أَصْحَابِ الشُّرُكَاتِ الْعَالَمِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُلْحِدِينَ كَانُوا بَرَّةً بِآبَائِهِمْ؟ أَمْ لِلْمَوْضُوعِ أَسْبَابٌ أُخْرَى؟

أَوْ يُجَبِّبُكَ: لَأَنَّهُ تَارَكَ الصَّلَاةَ! وَهُلْ أَصْحَابُ الشُّرُكَاتِ الْكَبِيرِ مِنَ الْكَافِرِينَ هُمُ الْمُصْلِيُّونَ؟ فَيُزِيدُ الطَّيْنَ بِلَهَ: وَيَقُولُ: ذَاكَ كَافِرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ هَذِهِ دُعَوةُ الْكُفَّارِ بِطَرِيقٍ مُبَطِّنٍ؟

أَخْفَقَتِ اْمْرَأَةٌ فِي الْعَلَاقَةِ مَعَ زَوْجِهَا، فَصُورَتْ لَهَا بَعْضُ الْأَغْرَارِ أَنَّهُ بِسَبَبِ عَدَمِ أَخْذِ أُورَادِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، فَالْسُّؤَالُ: وَكَيْفَ نَجْحَتْ فَلَانَةُ فِي حَيَاتِهَا

الزوجية، وهي لا تصل أصلًا؟

ثم تكتشف أن هناك أسباباً أخرى غير الصلاة، تتعلق بالأخلاق، أو لين الجانب، أو العفة وعدم الطمع، أو الخدمة مع اللطف، وهي أسباب لها أهميتها، إلى جانب التقوى.

وما حال الصحابة عنا بعيد، فقد سأله أبو ذر النبي ﷺ أن يسلّمه منصباً، فاعتذر منه، ووصفه بالضعف، ولم يكن ضعيف تقوى، بل كان في القِيمَ، ولكن الأسباب التي تعاطاها علي بن أبي طالب في قيادته لم تكن مجتمعة في أبي ذر رضي الله عنه.

والذي أراه: أن ما يجب إيصاله للناس أن الحياة الدنيا تقوم على أسباب وماديات، فإذا انضم إليها التقوى كانت أُنْجَحَ وأُنْجَعَ، وأبعد عن الشر وأسلم، وإن لم تتوافر الأسباب فلن تفيق التقوى وحدها، وربما تفيد الأسباب وحدها.

ومثالها: التجارة تقوم على أسباب مادية، فإذا خالطتها التقوى كانت أُنْجَحَ.

والأسباب وحدها تصنع التجارة - إن أذن الله تعالى بذلك - لكن التقوى وحدها لا تصنعها، والأخذ بأسباب الزواج يتزوج وينجب، فإن كان تقىً كأن زواجه أُنْجَحَ، وإن كان فاجراً فهو أدنى، ولكن التقى الجالس في بيته دون تَعَاطٍ للأسباب لن يرزق بالولد من دون زوجة مهما عمل.

فما بآل بعض الناس يربط كل أمر بالتقى وحدها! بل يزيد القصيدة بيتاً بضرب أمثلة بفلان وفلان، جاءه الرزق من غير تَحْرُك، وجاءه المال من

غير سعي، وهذا سلوك مصادم لشريعة الحبيب ﷺ مصادمةً تامة.

ليست الوحيدة، ولكنها القاصلة

قد يقال: إن بعض الشباب نفر من دين الله بسبب ضيق العيش.

أقول: إرجاع الأسباب إلى سبب واحد خطأ من أخطاء التفكير، يوصل إلى نتيجة مشلولة.

لا أشك قيداً أنّ الموضع أسباباً كثيرة، ولست أجملها في سبب، ولكنني أسأل إخوتي الدعاة عن أحد الأمثلة: ألم يكن لكم أثر في إغراق الناس بأحاديث الشام بطريقة تورث التكاسل، وتضع النصر نصب أعينهم، ويُقسم فلان من وعاظ التلفاز أنه يجد نصر الله بعينه، وأنه سيصل في الجامع الأموي بعد أيام، وتمر الأيام والسنون، والوضع يزداد أزمة بدل الوقوف؟

ما حال الشاب الذي سمع هذه الأحاديث وهذه الأيمان والندور؟

أما الذي تعمق في تحليل المشكلة، فإنه لم يقع في الحرج، لأنّه وصف للناس ما يجب عليهم، وكيف ينصرون الله تعالى، وما هي أسباب النصر، ومن أين يبدأ عمل الصف المرصوص، وعلّمهم أنّ سُنن الله تعالى في الكون لا تحابي الأنبياء والمرسلين، وعلّق النصر وكفالة الله تعالى على هذه الأسباب، وعلّمهم أن نصر الله لا يأتي إلا بعد هذه المقدمات.

فما نجح من نجح إلا بتحليل المشكلة بصورة دقيقة، ووضع اليد على الجرح، ثم وصف العلاج، وما من طبيب يصف الدواء بناء على نظرية سطحية، أو توقع مبني على ظن، من غير فحص، ووضع اليد على العلة بدقة

إلا سقطت نتيجته، وأخفق في علاجه، وكلما زاد في تحليل المشكلة زاد صوابه في تعين الدواء، ودنا منه علاج المصاب.

الموقف، وطريقة عرض الموقف، وتفسير الموقف

سأحكي لكم عن أمر له إسهام عجيب في قلب الحقائق، وذلك يبني على الفرق بين: الموقف، وعرض الموقف، وتفسير الموقف.

الموقف: طلب أحد الشيوخ من تلميذه أن يُعْفِي لحيته، فما استجاب التلميذه، وترك الشيخ لأنَّه لا يرِيدُ ذلك، فسارع الشيخ إليه ووصله بعد أن هجره التلميذ.

١- عَرَضَ هذه الحادثة محبُّ للشيخ فقال: إنَّ فلانًا من إخواننا ترك حلقَةَ الشيخ من أجل سُنَّة، فجاءَ شيخنا إليه وأعاده إلى الدرس والحلقة، وما تركه للشيطان.

٢- وعرض الحادثة مبغضُ للشيخ فقال: إنَّ شيخَ آخر الزمان مَنْ إذا طلبَ مِنْ تلميذه ولم يستجبَ تنازلَ الشيخُ للطالب، وبدلَ أنَّ ينصاع الأصغرُ للأكبر، فقد عُكِست الصورة.

٣- فَسَرَ محبُّ هذا الموقف بقوله: ما أبعد نظرَ شيخنا في الدعوة إلى الله، إنَّ شيخنا طلبَ من أخيه فلانَ أن يطلقَ لحيته، ولكنَّ أخيه ضَعُفتْ نفسه أمامَ هذه السنة، فتركَ مجلسَ شيخنا، فلما علمَ الشيخُ صعوبةً إطلاقِ اللحية على هذا، وعلمَ ترَكَ التلميذَ حلقةَ العلمَ من أجل رغبةٍ ضَعُفتْ نَفْسُهُ أمامَها، رَتَّبَ الشيخُ أولوياته، وقدَّمَ الأَوْلى على الأقل، والقطعىَ على الظنيِّ، وأوجَبَتْ

هذه الدقة على شيخنا أن يصل التلميذ، فلا حرج من ترك اللحية، فهي أقل ضرراً من ترك اللحية والجماعة المربيّة كلياً، أما وقد فقدنا الأمر الصغير، فلن تفتقـد بـحرائه أخاً، ونتركه لخاطف الذئاب الضاربة من دعاة الانحلال، وإن بقاء الأخ بين إخوانه أدعى لهدايته وثباته، أما تركه فسيزاح عن الصواب خطوة خطوة.

ب - وفسر البعض الموقف بعبارته: شيوخ آخر الزمان، ليس لأحدهم ذلة على تلميذ أن يطلب منه طلباً، ولا بأس لديهم أن يرد ولده أمره، ويزيد العلم حراً فيداع حلقـةـ الشـيخـ، ولكنـ حظـوظـ نفسـ الشـيخـ تمنعـهـ أنـ يـفـقـدـ أحدـ المـقـبـلـينـ ليـدـهـ فـيـتـنـازـلـ عـنـ سـنـةـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ، مـقـابـلـ أـلـاـ يـخـسـرـ قـبـلـةـ يـدـ.

انظر الفرق الهائل بين ذات الموقف الذي أخبرتكم عنه بسطرين، وبين آخر صورة وصلتـ إـلـيـنـاـ معـ التـحـلـيلـ، فـهيـ معـ تـحـلـيلـ المـحـبـ: صـورـةـ بـطـولـةـ وـنـجـاحـ لـكـبـيرـ يـؤـلـفـ قـلـبـ وـلـدـهـ كـيـ لاـ يـخـسـرـ نـفـسـاـ ظـاهـرـةـ، وـهـذـاـ بـعـدـ التـنـظـرـ فـيـ الدـعـوـةـ، يـتـنـازـلـ عـنـ الـجـزـئـاتـ فـدـاءـ الـبقاءـ عـلـىـ الـكـلـيـاتـ.

وـهـيـ مـنـ الـمـبـعـضـ: صـورـةـ كـيـبـيـةـ لـمـنـ قـدـمـ هـوـيـ نـفـسـهـ عـلـىـ سـنـةـ نـبـيـهـ، وـالـمـوـقـفـ صـادـرـ مـنـ ظـاهـرـهـ الـعـلـمـ وـالـتـرـبـيـةـ.

إـذـاـ قـرـأـتـ أـوـ سـمـعـتـ مـوـقـفـاـ، فـحاـوـلـ أـنـ تـقـفـ عـلـىـ الحـقـيـقـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ غـيـرـ بـهـارـاتـ عـرـضـ، وـلـاـ لـظـىـ التـحـلـيلـ.

قطْعُ الموقف عن جذرِهِ وَمَا يلُوذُ بِهِ

وشتان ما بين قولي: فلان رفع صوته في وجه أبيه، وبين أن أقول: ما رفع صوته في وجه أبيه طول عمر دام أكثر من خمسين سنة إلا مرة واحدة، والله يغفرها له، ولعل أباً ساحمه، والله في الآية التي أذب بها أباً بكر وعمر رضي الله عنهما نعتهما بالمؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُقَدِّمُ مَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

إن الرجل الذي كان يؤتى به في الشراب قد شرب دون أي مراءٍ، ولكن شتان ما بين قولي: إنه صاحبي شرب الخمر مرات، وبين أن يقال: إنه كان من أهل الجاهلية، وكانوا يدمون الخمر، فلما دخل الإسلام، تاب من كل أدران الجاهلية، وإن كانت قد زلت قدمه فشرب الخمر أكثر من مرة، والنبي ﷺ أعطاه وسام شرف، وشهادة سماقة بقوله: «فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ»^(١).

والوجه الأكمل والأليق أن أقول للناس:

كان أهل الجاهلية يضعون مَؤْوِنَةَ الخمر في بيوتهم، ولا تقاد تدخل بيته من بيوت الجاهلية إلا وفيه جرار الخمر، وجميع أفراد المجتمع مدمنو خمر، ولا يكاد ينقضي عجب الناظر، إذ يقول: كيف استطاع هذا المجتمع أن يترك الخمر، من خلال ثلاث آيات، فنزلت الأولى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

وَالْمَيْسِرُ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴿١٦﴾ [البقرة: ٢١٩] والثانية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ شُكَرٍ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] والأخيرة حَرَّمت: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُنْفُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

بل يندesh المرء إذا علم أن عدد الصحابة يصل إلى قرابة ١٤٠ ألف صحابي، على مدى ٢٣ سنة، ولم يثبت شرب الخمر عن خمسة من الصحابة بعد تحريمها، ألا تعجب لهذا المجتمع المنضبط؟

أيستطيع أحد اليوم أن يُقنع بترك الدخان أو الخمر أو المخدّر عشرين بالمئة من المُدْمِنِين؟

ومثلها تقول في السرقة، فيا لله كم الفرق شاسع بين أن تقول: إن صحابيًّا غزا مع النبي ﷺ، وغلَّ شملةً، وأخبر النبي ﷺ عنه أن الشملة تشتعل عليه في نار جهنم، وبين أن تقول: لم تثبت السرقة في جميع حياة النبي ﷺ لجميع أصحابه وهم بعشرات الألوف إلا عن بضعة، منهم هذا!

أتكون هذه الصورة كتلك؟ لا يستويان مثلاً.

من سنن الله في مشروعك

السنن الإلهية في الدعوة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن في ذات الدعوة، وسنن في الدعاة، وسنن في المدعويين: وهاك التفصيل:

سنن في ذات الدعوة:

١- راجع نفسك: هل أحكمت الأسباب والأساليب؟ فإن كان كذلك فلا
تنصدم إذا لم يستجب أحد، ففي الحديث: «عَرِضْتُ عَلَيَّ الْأُمَّةُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ
النَّسِيَّيْ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّسِيَّيْ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّسِيَّيْ مَعَهُ الرَّهْفُطُ، وَالنَّسِيَّيْ لَيْسَ مَعَهُ
أَحَدٌ»^(١).

٦- تعلم بما لديك من أدوات متوافرة، فيفتح الله تعالى لك أدواتاً ما كنت تعرفها.

٣- تُرثُّ الدُّعَوةُ كِلْحَنْتَةً فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَدْرِي فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ وَالنَّبَاتُ،
وَأَيِّهَا تَكُونُ أُمَّةً لَتُصْبِحَ بِدَارًا لِلْعَامِ آتٍ، ثُمَّ تَنْتَجَ أَرْضًا كَامِلَةً بِسَبَبِهَا.

٤- الداعي يبلغ على قدرة استطاعته، والله يبلغ الباقي بحكمته بما يبهر العقول، فعليك الأذان، وعلى الله البلاع.

٥- لا رسوخ للدعوة المشوّهة: ﴿فَإِنَّمَا الْزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. فشتان ما بين دعوة الله تولاها،
وپضدها الله حاربها.

حُفَّت الدُّعْوَة بِالْمَكَارِهِ، وَمَعْهَا بَعْض الْلَّذَائِذِ، وَلَكِنَّ الْمَصِيرَ غَالٍ، فَلَدَّهُ
الرُّوحُ تَطْغِي عَلَى أَلْمِ الْجَسَدِ، فَالْجَسَدُ يَتَعَبُ، وَالرُّوحُ لَا تَشْبَعُ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ
يَخْاطِبَ حَبِيبَهُ: «عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبُ، وَبَعْدُهُ فِيكَ قُرْبُ»، وَكَمَا قَالَ آخَرُ:

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٧٥٦.

وَأَعْظَمُ لَذَّةٍ فِيهِ الْبُكَاءُ

عَذَابُ الْحَبَّ لِلْعُشَاقِ عَذْبُ

٦- دوام الحال من المُحال، فلن يبقى حال على نفسه، فلن تستمر شدة على داع، فاصلب، ولن يستمر العز، فلا تفرّط فيه.

٧- الدعوة النفاذة تكون في الشباب والصغر، فإن أردت نهضة دعوية فكرّس كلَّ الجهد فيهم.

سنن في الدعابة:

١- يصرف الداعي إلى الله في سبيل تخصصه من مال وجهد ووقت أضعاف ما يصرفه أصحاب الاختصاصات الأخرى، وفي الغالب أنه لن يستفيد أموالاً من الدعوة كما يستفيد أصحاب الصنائع، ومع ذلك ترى عنایة الله يمْنُ تفرغ للدعوة، فمن اشتغل بالله، كفاه الله أموره.

٢- الداعي إلى الله وارث نبوي بـكامل التركة: بالعز، والتکذیب، والابتلاء، والرفة.

٣- لن تحصل على دعوة بغير تعب ونَصَبٍ.

٤- العاقبة للدعاة المخلصين: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمَّنَ عَلَى الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَرَثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

٥- يصادف الداعي عجائب، منها: قد يخُذلُه ابنُ دعوته، وينصرُه عدوُها.

٦- إحكام الأسلوب الدعوي لا يعني ضرورة النجاح، لأن الأمر يتعلق بالمتلقي أيضًا.

٧- أنْقَدُ الناس دعوة من التزم بما يدعوه إليه.

سنن في المدعوبين:

- ١- لن يستجيب كل مدعو على الرغم من حاجتهم للدعوة وبُعد بعضهم عن الله تعالى، وعلى الرغم من صفاء الدعوة.
- ٢- بعضهم ينكر الدعوة، ويعرف أنها دعوة حق: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُقْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].
- ٣- وبعضهم يعلمون صدق الداعي، لكنه يجحد عناًداً: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يُغَايِنُونَ اللَّهَ يَحْكُمُ دُنْيَاهُ﴾ [الأنعام: ٣٣].
- ٤- سيراغ أمامك المرجفون إن تكلمت معهم بكلام وسألتهم سؤالاً فأجابوك بغير الجواب اللازم، قال تعالى في حكاية حادثة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾٢٣﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾٢٤﴿ قَالَ لِمَنْ حَوَلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾٢٥﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ إِبْرَاهِيمَ الْأَوَّلَيْنَ ﴾٢٦﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾٢٧﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾٢٨﴿ قَالَ لِيَنِ اخْتَدَتْ إِلَيْهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾٢٩﴾ [الشعراء: ٤٣ - ٤٩].
- ٥- ليس كل أتباع الدعوة مخلصين، بل فيهم المنفع، وفيهم من تخلى بخصلة من النفاق: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَعْطُوهُمْ مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهُمْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبه: ٥٨].
- ٦- في الدعوة أناس ميالون إلى تدين ليس فيه أمر ولا نهي، ولا شدة.

ولَا تَكْلِيْفٌ، وَلَا بَذْلٌ وَلَا عَطَاءً، يَحْبُونَ تَدْيُّنَ الْكَلَامِ أَكْثَرَ مِنْ تَدْيُّنِ الْحَرْكَةِ
وَبَذْلِ الْمَالِ، فَإِذَا طُلِبَ مِنْهُمُ الْبَذْلُ فِي اللَّهِ تَعَالَى دَارَتْ حَمَالِيْقُ^(١) أَعْيَنَهُمْ.

٧- التعب شديد لهداية الدفعة الأولى، لكنه يسهل كُلَّما امتدَّت المدة، فقد
تتعذب كثيراً حتى يستجِبُ بِضَعَةُ أشخاص في سنوات طويلة، ثم يفتح باب
قبول الناس للدعوة فيدخلها أعداد كبيرة في أزمنة قصيرة.

٨- ستتجدد من يعارض الدعوة لأنها جديدة تنسف الماضي، وليس لديه
سبب آخر، حجتهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا مَابَأَءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٩- لا يُهْلِكُ اللَّهُ تَعَالَى الْكَافِرِينَ جِيَعاً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَنَادِهِمْ، لَأَنَّ الْحَيَاةَ
ليست دار جزاء.

الفتوى كالثوب يصلح لأجساد دون أخرى

سُئِلَتْ كَرَاتٍ وَمَرَاتٍ عَنْ سُؤَالٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ حَالَ السَّائِلِ اخْتَلَفَ،
فَأَجَبَتْ - وَأَنَا الْفَقِيرُ الْمُسْكِنُ - كُلَّ وَاحِدٍ بِفَتْوَىٰ دُونَ أَخِيهِ.

أَمَا وَجَدَتِ الطَّبِيبُ تُعرَضُ لَهُ الْعَمَلِيَّةُ الْوَاحِدَةُ، وَلَكِنْ الْمَرِيضُ اخْتَلَفَ،
فَأَحَدُهُمْ يَحْتَمِلُ جَسَدَ التَّخْدِيرِ، وَالثَّانِي: يُعْطَيْهِ مَعَ الْمَرَاقِبَةِ، وَالثَّالِثُ: يَتَوقَّفُ
عَنِ الْعَمَلِيَّةِ وَلَا يَجْرِيْهَا، لَأَنَّ جَسْمَهُ يَأْبَى الْمَخْدُورَ!

سَأَحْكِيَ مَثَلًا: سَأَلَنِي شَخْصٌ عَنْ طَلاقِ الْثَّالِثِ بِلِفَظِ وَاحِدٍ، أَيْقَعَ ثَلَاثًا
أَمْ وَاحِدَة؟

(١) الْحَمَالِيَّقُ: جَمْعُ حَمَالَقٍ، بِالْكَسْرِ بِاطْنُ الْجُفْنِ. انظر: «المصباح المنير»، مادة: حمل.

قلت: هل أنت من حلف؟

أجاب: نعم.

قلت: وكم مضى على زواجك؟

قال: شهرين، لكن حلفت قبله يميناً معلقاً، وأخر صريحاً.

الإجابة: قلت: لا رجعة لك على الإطلاق.

أيُعقل لهذا المتهور أن تستمر الحياة عنده خمسين سنة لو أفتته دون أن يقع الطلاق المعلق؟

وسألني السؤال نفسه ثان، فكررت سؤالي نفسه:

كم مضى على زواجك؟

قال: ثلاثة عاماً.

قلت: هل من أيمان طلاق غيرها؟

قال: أول ما تزوجنا، وكنت جاهلاً طلقت زوجي طلقة واحدة، لكن جاء من نصحي لا أعود، ولم أعد منذ ذلك الحين.

قلت: وكيف حلفت الآن؟

قال: كنت غضبان، وحلفت ثلاثة دون أن أشعر.

قلت: تُعد هذه طلقة واحدة، ونأخذ بقول أحد العلماء حفاظاً على الميثاق الغليظ، لرجل غير مطلق، ومضى على زواجه سنوات طويلة.

هذا الفرق يا صديقي بين الحكم والفتوى، الفتوى لباس يصلح لواحد ومن هو مثله لا أكثر.

أما رأيت الحبيب المصطفى ﷺ يقول لهند: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدُكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(١)، أيصلح تعيم هذه الفتوى على كل امرأة، أم تخص حالة من تيقنت صدقها، وصحّت دعواها في زوجها.

فيروس الرضا الدائم، أو المجازفة في المدح

هو الرضا عن حالٍ أو إنسانٍ أو جماعةٍ أو مذهبٍ، بحيث يصل إلى تصوير العصمة في المرء أو المؤلف أو المؤلف أو الجماعة، ومثل هذا الراضي لو انقلب رأيت التطرف في الانقلاب كحاله في الرضا.

ومن لطيف ما جرى بيني وبين أحد الأصدقاء أنه مدح لي كتاباً من الكتب المعاصرة، وقال لي: إنه قد كتب لهذا الكتاب القبول.

آه كم يُتعب المفَگر نفسه وراء التدقيق في الكلام! ولكن كم ينجو من مطبات لاحقة!

استوقفت صديقي وقلت له: إذا قلت في اللغة: سُرِقَ المَتَاعُ، فال فعل هنا إعرابه: فعل ماضٌ مبنيٌ للمفعول، والمَتَاعُ: نائب فاعل، صحيح؟

أجاب: نعم.

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم: ٥٣٦٤، وسبب وروده: أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ، قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلًا شَحِيقًا وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدُكَ بِالْمَعْرُوفِ».

قلت: ولو أردت تحليل الفعل وإرجاعه إلى أصله لأصبح: سَرَقَ اللُّصْ
المتاع.

قال: نعم.

قلت: فأنت قلت: كُتب له القبول، فهل تُحلّ لِي الفعل، وَتُرْجِعُ الفعل
المبني للمفعول إلى مبنيٍ للفاعل؟ ومن فاعله؟
أجب: كَتَبَ اللَّهُ لِهِ الْقِبُولَ.

الكتاب قد تبرع أحد المحسنين بطبعه ٥٠٠ نسخة منه؟ ثم سُوق تسويقًا
أكبر وأكبر في مئات الآلاف أخرى؟

صديقي العزيز: الكتاب الذي كُتب له القبول هو الكتاب الذي لم تُسْهِمْ البشرية بتدخل مباشر في ترويجه، فما نستطيع أن نقول عن صحيح البخاري، أو رياض الصالحين، أو فقه الأئمة الأربع، أو بعض كتب السلف، وأشباهها: قد كُتب لها القبول.

بل أستطيع أن أطلق هذا على كتاب: «تربية الأولاد في الإسلام» للشيخ عبد الله علوان (ت: ١٤٠٨ هـ) رحمه الله، وقد طبع نحو أربعين طبعة، وفي إحدى الطبعات نحو عشرة آلاف نسخة، ولم يتبنَّ هذا الكتاب أحد من المحسنين بالتوزيع المجاني، أما أن يتحمّس تاجر - وأدعوه الله له أن يجزيه خيراً - ويطبع من الكتاب آلاف النسخ، ثم أرُوّج الأمر على أنه قبول من الله تعالى؟ فهذا ما أتحرّجُ منه، ولا أجرؤ أن أتّهم القائل بأنه: قد تأثّرَ على الله تعالى، ولكنني أخشى عليه من هذا.

فيروس الاعتراض الدائم

ما يكاد يتحرك عوام المسلمين نحو دينهم إلا جاء مراهقٌ من مراهقي الدعوة يُشَكِّلُ لهم.

إن فيروس الاعتراض هو أن يقول المعرض للعامي في كثير من قرباته أخطاءً، ولو تبصّر هذا المعرض لجعل الاعتراض لمن خالف أمر الله فقط، أمّا ما كان في الأساليب أو الآراء المتعددة فلا اعتراض، ولعلّم أن ممارسة عبادة مرجوحة خير من ترك العبادة بالكلية.

يقبل الشاب الحديث الالتزام على التدين، ويرى بعقله، ويذوق قلبه حلاوة الأخوة في المسجد، فلا يلبث أن يتعرّج بصناع الضوضاء الدعوية، حيث يقطعون عليه ضوءُ أنس الدعوة بجدلٍ قيلٍ وقال، فيكرة الالتزام بعد أن أحبهُ، ويصدّ عن المسجد بعد أن تعلق قلبه فيه، ويقول: هربنا من المختلفين على الدنيا لنصادف المختلفين على الدين؟

١- يراه من المحافظين على ست ركعات بين المغرب والعشاء، ويقول: لن أدع صلاة الأوابين ما حيت، فيقول له: حديثها شديد الضعف عن النبي ﷺ، وتسميتها بالأوابين خطأ، لأن النبي ﷺ ما سماها بهذا في حديث صحيح، ولكن التسمية الصحيحة لصلاة الصحي.

٢- يراه من يقوم ليلة النصف من شعبان ويصوم نهارها، فيقول له: لم يصح في فضلها أيُّ حديث، وبعض الأحاديث فيها ضعيف، وبعضها أشد من هذا بكثير، وبعضها مكذوب.

٣- يراه مواظباً على قراءة سورة الواقعة بين المغرب والعشاء فينهاه ويقول

له: حديثها شديد الضعف، بل باطل.

الخلاصة: أن بعض مُدعّي الدعوة لا يهدأ له بالُ حتى يعترض على كل شيء يراه في المدعو، ويصفه أنه خطأ، وأسمى هؤلاء بـ «عواائق الدعوة»، التي تعرقل سير السائر إلى الله تعالى، ولا تدلُّه على الله.

بالتَّهُ عَلَيْكَ: فالذِّي رَأَى مَنْ يَتَبَعَّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمُوَاظِبَةِ عَلَى إِحْيَاءِ لِيلَةِ فِي السَّنَةِ، أَوْ قِرَاءَةِ سُورَةِ كُلِّ يَوْمٍ أَوِ الْمُوَاظِبَةِ عَلَى قِيامِ صَلَاتِ يَوْمِيَّا ثُمَّ بَيْنَ لَهُ هَذَا الْحُكْمِ فَتَرَكَ الْعِبَادَةَ، أَلَيْسَ هَذَا مِنَ الصَّادِقِينَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، أَلَيْسَ قَدْ وُضِعَ نَفْسُهُ مِنَ الْعَثَرَاتِ فِي طَرِيقِ السَّائِرِينَ!

ويسألني: إذن فما هو جوابك في هذه الأمور؟

جوابي: ما ذكره المعترض من أحكام على الأحاديث ليست موضع اتفاق عند العلماء في شتى الأمصار والأعصار، فلا بد من احترام وجهة نظر المخالف.

ثم إنني أراه مصلحًا بين المغرب والعشاء ستًا، فأقول له: حاول أن تزيد عليها ولو مرة واحدة في السنة، فقد جاء عن حبيبك ﷺ أنه أقرَّ مَنْ كان يحيي ما بين العشاءين بالصلوة^(١)، فإياك أن ترضى بالبقاء على ما أنت عليه دون زيادة أبدًا، وهذه العبادة العظيمة بين العشاءين لا تسمى بالأوابين، لأن

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَجُولَ اللَّهِ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿نَتَحَاوَى جُنُوِّهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقَنَهُمْ يُنْفِئُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، قَالَ: كَانُوا يَتَيَّقَّظُونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ يُصَلِّونَ، وَكَانَ الْحَسَنُ، يَقُولُ: قِيَامُ اللَّيْلِ. رواه أبو داود برقم: ١١٦٨، وهو حديث صحيح.

التسمية خاصة بصلوة الضحى، ولكنها إحياءً وقت غفلة الناس بالصلاه.
وأراه صائماً أو قائماً ليلة النصف من شعبان، فأقول: إن قيام جميع ليالي
السنة سنة بإجماع العلماء، وهذه الليلة منها، ول يكن لك قيام آخر للليالي
أخريات أيضاً، فلا تفرد هذه بالعبادة فحسب.

وصيام الأيام البيض سنة ثابتة، وهذا منها، فأضعف لها - ولو مرات -
بعض الأيام الزائدة لتنال ثواب الثلاثة، فإن لم تستطع فلا بأس بواحد منها،
وعلى أقل تقدير هو صوم يوم في الله تعالى، وأجره عند الله تعالى عظيم.

ول يكن بعلمك أن للعلماء رأيين في نصف شعبان: حيث إن خالد بن
معدان، ومكحولاً، ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمون ليلة النصف من
شعبان، ويجهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد
قيل: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان
اختلف الناس في ذلك: فمنهم من قبله مئهم ووافقهم على تعظيمها، مئهم
طائفة من عباد أهل البصرة وغيرهم، وأنكر ذلك أكثر علماء الحجاز، منهم:
عطاء، وابن أبي ملائكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل
المدينة، وهو قول أصحاب مالك، وغيرهم وقالوا: ذلك كله بدعة^(١).

وكذلك أفعل في قراءة حزب معين من القرآن الكريم، أدل على التنويع في
العبادة، وتغيير في السور، وإضافة سور أخرى أحياناً، فإن كان لا يحسن
غيرها، تركته مواظباً عليها، فالله يقبل منه هذا.

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي ص: ١٣٧.

أَمَا يَجِدُ الْحَرَجَ الشَّدِيدَ مِنْ يَسْحَبِ الْبِسَاطَ مِنْ تَحْتِ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ وَيَتَرَكُ الْمَرءَ بِدُونَهَا؟ أَلَيْسَ الْمَوَاظِبَةُ طِيلَةُ الْعُمُرِ عَلَى قِرَاءَةِ سُورَةٍ مُعِينَةٍ بَيْنِ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ خَيْرًا مِنْ دُعَمِ الْقِرَاءَةِ؟ فَلَا يَجُوزُ سَحْبُ عِبَادَةٍ إِلَّا إِنْ اسْتُبْدِلَ بِهَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا.

مريض مسكون تحت يدي طبيب غٰرٰ

العجب: أن يرى المسلم الملزوم من يعترض عليه وينطئه في كل ما أتى، وينجو من هذا الاعتراض كل مُتَفَلِّت لا يلتفت إلى الدين، أيعقل أن يرى الشابُ في بعض دخوله إلى المسجد من يعترض على موضع اليدين على الصدر، أو قراءة الفاتحة، أو الجهر جماعة بالأذكار الواردة بعد الفرائض، أو التكبير الجماعي يوم العيد، أو غيرها، ولا يُحرِّقُ بنار الاعتراض مَنْ يحلف كاذبًا قرب باب المسجد، والغشاش، ومن ترك الصلاة أصلًا؟

عجبًا لأناس لا يعرفون إلا الاعتراض، وظنوا أنهم كلما زادوا من الاعتراض زادوا توقًداً وألمعيةً، ومن ولع بعض الناس في الاعتراض أنه لا يكاد يجد أمراً إلا نهى عنه:

- ١- يرى الذي يلعب بالكرة فيقول: ألا ترك هذا وتتوجه إلى القرآن.
- ٢- يأتي إلى من يحفظ القرآن فيقول: وهل كان من منهج النبي ﷺ أن يحفظ أصحابه القرآن؟ أو هل ورد حديث في الحفظ؟ المهم هو الاتصال بالقرآن - هكذا يقول -
- ٣- ويأتي إلى معهد يُنْهِجُ الحفاظ، فيقول: زادت نسخ المصاحف نسخة، وما فائدة الحفظ إن لم يكن القارئ على صفة كذا وكذا، ويأتي بأعلى صور

سمعها عن السلف!

- ٤- يرى القارئ للقرآن فيقول: ليتك تركت القراءة وتجهت إلى التدبر،
فما أنزل القرآن إلا للتدبر.
- ٥- يرى من يتدبر ويدرس القرآن فيقول: لقد ازدادت المكتبة كتاباً
متحركاً يمشي على الأرض، فما فائدة التدبر وأنت جالس، عليك أن تدرس
هذا الذي وعيته.
- ٦- يرى المدرس المفسر للقرآن فيقول: أكثرتم من الكلام ولَيَتَكُمْ رَبِّيْتُمْ،
فنحن مفتقرون إلى المرء المربى، لا العالم، ونحن اليوم في ظفرة علمية، وما كلُّ
أصحاب النبي ﷺ علماء، ولكن كلامهم مربيون، وقد فتحوا البلاد بأخلاقهم
وتربيتهم، سواء أكان البلد قد فتح بالدعوة أم بالسيف.
- ٧- ويرى الشيخ الذي يعني بالتربيه والوعظ فيقول: إلى متى سيبقى في
صف الكلام ورفض الحروف، ألا يدخل شيئاً من قراءة الكتب ليرق الطلبة
عنه.
- ٨- ويرى الطالب الذي التزم حلقات العلم فيقول: ليته التزم عند المربى
ليأخذ الأدب بدل قراءة الكتب، وإلا فلا فائدة من زيادة العلم من غير
تركيبة.
- ٩- ويرى الورعين فيقول: بئس الورع الذي يمارسه هؤلاء، وهم لا يبنون
دولة بهذه العقلية، ولا يرتقون بأمة.
- ١٠- ويرى المتوسعين في الدنيا، فيقول: كلاب الدنيا وطلاب ما هو رخيص
على الله.

ولن أسترسل أكثر، فالخلاصة: الكل - في نظره الكئيب - سيئٌ ومتقوّدٌ
وعملُهم غلط.

تفضّل أيها المنتقد وأعطيني نموذجاً صالحًا!

علمتني الحياة أن الناس قسمان: مجعّجٌ لا وقت لديه للعمل، وعامل لا
وقت للرجوعية عنه.

فلا التفات نحو المصابين بوسواس الاعتراض، فيعرض، ويتوهم أن
الصورة لم تصل، فـيُعِيدُ ويُصرُّ ويُكَرِّرُ.

عامي حاذق نجا من التضليل

بما أَنَّي تكلّمْتُ عن المريض المسكين تحت يدي طبِيبٍ غَرّ، فلا بدَّ أن
أتكلّم عن العامي الحاذق، المتفوّق على المزعجين.

وحديثي أحد الفضلاء، أن رجلاً اعتقاد أن السُّنَّة في صلاة التراويح ثمانى
ركعات، فكتب ورقةً وعلّقها على جدار مسجد في حي سيف الدولة بحلب،
وذلك في رمضان: «من صلَّى رمضان عشرين ركعة، فهو ضال مضل».«
فجاء ثانٍ وقلب الورقة نفسها، ثم كتب عليها: «من صلَّى التراويح ثمانى
ركعات فهو ضال مضل».

فمرّ رجل أُوتي الحكمَة، فكتب: أنا لن أصلِّيَها ولا ركعة، فلست بضال
ولا مضل.

ومعاذ الله أن يكون قصدُ الرجل تركَ هذه السنة عمداً وعناداً، ولكنه
أراد تنبيه الكاتبين إلى أن المصلي لم يخلُ من لسان أحد الكاتبين، أما غير
المصلي فقد نجا منهما، ما أصعبها!

كنت ولا زلت أرى بعض إخوتي وقد أقاموا بين ظهراني قوم لهم مشرب مغلق، فيصبحون جزءاً من هذا الانغلاق، ويقعون في المزايدة، وينسون الإنصاف، ولا يحسبون الحساب في حروفهم، ولا يزنون الكلام بميزان القرآن، ثم تغيرت حالهم، وتبدلت أوضاعهم، وتحولت أماكن إقامتهم، وأصبحوا في بيئه تعادي البيئة الأولى، فاضطروا لإعادة النظر في كل كلمة تقال، لأن الناقد بصير، وإلى الله المصير.

البيئة المُلَقَّحة بيئه صحية، تشبه الجسد الملَقَح بضيوف غريبه عنه، وإن كان كل الأطراف يشمئز منها، ويراهها عامل تضيق على حالة، ولو ثرَكت كُل مدرسة على حالها لبلغ الشطح والبالغة والمزايدة مبلغاً مخيفاً، لكن وجود الطرف الآخر يجعل الأول يحسب ألف حساب لحاله.

لأن الصوفي في بيئه سلفية، والسلفي في البيئة الصوفية يحسب الحساب الكبير قبل العمل، ولا يريد خسارة القوم الموجودين غالباً.

فمن سَمِّي مزايدات بعض المنحرفين لما اجتمعوا أن الأول منهم قال: الشيخ كاشفني، فزاد عليه الثاني بقوله: كأنه معي طول النهار، فقد حدثني الشيخ بكثير من أعمالي في النهار، أما الأخير فقال: الشيخ يعلم تحركي على فراشي، ولا تستغرب أن تسمع من عامي قوله: شيخي يعلم كثيراً من الغيب.

والأسماج منها: تصريح طلاب المدرسة الأخرى أنهم أهل السنة والجماعة، وكل منْ سواهم ليس منها.

ومثله جميع المدارس والطرق والمذاهب إذا لم تزن النطق بميزان الله. فتباً ثم تباً للمبالغة التي لم يأت بها شرع الرسول الكريم ﷺ، وسُحْقاً لمن جعل أقواله وأعماله عكس كلام و فعل مَنْ عاداه.

وما أجمل قول ذاك المري الصالح الذي رَبَّ طلابه بالَّظَرِ والكلمة الصالحة، عندما قال: أي ولدي: إياك أن تختلف بميلاد رسول الله ﷺ وذرةً من قلبك تميل إلى غيظ من أمسك عن الاحتفال، لأنها بئست النية، وساعت الطَّوِيَّة، ول يكن احتفالك حبًّا للحبيب، وطلبًا لمحَّ لك في قلبه ﷺ، عسى أن تنال منه شفاعة، وقرب منزل، والله ينظر إلى القلوب، فلئن نظر إلى قلب الحبيب ﷺ ورأك فيه فقد فُرِّثَ في الدارين.

العداء المدرسي

إحياء الصَّعَائِن المدرسية دالٌّ على صِغر العقل إن لم يكن دالًا على انحرافِ قلبٍ، وسُوءِ نية، والعاقل من كان منهجه: **﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلَاخْوَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا إِلَيْأِمَنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غَلَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحشر: ١٠].

أضرب على ذلك مثالًا: أنا في علم الحديث الشريف من مدرسة سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله، وأعرف من ردَّ على سيدي الشيخ قبل أن أُخلقَ، أو مَنْ كانت منه جَفْوةٌ نحوه، أو أساء إلى الشيخ، فالمفروض أن أبقى في مدرسة سيدي، وألا ألتفت إلى الاختلافات، وما أشدَّ خطأً الذي يجددُ هذا الاختلاف مع طلاب ذاك الشيخ، فالموضوع كله كان

بين الشيختين، وقد وَفَدَ كُلُّ منها على ربِّهِ، فما بالنا نَحْنُ نَخْفِلُ في عرسِ لم نَحْضُرْهُ، بل غاب فيه العروسان! وترى بعضَهم ينتقد المدرسة الأخرى وكأن شعاره: عدوُّ شيخي هو شيخ عَدُوّي.

الولاء المدرسي

ظهرَ قِبَلَنَا في سوريا رجل شديد العصبية، يعارض من أجل المعارضة، ويغلب عليه ضيق الفكر، ويتبني أشدَّ الآراء، ولم يؤتَ الحكمة في الطرح، ويظنَّ فَجَّ الكلام صراحةً بالحقِّ، ويكسر قلوب الناس بِصَحْرٍ كلامه، حتى بلغ به الحال أن قال لأحد معارضيه - في شريط مسجل لدى - : إذا لم تقرأ كتب ابن تيمية (ت: ٧٦٨ هـ) وتلميذه ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) فأنت على ضلال، وكل من لم يقرأها فهو على ضلال! وهو صاحب السؤال الذي يُكثِّر من طرحة كثيراً: كيف تقولون بوجوب اتباع أحد المذاهب الأربع، وتحكمون بالضلال على المتعلّل منها جمِيعاً، والقرون المشهود لها بالخيرية جُلُّ عوامها لم يكونوا على أحد هذه المذاهب؟

قلت: وما حال القرون العظمى قبل الشيختين الجليلين: ابن تيمية وابن قيم الجوزية؟ أكلهم على ضلال؟ بل ما حال عوام المسلمين اليوم - من عرب وعجم - ولم يسمع جُلُّهم باسم هذين الإمامين؟ وما حال دين سيدنا محمد ﷺ لولم يطلب العلم هذان العالمان بتاتاً؟ أو لم يُخلقا أصلًا.

إنه التعصب المدرسي، وما أكثر صوره! وما أكبر أنواعه!

ومن لطيف ما يُتَنَّدِّرُ به عن التعصب المدرسي أن رجلاً قال لخالفه:

«عَضْ هَنَا أَيْكَ»^(١)، فأخذها هذا الذي قيلت له وطرحها على تلميذ القائل، لكنه لم يبين قائلها، بل أوهمه أن الكلمة قد قيلت من قبل شيخه هو، فلما أنكرها وبالغ برميه بقلة الأدب، اعتذر إليه وقال له: ما رأيك لو خبرتك أن شيخك هو من قالها، وليس شيخي؟

موقف لا يحسد عليه من الخجلة، وصار لون وجهه من الوجل بين الأحمر القاني والأزرق الشديد، لو قربت عود الثقب من وجهه لاشتعل، وهذه من ضرائب قوقة العقل، وعدم تحريك الذهن، وعدم الخروج عن رأي المدرسة بتجرد وحب للمعالي.

ذم المدارس الدعوية من الكبير

سمعت بشاب ارتد عن الإسلام، فلما أوغلت في السؤال عن السبب عرفت أنه قد تربى في عائلة كثيرة النقد جدًا.

فالآم تنقد كلَّ مَنْ حولَها، ولها ملاحظات على جوانب من الدين، قد لا تكون تلك الملاحظات من الدين نفسه، وإنما تصب جام غضبها على العلماء الذين فسروا الدين، والأب نقاد لكل ما حوله، والإخوة من أصحاب السخرية السياسية، والجد لا يرضيه شيء في الكون، وهكذا دواليك.

(١) إشارة إلى حديث عَيْ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ أَيْيَا رَجُلَ تَعَزِّي بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْصَهُ وَلَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَرَى فِي أَنفُسِكُمْ، إِلَيْ لَمْ أَسْتَطِعْ إِذَا سَمِعْتُهَا أَنْ لَا أَفُولُهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْصَهُ لَا تَكُونُوا». أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم: ٣١٤٣، وقال محقق الكتاب: «إسناده صحيح».

لا أنكر أبداً أن في المدارس الدعوية أخطاء، ولكن جمع أخطائهم في صحن واحد، وعدم سماع الابن من أبيه، والتلميذ من شيخه، والطالب من معلمه غير أخطاء المدارس الأخرى، سيسبب له التفرقة منهم جميعاً، والأشmezاز دون تفرقة، مع أن المدارس تلك تحتوي على خيرات حسانٍ، ولا أقول إن خيرها لم يحمل الحبَّ لأنَّه قد بلغ القُلُّتين، إنما أصبح مجتمع البحرين.

ولكن البشارة أَرْفَهَا لهذا المُلَقِّنِ الْمُحْفِقِ: بأنه غالباً ما يكون هو نفسه أحد الساقطين من عين ابنه وتلميذه.

أيُّ تربية سَوَّيَّة ترجوها لولدك وتلميذك، وأيُّ تَقْبِيلٌ للمخالف تَخْطُبُه ما دمت تغذيه بتجسيم زَلَاتِ غيرك، وغضِّ الطرف عن بلياك.

التربية السَّوَّيَّة تكون: في تقويم النفس البشرية، وإحكام الميزان العقلي، وضبط المعايير القولية، وتعلم طرق التفكير الصحيحة، مع التوازن المنضبط، بحيث يحاكم كل مسألة تُعرَض عليه بميزان صحيح واحد، يَرِنُّ به للعدو والصديق، مع ملاحظة الملابسات، واستحضار التاريخ والمبررات والتهَمِّ، ثم الخروج بنتيجة للحكم على الجزئية، ثم جمع الجزئيات والكليات في ثوب واحد، وبعدها يصل للحكم على الشخص بكامله.

التوازن الخطابي

التوازن قُرْبُ لسان الميزان في منطقة الوسط: وتعديل الجنوح منهُج نبوى بحيث يُحْمَل من الكِفَّةِ الرَّاجِحةِ نحو الكِفَّةِ الطَّائشةِ، فالنبي ﷺ أمر الناس جميعاً بالصيام، لكنه رأى المبالغة من عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنهاه عن

كثرة الصيام^(١)، ورأى معاذًا يطيل بالناس الصلاة فأمره بالتحفيف^(٢)، ولكنه قال للذي خف في صلاته كثيراً: «إِرْجِعْ فَصَلٌّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلٌّ»^(٣).

إن أحببتم الحديث عن التوازن الخطابي فإنه عرض جوانب المسألة بما يوصل الصورة صحيحة كما يريدها صاحبها، من غير زيادة ولا نقص يشوهها.

ومن التوازن الخطابي: عرض أحاديث الرحمة بتوزن يطمع العاصي برضوان الله، ولا يؤمنه من مكر الله، كما أن عرض أحاديث العذاب يحوقه من بطش الله، ولا يقتنطه من رحمة الغفار.

لكن من التشوه الخطابي: جمع آيات الرحمة كلها، وإلقاءها على الناس من غير اتزان، وفي الحضور أخلاط من السوق: الأتقياء والصلحاء ومن ليس منهم، وقد يكون أفجر الفجّار حاضراً، وتكون أحاديث الرحمة حاجباً بينه وبين المبادرة إلى الإنابة، ومثلها جمع أحاديث الصفات كلها، أو جمع أحاديث

(١) الحديث بتمامه ص .٧١

(٢) الحديث بتمامه ص .٨٩

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّلَامَ قَالَ: «إِرْجِعْ فَصَلٌّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلٌّ» فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الشَّيْءِ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَنِيكَ السَّلَامُ» ثُمَّ قَالَ: «إِرْجِعْ فَصَلٌّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلٌّ» حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ تَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسِنُ عَيْرَهُدًا عَلِمْنِي، قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِرْ، ثُمَّ افْرُأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكِعْ حَتَّى تَظْمَئِنَ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْقِعْ حَتَّى تَعْدِلْ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَظْمَئِنَ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْقِعْ حَتَّى تَظْمَئِنَ جَالِسًا، ثُمَّ افْعُلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلُّهَا». رواه البخاري برقم: ٧٥٧، ومسلم برقم: ٣٩٧

أخطاء الصحابة رضي الله عنهم وسردها بين يدي العوام.

فبالله ما نظرة الشاب الذي شحن بحب الصحابة رضي الله عنهم بكل حنایاه، ثم حضر حديثاً لمريض ديدنه قذف الخطاب الأشل، وأسمعه الأحاديث الكثيرة وكان منها: صاحبي زني، وصحابية زنت، وصاحب لاعنة امرأته، وصاحب غل شملة، وآخرون نادوا رسولهم ﷺ من وراء الحجرات، وأبو بكر وعمراً ارتفعت أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ، وخالد قتل قوماً تبرأ النبي ﷺ من فعله، وبعض رجال كانوا يخرجون مع النبي ﷺ في غزواته وهم يريدون الدنيا، وآخرون يريدون الآخرة، وحاطب أفشى سراً مهماً، إلخ.

ما نظرة ذاك الشاب من هذا الخطاب المشلول المعتوه والذي شوء سمعة الصحابة بين عينيه؟

هذا وإن الذي ذكر كل حادثة من هذه الحوادث ولم يذكر ملابسات القصة التي تزيح طرفاً كبيراً من غشاوتها إنه لمتعد على مقام الصحابة رضي الله عنهم؟ فعلى سبيل المثال: يجب البيان بأن الصاحبي الذي زنا مدحه النبي ﷺ وقال عنه: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوْسَعْتُهُمْ»^(١).

ويجب أن يذكر أن النبي ﷺ أراد الستر عليه، وهو الذي أصر على تطهير النبي ﷺ له من الزنا.

ومثلها عندما ينقل أن عبد الله الحمار رضي الله عنه أتي به وجده النبي ﷺ في الشراب مررت، وكانت من نبي الرحمة ﷺ موافق مع هذا الصاحبي، ففي

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٩٨

لفظ في الصحيح لما نهى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن سَبِّهِ أو لَعْنِهِ قال: «لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١)، وفي لفظ آخر قال: «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(٢).

وما أبعد مدلول كلمة: «أَخِيكُمْ»!، وما أبعد مدلول القسم في اللفظ الأول! وما الذي اضطر الحبيب ﷺ ليقسم بالله تعالى على هذه الشهادة!

وحاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَرَّاهِ رسُولَ اللَّهِ ﷺ، بقوله: «لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»^(٣).

التوازن السلوكي – أخو التوازن الخطابي –

النفس تميل إلى الطَّفَرات العالية جداً، ثم الهاقبة بِحِدَّة، أشَبَّهُها بمرض السُّكَّري، الذي يرتفع إلى ٥٠٠، وربما هبط إلى ١٠٠، ولا تميل إلى التَّدَرُّج والاعتدال، وما حال بعض الطلاب عنك ببعيد، يَسْهُرُ أحدهم الليلي ذوات العدد أيام الامتحان ولا ينام، ويقللُ الطعام، ويعتنُّ الأنام، ويُدْمِنُ القهوة، ويحاسب نفسه على الظَّرْفَةِ والسَّهْوَةِ، ثم يَهِيجُ عقيب الامتحان، فتراه مِضْيَاً للفرص، قَتَّالاً للوقت، هَدَاراً للعُمرِ، يقلب للكتاب ظهر المِجَنِّ، بعد أن كان يَلْفُهُ وهو نائم، ويعانقه إذا هو قائم، وهذا هو السَّهْلُ، ولكن الصعوبة تَكُونُ فيمن يدرس أيام حياته كَلَّها، ويدمنُ النظر في الكتاب حتى كأنَّ بينهما قصةً عشق لا تنتهي.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨١.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٨٣.

طَرْحُ الشَّبَهَةِ عَلَى الْمَعَافِي مِنْهَا

إن إدخال الشبهة إلى من ليس بعالم بها، وليس قادرًا على تجاوزها لسقطة، أما قطْرَةُ الشُّبَهَةِ في الأذْنِ لمن يستطيع تجاوزها على سبيل التحذير والحسانة فهي حالة سوية، وبهذه الطريقة تكون كاللَّقَاح، والفيروس المدروس ليُعطَى للجَسَدِ مَنَاعَةً، وليس وراء ذلك حَبَّةُ خَرْدَلٍ من صواب.

دُعِيَ أحد الشيوخ من بلده البعيد إلى أمريكا ليفيد منه أهل البلد، وصل هذا الداعي أمريكا - وليته لم يصل -، وجمِيع الناس له في محاضرة غناء، حُشِدَ الناس من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، واكتَظَ المجلس بِرُوَادِهِ، وشرع الشيخ بمحاضرته، وصدق فيه قول الشاعر:

خَطَبْتَ فَكُنْتَ خَطِيبًا لَا خَطِيبًا أَضَيْفَ إِلَى مَآسِينَا الْعِظَامِ

أخذ الرجل بالكلام عن خطورة الطواف حول قبور الأنبياء والأولياء، أُسْقِطَ في يد إمام المركز الإسلامي الذي دعا وخطاب ظُنْهُ، وكان يدور في حَلَّيَهُ أن المحاضر سيحكى عن أخطر الموضوعات مَسَاسًا بالواقع، لأن واقع أمريكا فيها فُسِيْفُسَاءٌ من الناس، ومتلِفُو الجنسيات والأعراق والأفهams والمذاهب الإسلامية، وهذا ما يفرض على العاقل أن يتكلم عن احترام المذاهب، وأدب الاختلاف، وضرورة الاجتماع، والتفريق بين الاختلاف المحمود والخلاف المذموم، وسوء التشرذم، وعاقبة الطعن للأخ في الظهر، وقوة كلمة المسلمين أمام دولة مخالفة في الدين، ومعايير القوة، وما يجب تجاوزه في الاختلاف، وما لا يجوز التغاضي عنه، وأمثاله.

لَكُنَ الْمُسْكِنَ فَقِيرَ الْحُكْمَةِ الدُّعَوِيَّةِ، وَبُعْدُ النَّظَرِ، وَمَرْوَنَةُ الْفِكْرِ وَصَلَالَةُ الْحَالِ بِهِ أَنْ يَحْكِيَ عَنْ خَطْرَةِ الطَّوَافِ حَولَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُولَيَاءِ، وَعِنْدَمَا رَاجَعَهُ ذُووُ الْحُكْمَةِ، وَأَبَدُوا لَهُ امْتِعَاظَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعَ، وَمَهَدُوا لَهُ بِسُؤَالٍ اسْتَنْكَارِيٍّ: كَمْ عَدَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُولَيَاءِ عِنْدَنَا فِي أَمْرِيْكَا؟ أَيْسُوغُ الْكَلَامَ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ فِي وَقْتٍ نَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ لِلْكَلَامِ عَنْ جَمِيعِ الْكَلْمَةِ وَرَضِّ الصَّفِ؟ صَفَعَهُمْ بِالْجَوَابِ الْبَارِدِ الْمَمْجُوحِ قَائِلًا: هَذَا لِتَحْصِينِ عِقِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا مَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فِي بَلَدِهِمُ الْأَصْلِ، فَإِنْ فِيهِمْ مَصْرِيُّ وَالْيَمَانِيُّ وَالشَّامِيُّ وَالْحَجَازِيُّ، وَكُلُّ هَذِهِ الْبَلَادِ مَا ابْتَلَيْتُ بِوُجُودِ قُبُورٍ تُعْبُدُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

إنه داء التدين الكركتيري^(١) أعلمتم منظر الرسوم الكركتيرية؟ هي تريد أن ترسل رسالة إلى الناظر، فيكون منظر الرجل المرسوم مثلاً: برأس حجمه ضعفاً حجم باقي الجسد، أو يزيد، وحجم الجسد من الرقبة إلى الأخمص كنقطة صغيرة، وهكذا التضخم السرطاني الذي يعتري من لا يحسن تقدير حجم الخطر، فيخَيِّلُ إليه أن ما يراه خطراً هو بحجم كبير، بل أكبر من واقعه الحقيقي بكثير.

(١) أفت هذا التشبيه من خالي الدكتور محمد عادل بيانوني حفظه الله، وهو سمعه من الأستاذ الداعية الجليل الشيخ محمد المبارك (ت: ١٤٠٩ هـ) رحمه الله.

المقلل من خطورته، وهذا اللقاح كي لا يتأثر الحلي من جرائم المصابين، وهذا بشرط:

- ١- لا يجوز إثقال الجرعة وتركيزها، بل تطرح بشكل خفيف، ويكتفى بالتعريف والإتيان بالجزء المعبر عن الكل.
- ٢- لا يجوز التقليل والاستهزاء من الشبهة وطرحها على أنها هزلية أيضاً^(١).
- ٣- لا يجوز طرح الشبهة طرحاً قوياً، لأنها قد تدخل رئيس السام، وتتركز فيه، ولا تخرج منه، ولا سيما إذا جاء اللقاح خفيفاً، كما اتهم بهذا بعض المصنفين، فقيل عنه: إنه إذا حكى الشبهة قالها بقوة لا يستطيع أن يعبر عنها صاحبها بذلك البيان، فإذا وصل إلى ردتها فترت همتُه، وأصبح الرد ضعيفاً.



(١) كما سيبقى في القاعدة: «تقدير المخالف» ص: ٦٠١.



ضلال الدعوة





صيادلة الفقيه

حمل الأمة على رأي واحد في المسألة المتعددة الآراء ضيق في التفكير الفقيهي، وصغير في عقلية المفتي.

وأثْعَسَ الناس دعوةً مَنْ يحمل فكرة، ويُجْبر الناس عليها، دون تقدير للفرق: بين الصغير والكبير، والتائب والعادب، والصَّديقِي والماهِل أو الفاجر، والقريب والبعيد، والمُضطهد والأمن، والغنى والفقير، والمسلط والمظلوم، والذكر والأنثى، والمراهق والمعمر، لكن الفطن لا يفرق بين هذه الأحوال فحسب، بل يغيّر في دعوته ويصنع لكل حالة قالبًا يناسبها، مع الصياغ والإثناء المواكب.

الطفل والكبير: طفل يتعثر في ثوبه في مسجد النبي ﷺ، فينزل الحبيب من المنبر ليأخذه^(١)، ولكنه لم يفعلها لدخول أي صحابي عظيم.

طفل بال في حجر النبي ﷺ فلم يغضب ولم يعنقه^(٢)، ولكنه تَعَيَّطَ لما

(١) عَنْ بُرِيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ الْحَسْنُ، وَالْحَسِينُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَمِيَصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْتَرُانِ وَيَقُومَانِ، فَتَرَأَلَ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعَدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» [التغابن: ١٥]، رأيُتُ هَذِينِ فَأَمْ أَصِيرُ»، ثُمَّ أَخَذَ فِي الْحُظْبَةِ. أخرجه أبو داود برقم: ١١٠٩، والترمذى برقم: ٣٧٧٤، وقال الترمذى: «هَذَا حَدِيثُ حَسَنٍ عَرِيبٌ».

(٢) عَنْ أُمَّ قَيْسٍ بِنْتِ مُحْسِنٍ، أَنَّهَا أَتَتْ بَنِيهِ لَهَا صَغِيرٍ لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى تَوْبَةِهِ، فَدَعَاهُ مَاءُ فَنَصَحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ. أخرجه البخارى برقم: ٤٢٣، ومسلم برقم: ٤٨٩.

رأى التخامة - وهي ظاهرة - في قِبْلَة المسجد^(١)، إذن: فَرْقٌ بين الصغير والكبير.

طفل عَبَث في مُكَبِّر الصوت في المسجد فلا تعاتبه، ولكن عَبَثَ الكبير بِمُكَيْقَات المسجد ومدافعته غير مقبول، ويعاتب صاحبه، ولو فُتح هذا الباب كل مصلٍّ لما بقي للعبث حَدًّا.

يخرج النبي ﷺ من مجلس لأن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رد على خصمه، فخرجت الملائكة^(٢)، ولكنه لم يخرج حين كَلَمَهُ الجاهل وقال له: أعطني من مال الله^(٣)، والمفارقة العجيبة أن الأولى كانت ردًا من أبي بكر على جاهل،

(١) عن أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى تَخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَكُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاةِ فِيَّا نَاجَيَ رَبَّهُ أَوْ إِنَّ رَبَّهُ يَنْهَى وَيَنْهَى فِيَّا الْقِبْلَةِ، فَلَا يَبْرُقَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْلَ قِنْتِيَّهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا». أخرجه البخاري برقم: ٤١٧، ومسلم برقم: ٥٥٣.

(٢) جاء في سنن أبي داود، برقم: ٤٨٩٦؛ يَبْنَيَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَمَعْهُ أَصْحَابُهُ، وَقَعَ رَجُلٌ بِأَيِّ بَكْرٍ فَآذَاهُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَّةَ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَّةَ، فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَرَأَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ يَمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذَا وَقَعَ الشَّيْطَانُ». وقد أورد الإمام البخاري قال في تاريخه ٢:١٠٦ في ترجمة: «بشير بن حررا» هذا الحديث بروايتين: الأولى: مرسلة، والثانية: مسندة، ثم قال: «والأول أصح».

(٣) عن أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ تَجْرِيَ عَلَيْهِ الْحَاشِيَّةَ، فَأَدْرَكَهُ أَغْرَابِيُّ فَجَدَبَهُ جَدْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفَحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ =

والأخيرة رد من جاهل على النبي ﷺ، ومع ذلك خرج في الأولى ولم يخرج في الآخرة، لأن أبا بكر رضي الله عنه عالم كبير، أما الآخر فجاهل بامتياز، فاستوعبه الحبيب ﷺ لأنه الأكبر والأعظم.

المؤمن والمتألف قلبه: سأله فاطمة وعلي رضي الله عنها أن يعطيهما خادماً فدللها على التسبيح، مع أنه ما سُئل النبي ﷺ شيئاً من سائل غريب إلا أعطى، حتى إنه أعطى غنيماً بين جبلين يتالف به قلب مسلم جديد^(١).

المضطهد والأمن: أفتى النبي ﷺ عماراً أن ينال منه عند الاضطرار، لأنه مضطهد^(٢)، ولكنه تمعر وجهه لما نالت إحدى أمهات المؤمنين من ضررتها بإشارة وقالت: حسبك من صفية كذا وكذا^(٣)، لأنها من مؤمنة تقية، وما

= قد أثركت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرلي من مال الله الذي عندك، فالتفت إلينه فصاح، ثم أمر له بعطاها. أخرجه البخاري برقم: ٣١٤٩، ومسلم برقم: ١٠٥٧.

(١) عن أبي رضي الله عنه، أنه قال: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً، إلا أعطاه، فجاءه رجل، فأعطاه عماماً بين جبلين، فرَجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة. أخرجه مسلم برقم: ٤٣١٤.

(٢) عن أبي عبد الله بن عمار بن ياسير، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسير رضي الله عنه، فعدبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبيك؟» قال: مظئنا بالإيمان، قال النبي ﷺ: «فإن عادوا فعذ». أخرجه ابن جرير الطبراني في تفسيره، عند تفسير الآية المذكورة، ١٤: ٣٧٤.

(٣) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبي من صفيه كذا وكذا، - تعني قصيرة -، فقال: «لقد قلت كلمة لو مرت بماء البحر لمزجتها». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال: «ما أحث أني حكىت إنساناً وإن لي كذا وكذا». أخرجه أبو داود برقم: ٤٨٧٥.

أكبر الأولى ومع ذلك أباحت لمضطهد، وما أصغر الأخرى إذا ما قورنت بأختها ولكنها حرّمت لغير حاجة، فلما دعت الحاجة إليها، بادر المصطفى ﷺ بقوله: «يُبَشِّرُ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَيُبَشِّرُ ابْنَ الْعَشِيرَةِ»^(١)! وقال في الآخر: «أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أُمًّا بَعِيرَةً أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ». وبوب هذه الإمام أبو داود فقال: باب من ليست له غيبة^(٢).

الغافى والفقير: أما النساء الغنّيات فقد وصلهن خطاب النبي ﷺ: «تَصَدَّقُنَّ وَلَوْ مِنْ حُلِيلَكُنَّ»^(٣)، وأما الفقراء فقال لهم: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ

(١) عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: «يُبَشِّرُ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَيُبَشِّرُ ابْنَ الْعَشِيرَةِ»، فلما جلس نطلق الشيء في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل، قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم انطلق في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ يا عائشة: «مَنْ عَهِدْتِنِي فَحَاشَ، إِنَّ شَرَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ تَرَكَةِ النَّاسِ اتَّقَاءَ شَرَّهُ». أخرجه البخاري برقم: ٦٠٣٦، ومسلم برقم: ٤٥٩٦.

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: جاءَ أَعْرَابِيًّا فَأَتَاهُ رَاحِلَتُهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَظْلَقَهَا ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تُشْرِكُ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أُمًّا بَعِيرَةً أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ»، قالوا: بلى؟ أخرجه أبو داود برقم: ٤٨٨٥، وقد ضعف إسناده محققو المسند برقم: ١٨٧٩٩.

(٣) عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنها، أنها قالت: كُنْتُ في المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال: «تَصَدَّقُنَّ وَلَوْ مِنْ حُلِيلَكُنَّ»، وكانت زينب تُتفقُّدُ على عبد الله وأيتام في حجرها، قال: فقلت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ أيجري عني أن أتفق علىك وعل على أيتام في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ فأنظرت إلى النبي ﷺ فوجدت امرأة من

لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ^(١).

المسلط والمظلوم: لما مرَّ الحبيب ﷺ بأبي مسعود البدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب خادمه: ناداه من خلفه: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلَام»^(٢)، وقال لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سألهُ الخادم: «إِخْوَانُكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ»^(٣). لكنه خاطب الذي تحت وطأة

= الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتي، فمرَّ علينا بلال فقلنا: سل النبي ﷺ أيجري عني أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَبْنَائِمِي فِي حَجْرِي؟ وَقُلْنَا لَا تُخِيرْنَا، فَدَخَلَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: رَبِّنَا، قَالَ: «أَئِي الرَّبَّاَبِ»، قَالَ: امْرَأٌ عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «نَعَمْ، لَهَا أَجْرٌ الْقَرَابَةُ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ». أخرجه البخاري برقم: ١٤٦٦، ومسلم برقم: ١٠٣.

(١) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْوِرِ بِالْأُجُورِ، يُصْلُونَ كَمَا نُصْلِي، وَبَصُومُونَ كَمَا نُصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيلَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَعْرُوفٍ صَدَقَةً، وَنَهِيٌّ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةً، وَفِي بُضُعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَّتَيْتَ أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعْنَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذِّلَكَ إِذَا وَضَعْنَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». أخرجه مسلم برقم: ١٠٩.

(٢) عن أبي مسعود البدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسُّوْطِ، فَسِيمَتْ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَصَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السُّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلَام»، فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا. أخرجه مسلم برقم: ١٦٠.

(٣) عن المَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيَتُ أَبَا ذَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالرَّبَّذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيْرَتُهُ يَمْهُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍ، أَعَيْرَتَهُ يَمْهُ؟ -

الحديد بقوله: «صَبِرًا يَا آلَ يَاسِيرٍ...»^(١).

الذكر والأنثى: جعل النبي ﷺ ذرْوَةَ سَنَامَ الإِسْلَامِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وهذا في حق الرجال، فقال: «وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^(٢)، لكنه جعل الذي يعدل هذا العمل في حق النساء الحجَّ^(٣).

= إِنَّكَ أَمْرُوا فِيهِنَّ جَاهِلِيَّةً إِخْوَانَكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ تَحْتَ أَيْدِيهِنَّ، فَمَنْ كَانَ أَخْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ فَأَلْيَطْعَنُهُ مِمَّا يُكْلُ وَلَيُلْسِنُهُ مِمَّا يُلْبِسُ، وَلَا تُكَلْفُوهُمْ مَا يَعْلَمُونَ، فَإِنَّ لَكُفْتُمُوهُمْ فَأَعْيَنُوهُمْ». أخرجه البخاري برقم: ٣٠، ومسلم برقم: ١٦٦٣.

(١) عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: كَانَ عَمَّارٌ بْنُ يَاسِيرٍ وَأَبُوهُ وَأَمَّهُ أَهْلَ بَيْتِ إِسْلَامٍ، وَكَانَ بَنُو مُحَزْرُومَ يُعَذَّبُونَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَبِرًا يَا آلَ يَاسِيرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةَ». أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ٣٨٣، وهذه الرواية في السيرة، من مراضيل ابن إِسْحَاقَ.

(٢) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَتَخَنُّنُ نَسِيرًا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ التَّارِ، قَالَ: الْأَقْدَمُ سَأَتَّنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الرِّزْكَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحْجُجُ الْبَيْتَ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدْلُكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَاحٌ، وَالصَّدَقَةُ ثُلْفُ الْخُطْبَيَّةِ كَمَا يُظْفِيُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ الْلَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلَّا: «تَجَافِ جُنُونُهُمْ عَنِ الْمَسَاجِعِ» حَتَّى يَلْغَى: «يَعْتَدُونَ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأُمْرِ كُلِّهِ وَعُمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأُمْرِ إِلَّا إِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلِّي يَا نَبِيِّ اللَّهِ، فَأَخْدَدَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قُلْتُ: يَا نَبِيِّ اللَّهِ وَإِنَا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ أَمْكُنُ يَا مَعَادُ، وَهُلْ يَكُبُّ الْئَاسُ فِي التَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَسْتَنِتُهُمْ». أخرجه الترمذى برقم: ٢٦٦ ثم قال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَعْزُزُ وَنُخَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: «لَكُنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَنْجَلَهُ الْحَجَّ، حَجُّ مَبْرُورٍ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَا أَدْعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. أخرجه البخاري برقم: ١٨٦١.

علم الرجل أن خير الفقة ما أنفقه على أهله، فقال: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقْ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجِرْتَ بِهَا حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي امْرَأَتِكَ»^(١)، أما في حالة غنى المرأة وفقر الرجل فقد أرشد المرأة لتصدق على زوجها، فقال: «لَهَا أَجْرَانَ أَجْرُ الْقِرَاءَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»^(٢).

الراهن والمعلم: لقد حكم النبي ﷺ في الشاب الزاني: مئة جلد، وتغريب عام^(٣)، في حين أمر بضرب الرجل الفاني الزاني بمائة من أغصان عِذْق النخل ضربة واحدة، ولم يزد على ذلك^(٤).

وانظر إلى تضييق بعض الدعاة:

عندما يشنّع من لا يحسن الدعوة على أربابها، ويتحجّر واسعًا بوجوب

(١) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجّة الوداع من واجع اشتئدي بي، فقلت: إني قد بلغت من الوجع وأنا ذو مال ولا برؤسي إلا ابنةً أفالتصدق بثليتي مالي، قال: «لا»، فقلت: بالشطرين، فقال: «لا»، ثم قال: «الثلث والثلث كثيرٌ أو كثيرٌ، إنك أن تذر ورثتك أعنياءَ خيراً من أن تذرُهم عالةً يتکفرون الناس، وإنك لَنْ تُنْفِقْ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجِرْتَ بِهَا حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي امْرَأَتِكَ». أخرجه البخاري برقم: ١٦٩٦، ومسلم برقم: ٣١٩٦.

(٢) الحديث بطوله تقدم ص: ٦٧، وقد أخرجه البخاري برقم: ١٤٦٦، ومسلم برقم: ١٠٠٣.

(٣) عن زيد بن خالد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أَنْهُ أَمْرٌ فِيمَنْ زَانَ وَلَمْ يَحْسِنْ بِجَلْدِ مَائَةٍ، وَتَغْرِيبِ عَامٍ». أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩.

(٤) عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن عبدة، قال: كان بين أئمتنا إنسانٌ مخدج ضعيف، لم يرُعِ أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبوط بها، وكان مسلماً، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ فقال: «اضربُوهُ حَدَّهُ». قالوا: يا رسول الله، إنه أضعف من ذلك، إن ضربناه مائة قتلة، قال: «فَخُلُوا لَهُ عِنْكَالاً فِيهِ مائةٌ شِمَراخ، قاضِرُوهُ بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَخَلُوا سَبِيلَهُ». أخرجه أبو داود برقم: ٤٤٧٦، وأحمد برقم: ٢١٩٣٥، وصححه محققون المسند.

غسل المذى، وهو لا يفرق بين شاب متزوج حديثاً، يشق عليه أن يغسل الثوب في كل يوم مرات، وبين شيخ لا يقطر مذيه في العام مرة، مع أن في مذهب الإمام أحمد (ت: ٢٤١ هـ) رحمة الله رخصة عظيمة لحديث الزواج، يُفْتَّن فيها بنَضْج الماء على المذى من غير غسيل، ولا سيما عند رقيق الالتزام، وحديث العهد بالتدین^(١).

وانظر حال مَنْ لا يفرّق بين نقاب المرأة في بلد إسلامي اعتاد أهله النقاب، وبين امرأة تُضطهد في بلد غربي، ولن تجد من ينظر إلى وجهها لكثره العُرِي في الطرق.

ولا يفرق في المسألة بين رجل جبار عُثُلٌ، ورجل مظلوم عند زوجة متسلطة، وهو يفتقي كليهما بفتوى واحدة.

ولا يفرق بين امرأة متسلطة تخلس مال زوجها وتضعه في أهلها أو حيث أرادت في تَرَف ملذاتها، وبين امرأة عند رجل شحيح لا ينفق على عياله، أيقال لكل منهما: خذى من ماله دون إذنه إن لم يتحقق؟

ويستفتيه الغيُّ البخيل ما أفضل الأعمال؟ فيفتقيه بالتسبيح والتهليل وحضور مجالس الذكر، أو سائله الفقير المعديم، فيحثه على إيثار الفقراء، مع أن فتوى رسول الله ﷺ لهم بالتسبيح والتهليل.

يا سادة: إن الذي ينظر إلى الفتاوى بين يديه على أنها صيدلية، يعطي

(١) للتوسيع انظر كتاب: «المغني» لابن قدامة المقدسي :٦٤، «مسألة ما خرج من الإنسان أو البهيمة التي لا يؤكل لحمها من بول أو غيره».

الأول دواء يخفي الحرارة، والآخر يعطيه الدواء العكس، كما فعل النبي ﷺ، حينما حبَّ الصيام إلى الأمة في أحاديث كثيرة، ولكنه نهى ابن عمرو رضي الله عنه عن كثرته، لأنَّه بالغ كثيراً^(١).

وَحَثَ عَلَى قِيَامِ اللَّيلِ ثُمَّ قَالَ قَوْلًا شَدِيدًا فِي الَّذِي قَالَ: سَأَقُومُ وَلَا أَرْقُدُ، لَقَدْ قَالَ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنْتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

ورفع من قيمة الصدقة كثيراً، ولكن لما قال له كعب بن مالك رضي الله عنه: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخْلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أجابه

(١) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخْبِرَ رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَقُولُ وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَاَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «أَئْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَاَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ؟»، قُلْتُ: قَدْ قُلْتُهُ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ تَلَاقَةً أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحُسْنَةَ بِعِشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صَيَامِ الدَّهْرِ»، فَقُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ»، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صَيَامٌ دَاوِدٌ وَهُوَ أَعْدَلُ الصَّيَامِ»، قُلْتُ: إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ». أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٣٤١٨، وَمُسْلِمُ بِرَقْمِ: ٣٤١٨.

(٢) عَنْ أَنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ إِلَيَّ رَهْمَطٌ إِلَيْيُّوْتُ أَرْوَاجُ التَّيِّيِّ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ التَّيِّيِّ فَلَمَّا أَخْبِرُوا كَانُوكُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ تَحْنُّ مِنَ التَّيِّيِّ قَدْ عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أَصْلِيَ اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَرْوَجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِلِي لَا خَشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتَمَاكُمْ لَهُ لَكُمْ أَصْمُمْ وَأَفْطِرُ، وَأَصْلِيْ وَأَرْقُدُ، وَأَتَرْوَجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنْتِي فَلَيْسَ مِنِّي». أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٥٠٦٣، وَمُسْلِمُ بِرَقْمِ: ١٤٠٦.

المصطفى ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَا لَكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»^(١).

ومثلها قال لسعد رضي الله عنه لما استشاره في الوصية بكل ماله: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»^(٢).

الجواب في كل هذا: لأن لدى الحبيب ﷺ صيدلية كبيرة، يعطي من الأدوية لكل فرد ما يحتاج، فما كل من آلتنه عينه أخذ الدواء نفسه، فهو ﷺ يبحث على الخير، ولكن الشخص إذا بالغ وقفه ونهاه.

ففرق في نصحك بين الماشي المبطئ عندما تطلب منه السرعة، وبين المثابر متھوراً في منحدر سحق، فكم رأيت مashiماً ببطء وحشته على السرعة! ولكنك تطلب من المسرع كثيراً أن يُبطئ؟ إنها الحكمة في الدعوة، والتفرق بين مستمع وآخر، وما كل من سأله عن حكم واحد أفتته بفتوى واحدة.

الأخذ بأضعف الأقوال خير من الخروج عن حكم الإسلام^(٣)

القول الضعيف يُعمل به لإنقاذ المرء من العصيان والمخالفة، وإنما يستخدم القول الضعيف للحالة الضعيفة.

خرجت في حافلة كبيرة تتسع لخمسين راكباً، وكان السفر طويلاً، والسير

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم: ٤٤١٨، ومسلم برقم: ٥٧٧٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٦، ومسلم برقم: ٣١٩٦.

(٣) أفادت زبدة هذه القاعدة من أستاذنا الداعي إلى الله، الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله تعالى، وذلك في إحدى الزيارات واللقاءات العامة بالفكر والعلم والمعرفة.

ليلاً، وما إن دنا وقت الفجر حتى هرّعْتُ إلى السائق أطلب منه التوقف لصلاة الفجر، ولم يعارض، أو يجادل، بل قال: إن أمامنا استراحة بعد نصف ساعة تتوقف عندها، وافقت وجلست مكاني أنتظر الوصول، وما كذب السائق الموعَد، بل توقّف في الوقت الموعود، أسرعت ونزلت إلى الصلاة، وما لبثت إلا قليلاً حتى رجعت، فرأيت شطر ركاب الحافلة - أو يزيدون - قد نزلوا، هذا في الاستراحة والشارع، وذاك يشرب الدخان، وآخر يتكلم، يا للهول! تمنيت لو أن أحداً منهم ذهب إلى الصلاة.

جلست مكاني ومشتُ الحافلة ولم ينتهِ عجي! أَكُلُّ هؤلاء لا يصلون؟
أَخْنَ بخير ومن الخسين صلى الفريضة المحتَمة واحد؟ أَنْصَرْ وَنُحْمِي
وَلَا نهْلِكْ وليس فينا المصلون؟

المفاجأة الجديدة أن بعض الركاب من المواظبين على الصلاة ولا يتذكرونها، ولكنهم يرون أن الصلاة عبء في السفر، فيقولون: إذا وصلنا إلى بلد المُقام صلينا الصلوات الفائتة جميعاً!

مه يا عزيزي: لم التماطل في الصلاة؟

صديقي: لأن جمِيع الوضوء في كِفَة، إلا غسل الرجلين منه ففي كِفَة أخرى، كم الوقت المستهلك في خلع الجوربَين، وغسل الرجلين، ثم ليس معِي نعل مخصوص للوضوء، وكيف أغسل الرجلين وأنا ألبس الحذاء، وكيف أجفف رجلي، أم كيف أقف على الأرض أم ألبس الحذاء ثانية؟ كم استغرق وضوئي بتمامه وكم استغرق غسل الرجلين!

أنا: فما الحل برأيك؟

صديقي: أؤخر الصلاة حتى أصل وجهتي.

أنا: أترك الصلاة.

صديقي: معاذ الله أن أتركها، فقط أؤخرها عن وقتها.

ذهبْتُ وأنا أرى شاباً حريصاً على الصلاة، لا يرى تركها بحال من الأحوال، بل الأعجب أنه صُعقَ بتيار كهربائي لما اتَّهَمْتُه بترك الصلاة، لكنه لا يرى نفسه أساء بشيء إذا ما أخرج الصلاة عن وقتها، وصلاحتها بعد فوات الأوان المحدد لها.

مسح على الجوربين خيرٌ من ترك الصلاة!

جرى نقاش طويل عريض في مسألة المسح على الجوربين، وقلتُ في مجالس كثيرة: لن أفتني من يمسح على الخفين من الجلد أن يغيّر ويلبس الجوربين الرقيقين ويمسح عليهما، ولكنني سأفتني بهذا القول لكل تارك للصلاة تكاسلاً من خلع الجوربين وغسل القدمين، لأنني على قاعدة وضعتها إماماً لنفسي: «الأخذ بأضعف الأقوال، خير من الخروج عن حكم الإسلام». ومهما كان القول ضعيفاً، وقد صدر من عالم تقى، يؤخذ كلامه في الفتوى، وكلامه خير من الخروج عن حكم الإسلام.

أيشك أحداً بأن المسح على الجوربين خير من ترك الصلاة حتى تصلي قضاء بعد فوات وقتها؟

من سَمِّيَ الأَجْوَبَةُ أَنْ يَقَالَ لِي: لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، إِنَّمَا يَخْلُعُ الْجُورَبَيْنَ وَيَغْسِلُ الْقَدْمَيْنَ! سَبَحَانَكَ رَبِّي! وَهَلْ أَنَا أَمَّاً مَتَّرْجِيْحَ بَيْنَ حَسْنٍ وَقَبْحٍ لِتَقْوِيلِ

هذا الكلام! أم إنني أوازن بين قولٍ ضعيفٍ وتركٍ فريضة؟ أليس بينهما فرق واضح؟

ألا يعلم الجميع أن الصلاة خير من النوم! وأيُّ طفل يقبل منك أن تستشيره: هل تحب أن ألطفك على خدك أو أهديك حلوى! الموازنة إنما تكون بين لطمة وطعنة! فما اخترت القول الضعيف إلَّا للحالة الضعيفة، ولا أفقني بقول ضعيف إلَّا عند رجحانه على الباطل.

عودًا إلى صيدلية تعطي أنجع الأدوية

سألني ثلاثة عن حكم المسح على الجوربين، فأجبتهم بإجابات مختلفة:
الأول: أفتته لا تفعل.

والثاني: خَيَّرته: إن شئت فافعل ولكن الأفضل أن تغسل الرجلين.

والآخر: أمرته أمرًا أن يفعل هذا.

يا سادة! الأول طالب علم قد تمسَّك بالأعلى، والأتقى، والأحوط، ويريد أن يهبط إلى الترُّخيص، وهو موضع قدوة.

والثاني: يحب الله ورسوله، وتغلبه شهوته أحياناً، فربما ترك الصلاة وأخرجها عن وقتها من حرجه في خلع الحذاء والجوربين.

والأخير: قد ترك الصلاة أصلًا، وأنا أريد أن أحببه فيها، وأرخص له في القول.

هنا تأتي سعة الإسلام.

لقد صدق منْ قال: «الأطباء مجمعون على أن المرض الواحد مختلف

علاجه باختلاف السن والعادة والزمن والغذاء وقوه الطباع»^(١)، كما أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان، ورحم الله أئمة الفقه حيث قالوا: «اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان». فكيف يُنظّلي على ذهن الداعي أن الوصفة الدعوية تختلف باختلاف المتلقى قرباً وبعداً، حداثة وقدماء، بلداً وأخر، زماناً وأخاه، فترى بعض الدعاة من يتمسك بعلاج واحد، ويجعله التّرياق لكل داء.

والداعية المُطَبِّبُ من يشخّص المرض تشخيصاً دقيقاً، وإن احتاج لكثرة أسئلة للمريض حتى يصل إلى الشفاء.

ومن طريف ما سمعته من أحد إخواني من كان يقيم في مدينة جُدة، ما حصل معه شخصياً لما كان يافعاً، أن مستوصف منطقة «باب شريف» كان يُغُصُّ بالمرضى بشكل كثيف، والطبيب جالس وراء طاولة وقد وضع أمامه ثلاث صفات، ومن كل وصفة نسخ كثيرة، بين كل نسخة والتي تحتها ورقة طباعة - كوبون أزرق - ف يأتي المرضى إليه واحداً تلو الآخر، كل واحد يشكو غير الآخر، فمن مريض وجع رأس، إلى وجع ضرس، إلى وجع المفاصل والركب، إلى الإسهال الحاد، إلى غير ذلك، وليس أمام الطبيب سوى هذه الصفات الثلاث، مكتوبة محضّرة جاهزة، ينالو المريض إحداها، وما أشبه هذه الصورة بحال بعض الدعاة.

(١) العبارة أصلها - بأطول من هذا - للإمام المازري، ونقلها الحافظ ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»: ٣٤٨، ٢٧، وابن حجر في «فتح الباري»: ١٠، ١٦٩.

إحياء سنة وتوبيخ فتنة

لا يزال علماء التربية يرگزون على أهمية التعليم، ويجعلونه نبض الحياة الراقية، وسبب رفعة الأمم، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لسبب بقاء الدعوة، ولو لا نفرٌ من المؤمنين لأندرَس أكثر القيم والأخلاق.

ولكن هذا التبليغ يحتاج شروطًا كثيرة، منها: ألا يتسبب الوعظ والتذكير والإذنار بخرابٍ أكبرٍ مما عليه الحال قبل المقال، وخذ هذا المثال:

الأذان الأول قبل الفجر سنة الحبيب ﷺ، وقد اندثرت هذه السنة في بعض البلدان، فإحياءها عظيم، لكن بشرط ألا تحدث فتنة، أو ما علمت أن الحبيب ﷺ ترك الفاضل من الأمور خشية الفتنة؟ أو ما درست: أنَّ دَرْءَ المفاسد مقدم على جلب المصالح؟ إحياء السنة لا يكون بإشاعة الببلة، فمن أراد أن يحييها وجب عليه أن ينظر في مآلات الأمور، فإن صلحت كان بها، وإلا فترك السنة خير من إحداث فتنة.

ولا يعني هذا أن يترك النظر والتحرك في الأمر، حاشا لله، ولكن ليعمل على الأمر من كل زواياه، وإحكام الأمور، حتى يغلب على الظن ألا تحدث فتنة، فالسكوت عن السنة عظيم، وإعمالها هو الغاية المطلوبة، من غير أن يزيد الهدم على البناء، كمن أراد أن يطلي جدران بيته بالطلاء، فنزع أثاث البيت على بَكْرِيه.

أراد بعض الشيوخ أن يُبْطِل صلاة التراويح عشرين ركعة كما درج عليها أهل بلده، ورأى أنها بدعة يجب إبطالها بما كان عليه رسول الله ﷺ، وكان يردد في كل مرة: وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فشق عصا المؤمنين، ثم

أراد أن يرجعهم إلى مائدة الدليل، فأساء إلى الكثير من أصحاب المذاهب.
وكذلك من أراد أن يُبطل بعض أعمال العوام الموروثة من جهل، فالّب
العوام على العلماء، وحدثت فتن، الله أعلم بحجمها.

وصحيح أن الرجل أحيا بعض السنن، وأمات بعض البدع، أو أراد ذلك،
ولكنه ولد فتناً وأوغر صدور المؤمنين على بعضهم، فكانت حصيلة الإفساد
أعظم من الإصلاح، وحصل الخراب والدمار أكثر من العمران.

إن ذا البصيرة ليقتدي بالحبيب ﷺ بشأنه في الإصلاح وترك الفاضل
عند تعارضه مع شرارة الضرر الأكبر.

أجل بالله: لقد ترك الرسول ﷺ قتل المنافقين، حتى لا يتحدث الناس
أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه^(١).

وترك تغيير بناء الكعبة، لأن قريشاً حديث عهد بجاهلية^(٢)، ولن تتحمل
عقوفهم هدم الكعبة وإعادة بنائها، وهذا ترك للصالح لتعارضه مع نار الضرر
المُحرقة.

تسويق رأي وقتل أخيه

من الناس من يعشق تسويق الرأي وقتل أخيه، ومنهم من لا يروق له
سماع غير هذا الصنف، والعقول السوية ترى الرأي، وأخاه، وشبيهه، وقربيه،
والأبعد، حتى ترى نقيضه، وتعطي لكل واحد منزلته، فلا ترى من الألوان

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥١٨، ومسلم برقم: ٤٥٨٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري برقم: ١٥٨٦، ومسلم برقم: ١٣٣٥.

الأبيض والأسود فقط، ولكن ترى بينهما تدرجًا كبيرًا، فيبتدىء الخط عند أصحابها أقصى اليمين بالبياض الناصع، وينتهي بالسواد الدامس، وسبحان قاسم العقول.

وهذه مسألة عقلية، وطرق تفكير مسلوكة، وفي الدعاة أبناء لكل هذه الطرق، فمنهم من لا يعترف في الدعوة إلا بطريق واحد لا شريك له، ويسلكه مع اعتقاده بضلال كل من لا يتبناه، كما يحدث في مسألة المولد مثلاً، ووضع اليدين على الصدر في الصلاة، وغيرها.

وهذا يحصل في كثير من رؤاد المدارس، منها:

- بعض رواد المدرسة التقليدية لا يرون غير أنفسهم، فهم بما لديهم مرّحون، ولا ختيار غيرهم منكرون، يذكرون المسألة الشرعية ويعطون الحكم فيها، ويضفون عليه ألقاباً تصور للسامع أنه الحق الوحد، والقول السوئي اليتيم.

- بعض رواد مدرسة التجديد من العلماء الأصيلين، - مع إيجابية هذا التجديد لديهم - لم يعرفوا بالماضي كما ينبغي، مع إضافة ما لديهم من الحاضر، مع أن في الماضي محسن يستفاد منها، ومطباطٍ تختبئ، فمنهم من لا يرون إلا المطباط، ويريدون أن يعدّلوها إلى تطرف عكسه، وهم كالذين رأوا شخصاً قد جلس على كرسي ومال للطرف الأيمن، فأقاموا اعوجاجه بتحويله مائلاً للطرف الأيسر، وليس أشأم الطرف بأولى من أيمنه، وكل الميول ميول، ولن يحمد العاقلون في حال.

أفيجوز بحال من الأحوال إذا آلت اجتهاده إلى رأي أن يخاصم أو يناسب

العداء للرأي الآخر، أو يهزاً أو ينقم على قول غيره.

نعم: مضى زمن خوصم فيه ابن تيمية (ت: ٧٦٨ هـ) رحمه الله خصومة الأشرار، وعودي في بعض أفكاره الصالحة فضلاً عما خرج به عن الجمهور، ويا ليت العداء وقف عند هذا الحد، بل تعدى إلى استعداء السلطان، حتى طاله السجن ولسَعْهُ سُوءُ العذاب، ومنع عنه الورق والقلم، فجعل يكتب على الجدران بالفحم^(١).

مواقف تشمئ لها النفوس السوية، ويغتاظ لها وجه المسلم النضر، ونبذت أقوال ابن تيمية رحمه الله حتى جعلت سبّةً وعاراً لمن يتبعها.

ثم خلف من بعدهم خلُفُ درسوأقوال الأئمة، كمسألة طلاق الثلاث في مجلس واحد، أو مسألة طلاق الحائض، ورأوا أن الحال بحاجة لقول ابن تيمية رحمه الله، وأنه قول يحل مشكلات بيوت تنحب لإرجاع الميثاق الغليظ بين الزوجين، فبدلًا من أن يأخذ بأقوال ابن تيمية عند اللزوم، أخذ بها في كل الأحوال، وأصبحت القاضية على جميع أقوال العلماء، وناسخة لأقوال أكثر الصحابة وفتاوي التابعين، ثم المذاهب الأربع.

أهكذا تكون الصحة بعد النوم؟ أم هي إغماءة بعد سبات؟

الانقلاب الذي يحصل من غير اتزان قد يفوق الضرر المعادي وقد يساويه، لكنه ليس بخير قطعاً.

(١) انظر: «العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبد الهادي، ص: ٤٣٨.

والعقل المترن من يستمر كل الأقوال، ولا يوفّر قولًا إلا وله نازلة تحتاجه.

لم قلت: قتل أخيه؟

من حِنْكَةِ المفتي أن يختار من يفتنيه القول الأصلح له، فإذا سئل عن حُكْمٍ لم يجب حتى يعلم حال السائل: أمتورط هو بالذنب ويريد الخلاص منه؟ أم أنه يخطط لعمله؟ وهل هو قُدْوةً أم من السُّوقَة؟ وهل هو غني أم فقير؟ وهل السؤال عن حالة سِلْمٍ أم حرب؟ وهل السائل كبير أم صغير؟ وهل الفتوى عن حالة في شيخوخة أم شباب؟ وهل الفتوى عن حكم في بلد غير مسلم أم بلد إسلامي؟ يسأل ما يفيده من هذه التفاصيل وغيرها.

ومن الأمثلة القريبة سؤال: ما حكم وضوء من مس فرجه؟ فالفرق كبير بين من يقف في عمله إماماً بأترابه، ومن هو جديـد التزام بالصلاـة.

وهنا يظهر الجاهل بروح دين الله تعالى، من لا يعرف من الأحكـام إلا ترجـيح قول واحد، ونـصف ما عـادـهـ من الأقوـالـ، وكـثـيرـ من فـتاـويـهـ يـقولـ فيـهاـ: «الـراـجـحـ فيـ المسـأـلـةـ كـذـاـ»، ولـستـ أحـرـجـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـجـحـ الـراـجـحـ لـدـيـهـ، ولـكـنـ سـلـوكـهـ أـمـرـهـ أـنـ يـنـفـيـ الـأـخـذـ بـالـقـوـلـ الثـانـيـ بـكـلـ حـالـ، وـيـنـكـرـ أـشـدـ النـكـيرـ عـلـيـهـ مـنـ يـقـولـ بـهـ، بلـ ثـنـيـاـ كـلـامـهـ وـإـيـحـاءـاتـهـ تـدـلـ عـلـىـ بـطـلـانـ كـلـ قـوـلـ مـخـالـفـ لـمـ يـأـخـذـ بـهـ.

قتل الآراء الفقهية الأخرى جريمة تصادم روح الشريعة الغراء، وقد أنزل الله في كتابه: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةٌ فَرَوْعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وهو العليم الخبير أن اختلافاً علمياً سيكون بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في

تفسير القرء، فعلى سبيل المثال: ذهبت عائشة رضي الله عنها إلى أن معناه: «الطهر»، وأما ابن عباس رضي الله عنه فقد روي عنه أنه فسره بـ: «الحيض»^(١).

حوار بين شيخي وأحد طلبة العلم

يدرك شيخنا العلامة محمد عوامة حفظه الله، أن أحد الطلبة سأله: ما القول في السعي في توحيد المذاهب وحمل الناس على مذهب واحد؟

أجابه الشيخ بإيجاز:

«هذا السعي مخالف لإرادة الله عز وجل في تشريعيه، ولرسوله ﷺ، وللصحابة رضي الله عنهم، وللسلف من بعدهم، ومخالف للعقل».

ثم فَصَّلَ له الشيخ بقوله: «ألم يكن الله عز وجل يعلم من قديم الأزل أن العرب ستستعمل كلمة قُرء في المعنَينِ: الحيض والطهر؟ قال: بلى.

قال: ألم يكن الله عز وجل يعلم من قديم الأزل أنه سيوجد صحابي اسمه زيد بن ثابت، وآخر اسمه عبد الله بن مسعود، وأن زيداً سيقول: القرء هو الطهر، وأن ابن مسعود سيخالفه ويقول: القرء هو الحيض؟ قال: بلى.

(١) أخرج الإمام مالك، عن عائشة، قالت: «انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدّم من الحِضْضَةِ الثَّالِثَةِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرَةَ بِنْتِ عبدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَتْ: صَدَقَ عُرْوَةُ، وَقَدْ جَادَهَا فِيهِ نَاسٌ، وَقَالُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُونٍ﴾، فَقَالَتْ: «صَدَقْتُمْ، وَتَدْرُوْنَ مَا الْأَقْرَاءُ؟ إِنَّمَا الْأَقْرَاءُ: الْأَطْهَارُ». انظر الموطأ برقم: ٥٤٩.
وروى البيهقي في «السنن الكبرى» ٧: ٦٨٥، برقم: ١٥٣٩٨: عن ابن عباس في معنى: ثلاثة قروء: قال: «ثلاث حيض».

قال: إِذَا فِيمَ لَمْ يَنْزَلِ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿ثَلَاثَةٌ فَرُوعٌ﴾ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَحْتَمِلُ اختِلَافَ ابْنِ مُسْعُودٍ وَزَيْدٍ، فَيَقُولُ: ثَلَاثَ حِيلَّةٌ، أَوْ ثَلَاثَةِ أَطْهَارٍ، فَيَحْسِمُ الْخِلَافُ، وَلَا يَدْعُ مُحَالًا لِقَائِلٍ^(١).

وَبَعْدَ هَذَا فِيهَا لِلْتَّحْجِيرِ مِنْ يَقِدْمَ رَأِيًّا مَعْتَمِدًا، وَيَتْرَكُ أَخَاهُ هَمَّلًا، بَلْ إِنْ فَاعِلُ هَذَا لِيُسْتَحِقَ التَّأْدِيبُ وَالْمَنْعُ مِنَ الْفَتْوَىِ، أَمَّا عِلْمَتُ أَنَّ مِنْ رُوحِ الشَّرِيعَةِ وَجُودُ أَكْثَرِ مِنْ قَوْلٍ، كَمَا قَالَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (ت: ١٠١ هـ) رَحْمَهُ اللَّهُ: «مَا سَرَّنِي لَوْ أَنْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَخْتَلِفُوا، لَوْ لَمْ يَخْتَلِفُوا لَمْ تَكُنْ رَخْصَةً^(٢).

تَصْدِيرُ رَأِيٍّ وَاحِدٍ وَإِيَّاهُمُ الْعَامَةُ أَنَّ هَذَا الْوَحِيدُ حُكْمُ الْإِسْلَامِ احْتِكَارٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَلَا أَرَادَ اللَّهُ أَلَّا يَخْتَلِفُ فِي الْفَرُوعِ لِجَعْلِ الشَّرِيعَةِ كُلَّهُ كَالْمَسَائلِ غَيْرِ الْمُخْتَلَفِ فِيهَا، فَمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ خَلَافٌ فِي عَدْدِ الصلواتِ، وَلَا تَحْدِيدٌ أَيِّ شَهْرٍ الصِّيَامُ، وَلَا فِي أَيِّ شَهْرٍ الْحَجَّ، وَلَا نَسْبَةُ نَصَابِ الزَّكَاةِ فِي الْمَالِ، وَكَثِيرٌ غَيْرُهَا.

(١) انظر: «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين» لفضيلة العلامة الشيخ محمد عوامة، ص: ٤٦.

(٢) أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ بِرَقْمِ: ٦٢٨، أَنَّهُ قَيْلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحْمَهُ اللَّهُ: لَوْ جَمِعَتِ النَّاسُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ: «مَا يَسْرَنِي أَنْهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا، قَالَ: ثُمَّ كَتَبَ إِلَى الْأَفَاقِ وَإِلَى الْأَمْصَارِ: لِيَقْضِي كُلُّ قَوْمٍ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقَهَّأُهُمْ».

كَمَا أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ عَقْبَ الْحَدِيثِ الْأَنْفَ: عَنْ عُوَنَّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَحَبَّ أَنْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَخْتَلِفُوا، فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى شَيْءٍ فَتَرَكُهُ رَجُلٌ تَرَكَ السُّنَّةَ، وَلَوْ اخْتَلِفُوا فَأَخْذَ رَجُلٌ بِقَوْلِ أَحَدٍ أَخْذَ بِالسُّنَّةِ».

ثم ألا ترى عُقْمَ تفكير من يرضى وجود المذاهب الأربع، ويعتقد عظمة رسالة الإسلام يجعل الفهم للدين على مذاهب، ثم ما يلبث أن يتقيّد ويقيّد الناس معه بمذهبه الذي ارتضاها!

المذاهب أمّا المفتى كالعقاقير عند العطار، يعطي هذا ما يناسبه، وذاك ما يسْكُنُه.

استمتع بالخلاف فإن للرأي الآخر وقتاً وسائلًا يحتاجه

دعوني أبين وجهة نظري في التفكير بعظيم فضل الله تعالى علينا لـما شرع هذا الدين، وجعل في فهمه مذاهب، وأقوال الفقهاء أحياناً تبدأ في أقصى اليمين، ولا تنتهي إلـا في أقصى اليسار.

فالـأول يقول: إن قراءة الفاتحة للمأموم خلف الإمام مكرهـة تحرـيـماً، فلو قـرأ وجـبت إعادة الصـلاة ما دـام الـوقـت باقـياً، والـآخـر يـرى: أن عدم المـأمـوم لها تـبـطل الصـلاـة! أـهـو عـبـثـ فيـ الدـيـن أـقـرـه اللـه تـعـالـي؟ حـاشـا وـكـلا، إـنـها الرـخصـة العـظـيمـة حـتـى لا يـكـونـ فيـ الدـيـن حـرجـ.

صلـيـت مرـة فيـ المسـجـد النـبـوي، فـرـأـيت صـفـوفـاً عـظـيمـة جـداً تـقتـديـ بالـإـمام، متـقدـمـةً عـلـيـهـ فيـ الـوقـوفـ، لـوـلا تـخـرـيـجـ المسـأـلة عـلـى مـذـهـبـ السـادـةـ المـالـكـيـةـ بـجـواـزـ صـلـاتـهـمـ لـوـقـعـ النـاسـ فيـ الـحـرجـ الشـدـيدـ، وـوـقـعـتـ فيـ الـحـرجـ كـيـفـ أـنـصـحـ هـؤـلـاءـ الجـمـاهـيرـ الكـبـيرـةـ! وـالـمـسـأـلةـ مـكـرـرـةـ فيـ المسـجـدـ النـبـويـ فيـ كلـ وـقـتـ صـلاـةـ، مـنـ هـذـهـ المسـأـلةـ وـأـمـاـلـهـاـ تـدـرـكـ عـظـمـةـ اـجـهـادـ الـأـئـمـةـ فيـ فـهـمـ النـصـوصـ، وـتـدـرـكـ أـنـ النـاسـ بـحـاجـةـ لـمـذـهـبـ وـتـفـرـيـعـاتـهاـ فيـ كـلـ لـحـظـةـ فيـ الـكـوـنـ، فـأـيـنـ المـضـيـقـ عـلـىـ الـأـمـةـ، الـحـاـمـلـ لـهـاـ عـلـىـ رـأـيـ وـاحـدـ لـاـ شـرـيكـ وـلـاـ نـدـ لـهـ!

أصابت نجاسة دم من يدي لوحة مفاتيح الحاسب، ولولا مذهب السادة الحنفية بظهور الجهاز مسحًا بالمنديل، وإزالة عين النجاسة لضافت على الفتوى بما رَحِبَتْ، وكيف أغسل جهازي بالماء لو أني تقيدت بمذهب السادة الشافعية؟

إذا اقتنعت برأي فلا حرج عليك أن تتبناه، ولكن اتق الله أن تقتل الأقوال الأخرى، ولو أراد الله من المسلمين ألا تتعدد الأقوال لجسم الأمور كلها وجعلها رأياً واحداً، كأصول العقيدة، ولكن يريد أن يخفف عنهم، وألا يقع الناس في الحرج والتحرّج، وهي صدقات تصدق الله بها على عباده، فلننقيّل صدقته.

إذا خَيَّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ..

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا خَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْتِمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ، كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ»^(١).

من خلال هذا الحديث انقسم الناس في الفتيا إلى مدارس:

- مدرسة ما فهمت الحديث جملة وتفصيلاً، مما خيروا بين أمرين إلا اختاروا أعندهما وأشددهما وأنقلهما.
- مدرسة فهمت من الحديث الشطر الأول منه فقط، وأهملوا الشطر الآخر بالكلية، فلم يعملا قوله: «مَا لَمْ يَأْتِمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ، كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ»، فترى أحدهما يتعامل مع الاختلاف الفقهى تعامل الانتقاء، يبحث

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٦، ومسلم برقم: ٤٣٣٠.

عن الرخصة أين وُجِدَتْ ويقدّمُها للناس، وبعضهم وصل إلى أكثر الأقوال شذوذًا وبعًداً ومخالفًةً لروح الشريعة ومقاديرها.

- مدرسةٌ فِهْمَتْ الحديثَ على حقيقته وطبقَتْه كما هو، فإنهم يختارون الأيسر، إن لم يكن إثماً.

لقد أُولِئِعَ عدد من الشيوخ بطريق واحد في الفتوى، فلا تكاد تسأله عن شيء إلَّا قال: «حرام»، وبعضهم سار مساراً عكسيًّا، فلا تكاد تسأله عن أمر إلَّا أفتى بالجواز.

إن أحد الشيوخ كان ينتقي الفتاوى في الطلاق، بل إن لم يجد فتوى لفَقَ بين قولين أو ثلاثة، وهكذا حتى يوَلِّ رخصة، فلم يعد لمسائل الطلاق في أعين الناس قيمة، وفي أكثر الأحيان يطلب من السائل أن يكُفِّرَ عن يمين الطلاق كفارة حِنْثٍ يمين، فصار بعض العوام يتندَّرون بقولهم: «اذهب إلى فلان وسيحلها لك بمبلغ كذا».

واجتمع شيخنا الشيخ عبد المجيد معاذ (ت: ١٤٤٥ هـ) رحمة الله بهذا العالم، وناقشه بعض الأقوال الساقطة الباطلة، فأصرَّ إصراراً عجيباً، فترك شيخنا الحوار وسألة: حدثني ما هو الطلاق الذي يقع في نظرك؟ فإني لم أجده مسألة واحدة عندك توقع بها الطلاق.

غضب الشيخ غضباً شديداً، وهمَّ أن يخرج من المجلس لولا أن أصحاب المكان سَكَنُوه وأجلسوه، بل أجبروه بعظيم لطفهم. حَقّاً إن الشيخ لم يُجْرِ جواباً لهذا السؤال، فأنا شاهد عيان عليه، أنه يُرجع المرأة إلى زوجها لو طلقها بعد نجوم السماء، كُلُّ طلقةٍ في مجلس مستقلٍّ، مع إصرار أو تهديد أو زجر أو نية

من، سواءً أكان الطلاق صريحاً أم كنائياً، وسواءً أكان معلقاً أم منجرأاً، وسواءً أكان بنية اليمين أم بنية الطلاق، كل الأحوال والصيغ والحالات يُبطل الطلاق ويُرجح المرأة، فإن أعيته الحيل فسوق الشهود على العقد! نعم نعم هكذا، يحكم أن الشهود على عقده الأول يوم زواجه كانوا فساقاً، فإن قيل له: حضر عقده فلان وفلان من العلماء والصلحاء والأولياء صاح بوجههم: أوَلَمْ يعصوا الله طرفة عين؟

وكأنه نسي أن الأبناء الذين ولدوا بعد العقد الأول غير الصحيح هم أبناء شبهةٍ! وهذا ممَّ لا يُسأل عن طلاق إلا وأفتي بالراجعة.

ومثله كثير: لم يدع شبهةً من الشبهة، بل لم يترك أمراً قريباً من صريح الحرام إلا دل عليه، وأفتي بجوازه، وكل هذا تحت مسمى: «التسهير على الأمة»، ناسياً تتمة الحديث: «ما لم يأثم، فإذا كان الإثم، كان أبعدَهُمَا منه».

ومنينا في عصر فيه أناس جامدون، يحكمون على ألفاظ المجاز أنها شرك بالله تعالى، ويحملون المتكلم على أسوأ احتمال، فالكلمة التي تحتمل الشرك والمجاز حكم على صاحبها بالشرك احتياطاً! فإذا أعياه الأمر وبين له العامي ذو العلم اليسير أنه - بلغته السهلة - مستحضر للمجاز، حكم بالحرام سداً للذرية! وهكذا أصبح مبدأ سد الذرائع ذريعة لحجر أمورٍ كثيرة فيها متعةٌ سعةٌ الشريعة، ووسّعوا رقعة التضييق في الدين.

أما الذي ما خَيَّرَ بين أمرين إلا اختار أعندهما في الغالب تعرف فتواه بالمنع قبل أن ينطق بها، ووصل ببعضهم من سطحية فهم الشريعة، والبعد عن روحها أنه يطالب أو يتخيّل أن لكل مسألة في الدنيا نصاً نبوياً صريحاً الفتيا.

يفتي بها أربابها

الأول: أحِلَّ الفتوى في بعض الحالات على من يعيشها

حدثني أحد علماء البلاد الإسلامية التي يعيش فيها فرقتان، قال: كل مذابح الفرج في بلدنا لأهلنا، وما كان في البلد دجاج يذبح على يد أهل الضلال قط، وكان أبناء المذهب الآخر يشترون ذبائح الدجاج من محلاتنا، حتى جاء سائل وسأل أحد العلماء على التلفاز عن حكم أكل ذبيحة أولئك، فأفتاه الشيخ بأنها غير جائزة، وبغض النظر عن ذات الفتوى صحة وخطأ، فإن هذه فتنه عظمى، لأن الشيخ أفتى في الحال ولم يُحل الحواب على أهل العلم في ذاك البلد، الذين يعيشون الواقع، وأشارت هذه الفتوى حفيظة الجهة الأخرى، وهبوا يقولون: أنا كل من ذبائحهم ولا يأكلون منها؟ أيُعاملونا معاملة المشركين، ونحن نعاملهم بصفاء القلب وحسن السريرة؟ وأنشت من جراء هذه الفتوى مذابح، ومع الأيام وتعيش الشعب بعضهم مع بعض صار لحالات الطرف الآخر زبائن من أبناء جلدتنا، وكان أبناء أولئك يشترون منها، فصار الأمر عكس ذلك بناء على الفتوى.

كثيراً ما تأتيني فتاوى من أوربا، ويسألونني عن شراء البيت عبر المصارف الربوية في تلك البلاد، فأحيلهم إلى المجلس الأوروبي للإفتاء.

نعم والله، هم الأعرف والأقدر والأحوط والأكثر إلماماً بالموضوع، فهم يقدرون الأمور بنصابها، ولكن الذي تصور نفسه أنه حامي الحمى، وأن الإسلام له، ويتخيل أنه إن فسح المجال لغيره من العلماء فإن الدين يخرب، وأن الحفاظ على بيعة الإسلام كان ولا يزال على يديه هو، أو يدي جماعته،

فهذا لن يحيل على علماء المجلس الأوربي، لأنه يراهم من ممّيعي الدين، ومتناهلي الفتوى، ولا يجوز الأخذ بكلامهم.

الثاني: لا يفتني بأهل بلد خاص من كان خارجاً عنها

روي في الأثر: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحُمْقَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ يُورِثُ»^(١) إذا كانت مصّات من الحليب تؤثّر، فكيف برضاع العلم من الحمقى، وأنصاف المتعلمين، وما أكثر من ساد قومه حتى غدا فيهم الأحمق المطاع!

في تركيا: حمل السبحة ذات الحبات المئة إظهار للتدين السُّنِّي، وجهاد في سبيل إثبات حُب الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان الناس يُقتلون على الهُويَّة، أو قل على أمور من الدين، كالقبعة المسجدية، وحمل السبحة، وأمثالها.

والاليوم يُسأل أحد المعوقين في الفتوى: أهذه السبحة جائزه؟ فيجيب بكل جرأة: هي بدعة، وهي من شعائر الصوفية! وأجزم أن هذا المقلد لم يطلع على فتوى ابن تيمية (ت: ٧٦٨ هـ) رحمه الله في استعمال السبحة في الصلاة، أي والله هكذا: في الصلاة، فكيف بخارج الصلاة^(٢)؟

(١) أخرجه البزار في مسنده عائشة من «البحر الزخار» برقم: ٤٦، وال الصحيح أنه موقوف وليس من كلام النبي ﷺ، ولما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠: ٢٠٤ رقم: ٧٤٣٨ أعقبه بلفظ آخر عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الْوَرْهَاءَ». ثم قال الهيثمي: «وإسنادهما ضعيف» ثم أعقبه بحديث ٧٤٣٩ عن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن رضاع الحُمْقَاءِ. وأشار إلى ضعفه أيضاً، والمهم هنا الفائدة، وإن كانت حكمة لا حديثاً مرفوعاً.

(٢) جاء في «مجموع الفتاوى» ٦٥: ٤٤ : وسئل: عما إذا قرأ القرآن ويعد في الصلاة بسبحة هل تبطل صلاته أم لا؟ فأجاب: إن كان المراد بهذا السؤال أن يعد الآيات أو يعد تكراراً -

أمور كثيرة من شعائر التدين عند الترك، ويفتي من لا صلة له في واقع هؤلاء أنها بدعة، أين البدعة؟

جلس الترک عشرات السنين يثبتون المسلم عن طريق المناسبات الدينية، كالمولد النبوی، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، ومواسم رمضان بتمامه، ولا يستطيع الداعي إلى الله جلب هؤلاء الناس، من أقيح العراة إلى أقرب ملتزم إلّا عن طريق مواسم الدين، وكم تحرّك القلب من التحلّل إلى التدين عن طريق مواسم الدين هذه، وسل الأمم الشامية والمصرية والتركية والمغاربية، كم استطاعوا أن يجذبوا الشاب غير المتدین إلى التدين بدعوه إلى إحياء ليلة في المسجد لموسم من هذه المناسبات!

في تركيا: الاحتفال بالمولد النبوی شعار عظيم لإثبات أهل الإسلام أنفسهم أمام غيرهم، فيأتي من لا يعرف هذا ليقول لهم: إن عمل المولد بدعة! فتصيب الداعية شرارة أعدائه، مع شرارة أبناء جلدته، ويفرح العدو بتحوّل المعركة من ساحتنا إلى ساحتنا، وكم كان الشائئ يحارب الداعي لأنّه يدعو إلى الإسلام، ويجذب الشباب عن طريق المواسم، ولكنّه تحقق لديه الهدف على يد غيره، حيث تفرّغ لمحاربة هذه المواسم مَنْ لا يعرف قيمتها الدعوية.

في تركيا: كان يعني الإسلاميون مرارة الاضطهاد على مر الساعات، ويُحارب فيه المسلم حرباً شديدة، وما أعظم آلمه، ولكن آلمه الأكبر من مسلمين حوله دينُهم الطعن بإمامهم الأكبر أبي حنيفة (ت: ١٥٠ هـ)

= السورة الواحدة مثل قوله: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** [الإخلاص: ١] بالسبحة فهذا لا بأس به وإن أريد بالسؤال شيء آخر فليبيه، والله أعلم.

رحمه الله، وهم يرونـه الـباب الأـكـبر للوصـول إلى الله تـعالـيـ، وأـكـثـرـهـمـ يـتـبعـدـ اللهـ عـلـىـ مـذـهـبـهـ.

في تركـياـ: أـكـثـرـ النـاسـ أـعـاجـمـ، يـسـتـمـعـونـ عـقـبـ الأـذـانـ بـخـشـوـعـ إـلـىـ دـعـاءـ الوـسـيـلـةـ مـنـ الإـمـامـ لـأـنـ السـوـادـ الـأـعـظـمـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ لـاـ يـحـفـظـهـ، وـلـاـ يـقـوـيـ عـلـىـ حـفـظـهـ، فـيـأـتـيـ مـنـ يـقـولـ لـهـمـ: هـذـهـ بـدـعـةـ، وـالـسـنـةـ أـنـ تـقـرـأـ دـعـاءـ، لـأـنـ تـبـتـدـعـ السـمـاعـ لـدـعـاءـ، فـتـفـوـتـ السـنـةـ وـيـسـكـتـ النـاسـ، وـلـاـ يـحـفـظـ الـأـعـجـمـيـ دـعـاءـ.

في تركـياـ: أـمـةـ جـلـلـهـمـ لـاـ يـعـرـفـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ، يـجـلسـ المـصـلـوـنـ بـإـنـصـاتـ وـخـشـوـعـ لـسـمـاعـ آـيـاتـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، يـتـلـوـهـاـ الشـيـخـ الإـمـامـ الـذـيـ أـمـمـ النـاسـ عـقـبـ صـلـاـةـ الـعـصـرـ، فـيـأـتـيـ مـنـ يـقـولـ: هـذـهـ بـدـعـةـ، لـأـنـهـ مـاـ جـاءـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ أـنـ يـقـرـأـ الـقـرـآنـ عـقـبـ الصـلـاـةـ لـلـنـاسـ، وـهـمـ يـسـتـمـعـونـ.

في تركـياـ: أـمـةـ تـعـظـمـ حـرـمـاتـ اللهـ تـعالـيـ، قـدـ سـمـعـواـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ، أـنـهـ رـفـعـ يـدـيهـ يـدـعـوـ لـصـاحـبـ الـبـيـتـ عـقـبـ الـدـعـوـةـ، فـتـراـهـ يـحـرـصـونـ عـلـىـ دـعـاءـ الـجـهـرـيـ عـقـبـ كـلـ طـعـامـ يـدـعـونـ إـلـيـهـ، يـدـعـوـ الـعـالـمـ أـوـ الـصـالـحـ، وـالـبـاقـونـ يـؤـمـنـونـ عـلـىـ دـعـاءـ، وـلـاـ يـسـتـطـعـ الـعـامـيـ الـأـعـجـمـيـ أـنـ يـدـعـوـ بـنـفـسـهـ، فـيـأـتـيـ مـنـ يـقـولـ لـهـمـ: إـنـ الـاجـتمـاعـ عـلـىـ دـعـاءـ الـجـمـاعـيـ بـدـعـةـ^(١).

(١) وقد ثبت في الأحاديث الصحاح دعاء النبي ﷺ لأهل البيت، وما أظن الصحابة يسمعون دعاء النبي ﷺ ويستكتون ولا يؤمنون على الدعاء أبداً، فمن هذه الأحاديث ما جاء عن عبد الله بن بسر رضي الله عنهما، أتاه قال: نزل رسول الله ﷺ على أبي، فقرئنا إليه ظعاناً ووطبةً، فأكل منها، ثم أتى بتمر فكان يأكله ويلقي التمر بين إصبعيه، ويجمع السباتة والوسطى، ثم أتى بشراب فشربه، ثم ناوله الذي عن يمينه، قال: ف قال أبي: وأخذ بليجام ذاته:

يا أُخْيَ: يجوز عند الأعجم ما لا يجوز عند غيرهم، ويباح للأعجمي ما لا يباح لغيره، فمن الصعوبة بمكان أن يحفظ الأعجمي العامي الأدعيه والأذكار الواردة، ومن الطرق الدعويه أن يرفع المعلم صوته بالوارد كي يسمع من لا يحفظ فيحفظ، وليس هذا ببدعة، وإنما هي طرق للتحايل على الجهل، وإراغم الشيطان في الحفظ، والوصول إلى الله تعالى.

تكرار المكر

اسلك الطريق الدعوي الأزرق، واحذر الأحمر، فهو وإن كان أقصر لكنه مزدحم.

فتحت مخططاً الطريق - وأنا أريد أن أزور أخاً لي في الله تعالى - ووضعت خريطة بيته وفوجئت أن رأيت راشد الطريق يخربني بين مسلكين: أحدهما وقد حده باللون الأحمر، وهو علامة على اختناق مروري قاتل، والآخر أزرق مفتوح، ونظرت إلى عدد الدقائق المحددة بين الطريقين فإذا الفرق بينهما واسع، لأن الطريق الأزرق أقل وقتاً، وإن كان أطول من حيث المسافة المقيسة.

أحب أن تضع جهاز جي بي إس لسلوكه في الدعوة إلى الله تعالى، فعندما ترى طريقاً دعوياً مزدحماً، فيه الكثير من الدعاة فاتركه، واذهب إلى طريق

= ادع الله لنا، فقال: «اللهم، بارك لهم في ما رزقتهم، واغفر لهم وارحهم». رواه مسلم برقم: ٤٠٤٦ . ومنها: ما جاء عن أنس، أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبدة رضي الله عنه، فجاء بخنزير وزينت، فأكل، ثم قال النبي ﷺ: «أفتر عندهم الصائمون، وأكل طعامكم الآباء، وصلت عليكم الملائكة». رواه داود برقم: ٣٨٥٤ ، والحديث صحيح.

سريع، ولكن السالكين فيه قليلة، ولا تتبئس بطول المسافة، فإنك ستصل أسرع.

يفتح المسجد الأول حلقات للقرآن الكريم، فيفتح المسجد المجاور له حلقات مثلها، فلم لا تتجهون إلى حلقات التدبر للقرآن؟ أو حلقات الحديث الشريف، أو حلقات الفقه؟ ليتكامل العمل.

وستضيف مؤسسة دعوية عالمًا معروفة وداعية شهيرًا، فتقلدها المؤسسة الثانية بالفكرة نفسها، ولو استضافوا غيره لانتفعت الأمة بدعاتها جميعًا، ولما زاد الضغط على عالم فريد.

وحقق كتاب: «رياض الصالحين» عدد كبير من العلماء، ثم أرى من شمر عن ساعديه لطبعة محققة، وقد أقنع نفسه بأن طبعته ستأتي بأمر زائد، وعندي فريدة، وهذا لا شك فيه، فما من رجلين يعملان عملاً إلا تميز أحدهما على الآخر بمزيد، ولكن يجب على كل واحد منا أن يسأل نفسه: هل الأمة بحاجة لتكرار هذا العمل؟ أم حاجتها إلى غيره من الأعمال التي لم تُخدم بعد؟

والسؤال: لم لا تتجه الجهود للتضاد، فيترك هذا الأخ «تحقيق رياض الصالحين»، وينصرف إلى العناية بكتاب جديد، وهكذا حتى تحظى الأمة بتراث علمائها، ولا تخُرم منه شيئاً؟

كما أنه لا يُمنع تكرار العمل عند الحاجة الداعية للتكرار، كأن يكون الكتاب المطبوع غير مخدوم، أو كثير الخطأ، أو يكون الحي محتاجاً إلى المزيد من حلقات القرآن، وليس لدى المسجد قدرة على هذه الزيادة.

جَعْجَعَةُ وَلَا إِبْدَاعٌ يَشُدُّ النَّظَرَ

قال لي شيخنا العلامة الشيخ صلاح الدين الإدلبي حفظه الله مرر: إن من أَفْدَحَ أخطائنا الجمود في طريقة التأليف وعدم الإبداع فيها، فيؤلف العالم كتاباً، ويأتي مَنْ يختصره، ثم مَنْ يختصر المختصر، ثم من يشرح المختصر، ثم توضع الحاشية على الشرح، ثم يُشَرَّح الشرح، ثم تختصر الحاشية، وهكذا يبقى الدوران في فَلَكَ كتاب واحد، اختصاراً وتعليقًا وشرحاً وإيضاً حاشية واختصاراً للhashia.

ومن جملة العلوم التي أبدع فيها قدماء المسلمين علم الطب، وعنهم أخذ الغربيون، ثم طَوَّرُوا وأحسنوا وأبدعوا، والسؤال الآن: ماذا لو عمل الغربيون بطريقة الاختصار والhashia واختصار الحاشية وشرح المختصر وهكذا؟ أكان يصل الطُّبُ إلى ما وصل إليه؟

والعذر قائم لأنّة سابقين فعلوا هذا في وقت لا وجود فيه للطباعة، والعالم مضطّر لِتَسْخِيْك كتاب مَنْ سبقه، فبدلًا من أن ينسخه بحاله يجمع كتاباً من عدة كتب أمامه بما يصلح لخصوص درسه وطلابه.

ولكن لا عذر أبداً لمن يتحقق كُتُباً لا جديد فيها في هذا الزمان، ويصرف من الوقت والجهد على إخراج كتاب مجمَع من كُتُبٍ أخرى، أو مختصر لكتاب آخر، وقد أغنى غيره عنه تماماً.

آه ما أحوجنا إلى النظارات الجديدة، والأساليب الجديدة، ليأتي بالجديد فيما يمكن الإبداع فيه، فالشيخ عبد الرحمن حبنكه (ت: ١٤٢٥ هـ) رحمه الله لم يخترع علم منطق جديداً، إنما أعاد صياغته وقدمه بثوب مختلف عن سابقه،

وسماه: «ضوابط المعرفة»، وشيخنا العلامة الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٣٩ هـ) رحمه الله لم يبدع علم بلاغة من بنات أفكاره، ولكنه أبدع في طريقته وجدد في تأليفه: «تيسير البلاغة».

التميُّز في الطُّرُقُ الْفَارِغَةُ

إنَّهُ الطُّرُقُ الْأَحْمَرُ الْمَرْدُومُ، وَلَيْسَ التَّمِيزُ فِي غَيْرِ الطُّرُقِ الْأَزْرَقِ، انظُرْ إِلَى عِنْيَةِ الْأُمَّةِ بِكِتَابِ الْعَزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ (ت: ٦٦٠ هـ): «القواعدُ الْكَبْرِيُّ» الَّذِي لَمْ يُنْسَجِّعْ عَلَى مِنْوَاهِهِ، وَكِتَابِ: «الموافقاتُ» لِأَبِي إِسْحَاقِ الشَّاطِبِيِّ (ت: ٧٩٠ هـ)، وَانظُرْ عِنْيَاتِهِمْ بِشَرْحِ فَلَانِ عَلَى مِنْهَاجِ الْلَّنْوَوِيِّ (ت: ٦٧٦ هـ)، لَنْ يَكُونَا سَوَاءً، لَأَنَّ «القواعدَ الْكَبْرِيَّ» وَ«الموافقاتُ» كَتَبُ تَمَيَّزَتِ فِي طَرْحِ الْجَدِيدِ، أَمَّا شَرْحُ الْمَنْهَاجِ فَهِيَ مُتَشَابِهَةُ، وَهِيَهَاتُ أَنْ يَكُونَ التَّمَيُّزُ كَالْتَّقْلِيدِ.

وَكَمْ أَرْهَبَ طَرِيقُ الدُّعَوةِ الْفَارِغُ الطَّوِيلُ أَنَّاسًا، تَوَهَّمُوا أَنَّ السِّيرَ فِيهِ عَسِيرٌ وَلَنْ يَصْلُوَا، فَسَلَكُوا الطُّرُقَ الَّذِي يَعْجُجُ بِأَمْثَالِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّتْيَةِ يَكْرِرُونَ الْأَعْمَالَ، وَمَا تَمَيَّزُوا، وَالْفَائزُ مِنْ سَدِ الْثَّغْرِ الْمَتَرُوكِ، وَلَوْ تَكَلَّفَ الْمَشِيُّ أَبْعَدَ، وَلَكِنْ أَسْرَعَ وَأَنْجَزَ، حَتَّىْ صَارَ كَأَنَّهُ شَامِمٌ فِي النَّاسِ.

وَأَنْقُلْ كَلِمةً سَمِعْتُهَا عَنْ بَعْضِ الدُّعَاءِ، - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِقَائِلِهَا الْأُولُ: - إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ لِلْإِسْلَامِ فَخُذْ مِبْدَأً: «دُعُومُ الْمُوْجُودِ، وَإِيجَادُ الْمُفْقُودِ». وَإِنْ شَئْتَ فَلِيَكَنْ شَعَارُكَ: عَمْلِي فِي الدُّعَوةِ: «تَأْيِيدُ الصَّحِيحِ الْوَاقِعِ، وَتَأْمِينُ الْمَطْلُوبِ النَّافِعِ».

لأن الفطن القوي من يرمم قديم المباني ويستثمرها، وينشئ ما يحتاج من المحاريب ويستخدمها.

مبالغات قاتلة

سلوك المبالغة عكس التوازن تماماً، فالإنسان المتوازن لا يبالغ ولا يعطي أيّاً أمراً أكثر من حجمه الذي تقليده، وويل للمبالغة الزائدة فإنها لم تدخل خللاً من خلال الدعوة إلاّ أفسدتها، وما أحسن هدي رسول الله ﷺ، وما أفسد المبالغة فوق الأمر النبوي! وقد يلجأ المبالغ في دين الله باب قلة الأدب مع الشارع، فَمَنْ أَمْرَ بِالسُّنْنِ الرَّوَاتِبِ وَصَوَرَ أَنَّهَا كَالْفَرِيْضَةِ فَقَدْ أَسَاءَ، ومن حَطَمْ خَطَأً تَحْطِيمًا أَكْثَرَ مَا يَسْتَحْقُ سَقْطَ نَقْدِهِ مِنْ أَعْيْنِ السَّامِعِينَ.

ولو أراد الله أن تكون صلاة الجماعة في المسجد فرضاً على الرجال كفرضية الصلوات الخمس لأنزل فيها قرآنًا صريح اللفظ يُتلى، أو لما اختلف العلماء في ذلك، ولكن سعة الاختلاف أمرٌ يريده الله تعالى.

أحسن ما يعبر عنه في الإقرار والنقض هو الحجم الذي أراده الشارع الحكيم، فليس إنكار الموسيقى وإنكار الزنى، ومن سوء في اللفظ واللهجة عند الإنكار فقد خلط وأساء.

حدثني شيخنا السيد محمد علوى المالكى (ت: ١٤٢٥ هـ) رحمه الله، قال: كان فيما سبق يقال عند بعض مُنْكِرِي شدّ الرحال لزيارة النبي ﷺ: إِنَّ شَدَّ الرحال لزيارة غير مشروع، ثم خلف من بعدهم مَنْ يقول: إنه غير جائز، ولكننا فوجئنا بتأليف جديد ينصُّ في كتاب عَقَدِيٍّ على أن شدّ الرحال ينافي التَّوْحِيد، وأنه باب من أبواب الشرك الأكبر بالله تعالى.

قلت: ولا أنكر أن بعض الغلاة كان على عكس ذلك، فكان يقول في مسألة شد الرحال أشد الأقوال، ثم خففها وخففها، حتى وافق الجمهور.

وخلاصة رأي في التعامل مع الأحكام الشرعية: أن المبالغة القاتلة كالسرطان، هي تكبير للشيء الصغير، ولن تخلو في الدعوة من سوء الأدب مع المشرع الذي أعطى كل حكم حجمه اللائق به.

حوار مع سُنِّي متطرف

هكذا تكون سوق المزايدة، وأصدقكم الحديث، ولا أبالغ، وأنا قد وصلت في كتابة هذه القاعدة، تأثيري مراسلة من أحد السائلين، وهو سُنِّي تأثر بشيخ من خطباء حلب، يلعن بعض أصحاب النبي ﷺ، ويقول: لا يجتمع في قلبي حب عليٍّ ومعاوية، ويسألني الأخ: ما تقول في معاوية؟

قلت: صحابي بلا نزاع، من بني آدم الخطاين بلا نزاع، في إمارته ما له وعليه بلا نزاع.

قال: فهل تلعنه؟ قلت: أعود بالله أن ألعن أي ميت مات على لا إله إلا الله، مهما كان منه من خطأ وزلل، فكيف ألعن من ثبتت صحته؟ وهب أن أباك كانت له كبار وأخطاء جسام، فهل هذا مسوغ لأحد أن يلعنه؟

قال: فهل تقول: إنه كاتب الوحي؟ وحال المؤمنين؟

قلت: أما كتابة الوحي، فلم تثبت، وقد تأخر إسلامه إلى فتح مكة، فهو من الطلقاء، ولم ينزل من الوحي بعدها إلا القليل، وهب أنه نزل الكثير، وهب أنه كتب، فالكتابة بحد ذاتها دليل على أمانة الكاتب زمان الكتابة بلا

شك، ولكن الكاتب للوحي كمضمر العلماء اليوم، قد يصور أكابر العلماء ثم يرتدُّ على العالم ذاته.

ثم اعلم أن عبد الله بن أبي السرح كتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدَ عن الإسلام، ثم رجع إلى الإسلام أخرى، وحُسنت توبته، والذي يهمُك هنا أنه لم تنفعه كتابته الوحي في ردته شيئاً، والمعول عليه: هل استطاع أن يخون ابن أبي السرح في كتابة الوحي شيئاً؟ المهم أن يكتب الوحي بحروف صدق كما أملها النبي ﷺ، ثم إن ارتداده عليه، ولن يؤثر على الإسلام شيئاً.

وأما نعته «حال المؤمنين»، فليس لها أيُّ مستند شرعِي، ولا قوَّة دليل، ولا أعرف أحداً لقبَ النبي ﷺ: «أبا المؤمنين» لأنَّه زوج أمهات المؤمنين، وهو لنا روحي فداء بمنزلة الوالد بلا شك^(١)، وأولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولكن هل يجوز التبرُّع وإطلاق الألقاب من أنفسنا عليه، فنقول: «أبو المؤمنين»؟

يا صديقي: أم المؤمنين لقب خاص بمن تزوجها سيدِي رسول الله ﷺ، فيجب على كل مسلم أن يعظم أمهات المؤمنين، وأي امرأة كانت عند الحبيب ﷺ فلا يجوز التزوج بها عقب وفاته ﷺ، وتعامل معاملة الأم، ولا يرى وجهها، تكريماً وحفظاً لعرض المصطفى ﷺ، أمّا أختها فليست حالة المؤمنين، وأما أخوها فليس حال المؤمنين، وكذلك أبوها ليس جدَّ المؤمنين.

هل سمعت أحداً قال عن حبي بن أخطب: هو جد المؤمنين؟ لم تُقل هذه

(١) فقد جاء وصف هذه المنزلة على لسانه الشَّرِيف ﷺ في قوله: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ». أخرجه أبو داود برقم: ٨.

- حسب علمي - عن الصديق الأكبر رضي الله عنه، ولا عن فاروق الإسلام رضي الله عنه، وكلاهما آباء زوجات الحبيب المصطفى المعصوم ﷺ.

ولكن لواء الرد على الرافضة يجعل المسلم السني يتكلم بمثل هذه المزایادات.

ولقد تكرر معي مرات: أن يسألني أنس عن اسم مركز من المراكز، فلما أخبرت السائل أنه باسم الزهراء رضي الله عنها، أصبح وجده مسوداً وهو كظيم، وقال: ألا يوجد غير هذا الاسم الذي يدل على الرافضة؟

سبحان الله، أمير البوذى ببر الوالدين يجعلني أنفراً من برهما؟ أم أنا صاحب منهج لا يهمني من تقاطع معه في منهجه، فهبه أن شيعياً التقى معه في طرق المستقيم في حب آل البيت، أأحرف عن حبهم من أجل مخالفته؟ وماذا عن بعض الفرق التي تعظم رسول الله ﷺ؟ ألا أبقى على حبي وتعظيمى لحبيبي ﷺ بغض النظر عنهم؟

إن صاحب المنهج لا يغير طريقه، ولا يحرف مساره، ولو تقاطع معه كل شاذ في الدنيا، لأن طريقه المستقيم إنما هو عن مبدأ، وليس عن انفعالات، ولا ردّة فعل عن سلوك غيره.

أهو سوق مزاد!

عبرت عنها قبل قليل بقولي: «سوق مزاد» فهل هو كذلك؟ أو شرع يتبع؟ تميل نفوس الناس نحو المبالغة، ولكنها في الجماعات ذات تأثير في إثبات الولاء والبراء للجماعة، فتتبع من قال بمنع شد الرحال إلى زيارة النبي ﷺ،

فتراه - وهو ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله - يذكر الرأيين للأئمة ويرجح الذي يراه مناسباً، ومن يطرح المسألة بهذا الإنصاف فهو محل احترام إذا وافق أو خالف.

ثم خلف منْ بَعْدِه خَلْفٌ ذَكَرُوا رَأْيَ الْمَنْعِ الَّذِي رَجَحَهُ ابْنُ تِيمِيَّةَ، وسَفَهُوا الرَّأْيَ الْمُخَالِفَ، ثُمَّ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ فَصَارَ حَكْمُ شَدِ الرَّحَالِ حَرَاماً، ثُمَّ دَخَلَ فِي كِتَابِ الْعَقَائِدِ، وَشَعَّ بَعْضُهُمْ عَلَى ابْنِ تِيمِيَّةَ رَحْمَهُ اللَّهُ، وَوَصَفَهُ أَنَّهُ مِنْ مَيْعَ الْمَسْأَلَةِ، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ صَارِمًا فِي طَرْحِهَا.

لعل من المزايدة الخاسرة أن يزحف الحكم من كتب الأخلاق إلى الفقه، إلى فروع العقائد، ثم ما يلبث أن يستلم منصب الصدارة في العقائد.

وعلى صعيد الفئة المقابلة، فقد دخلتُ البيت مرة - أثناء سكني مع الطلاب وقت الدراسة - وإذا بصديقٍ قد ارتفعت أصواتهما، فصاح أحدهما أترضى بفلان - وسماني - حَكَمًا بيّني وبيّنك؟
الثاني: أجل والله.

الأول: أنا أقول يا الله، ولن أطلب من غيره.

الثاني: وأنا أقول يا سيدي محبي الدين بن عربي (ت: ٥٥٨ هـ) أغثني، ولن أطلب من غيره. وقال قولاً شنيعاً، لسانى عاجز عن قوله.

التفتُّ إلى الثاني وقلت له: على رأي من يرى الاستغاثة، وأنها مجاز، فإنهم لا يحُوزون الاعتقاد بغير الله تعالى، ويَعْدُونَه شِرِّقاً أكبر، والله لا يرضي عنّ يطلبُ من غيره بهذه الصراحة والبَجَاحة الواضحة.

أتصرّح بصريح العبارة أنك لا تريد الله؟ هو يقول: لن أسأل غير الله، وأنت تقول: لن أسأل الله تعالى؟ ما أظن أحداً يفت Vick بجواز هذا في شريعة الإسلام أبداً.

لا للمزايدة يا أحباب، لا لقلب الحقائق يا كرام، أحب الصحابة رضي الله عنهم نعم، ولكن أحد الشيوخ قال لي: إن ما حصل مع الصحابة من مسائل الغلول والرني وشرب الخمر والنداء من وراء الحجرات والإغلاظ على الحبيب ﷺ بالقول، كله لم يحصل منهم حقيقة، ولكن الله تعالى أجراء عليهم كي يتم التشريع.

أيكون هذا من عدل الله تعالى أن يجري أمراً على صحابي جبراً، ثم يرجم حتى الموت من أجل التشريع؟ إنها ردّة الفعل عن وقاحة بعض الفرق الضالة، وإنها لمزايدة.



تقديم الدعوة





ابدأ بواجب الوقت في الدعوة

لا يكاد ينقضي عجي من دعوتين دُعيَ إليهما رسول الله ﷺ، وفي كل منها طعام وصلاة، لكن في الأولى: أتى من أجل الصلاة، فلم يجلس، ولم يأكل، حتى أنجز المهمة التي أتى من أجلها^(١)، والثانية: دُعي إلى طعام أصلًا، وأراد أن يصلِّي بهم، فأنجز المهمة التي أتى من أجلها أولاً، ثم صلَّى، مع عزم

(١) عن عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ شَهِيدَ بَدْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي، وَأَنَا أَصْلَى لِقَوْمِي، وَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي يَبِيِّنُ وَبَيِّنُهُمْ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ، فَأَصْلَى لَهُمْ وَدَدْتُ أَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْتِيَ فَتُصْلِي فِي مُصَلٍّ، فَأَتَخْدِهُ مُصَلًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعُلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ عَتْبَانُ: فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقِ، حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَأَمْ يَجْلِسُ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أَصْلِي مِنْ بَيْتِكَ؟» قَالَ: فَأَشَرْتُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَرَ، فَقُمْنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرٍ صَنَعَنَا لَهُ، قَالَ: فَثَابَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ حَوْلَنَا، حَتَّى اجْتَمَعَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ ذُوو عَدَدٍ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُنْ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ، لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقْلِلُ لَهُ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ؟» قَالَ: قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّمَا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ لِلْمُنَافِقِينَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَمَ عَلَى الظَّالِمِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». أخرجه البخاري برقم: ٨٤٠، ومسلم برقم: ٦٦٠، والأحاديث كثيرة في هذا الباب، منها ما حکاه سیدنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنِّي لَا أُسْتَطِعُ الصَّلَاةَ مَعَكَ وَكَانَ رَجُلًا ضَحْمًا، فَصَنَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا فَدَعَاهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَبَسَطَ لَهُ حَصِيرًا وَنَصَحَ طَرَفَ الْحَصِيرِ صَلَّى عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أخرجه البخاري برقم: ٦٧٠.

أهمية الصلاة^(١).

خلاصة الأمر: أنْجِزْ واجب الوقت، ولا تُقدّم عليه أَيَّ مِنْهُ، وبعد إنجاز الأَهم لِكَ أَنْ تُرْتَبَ الأولويات كَما ترى.

أدار الوقت فأفلح، وأهدره أنس فخابوا

خطابي هذا للدعاة وليس لغيرهم.

تسأل طالب العلم: لمَ لمْ تُكْمِل دراستك؟ فيجيبك: لا وقت لدِي، وتسأل ثانياً: لم لا تبذل من علمك شيئاً لمن يسمع منك؟ أجابك: وأين الوقت؟ جُلُ الدعاة يُشْكُون من قِلَّة الوقت، وبرأيي هم على صنفين:

الصَّنْفُ الْأُولُ: من ازدحم الوقت عنده كثيراً، فهو من يقاتل على جبهات كثيرة، أو تفرغ لجبهة واحدة، كأن يكون مؤلِّفاً متفرغاً لمهنته، أو مربياً وقف عمره على ذلك، أو شبيهه.

الصَّنْفُ الْآخِرُ: خَلَطَ أوراق الوقت، وتعَرَّ في ترتيب أولوياته، ولم يجعل المهام رُتبَا، فهو غير مُكْتَرِث بالدعوة، ولم يجعلها أولوية عظمى في حياته.

تصدقون أني لم أُعثر على حديث واحد اعتذر النبي من أحد

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ جَدَّهُ مُلِيقَةَ دَعَتْ رَسُولُ اللَّهِ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ لَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «فُوْمُوا فَلَأُصْلِلَ لَكُمْ». قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَ مِنْ طُولِ مَا لِيْسَ فَنَضَحْتُ بِمَاءِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَقَقْتُ وَالْيَتَمَ وَرَاءَهُ وَالْعَجُورُ مِنْ وَرَائِهِ، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ. أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمٍ: ٣٨٠، وَمُسْلِمٌ بِرَقْمٍ:

لضيق الوقت^(١)؟

فإنك تجد أنَّ لدى النبي ﷺ وقتًا ليتسابق مع أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٢). ولديه وقت ليس معه حديثها، وهي تنقل أخبار إحدى عشرة امرأة من نساء الجاهلية^(٣).

(١) وقد يعتذر لآمور أخرى، وموازنات يراها، أو تأجيلاً قليلاً، كما جاء في حديث أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلْتُ ابْنَةَ النَّبِيِّ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنَاهُ لِي قِبْصٌ، فَأَتَنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ عِنْدَهُ يَأْجِلُ مُسَمًّى، فَلَتُضِيرُنِّ وَلَتُخْتَسِبُ، فَأَرْسَلَتُ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيْتَ اتَّيَّثَهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَادُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبْيَنْ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابَةَ وَرِجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ الصَّلَوةُ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّدُ، قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَانَهَا شَنْ، فَفَضَّلَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةُ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحْمَاءُ. أخرجه البخاري برقم:

١٦٨٤

(٢) عن عائشة أَنَّهَا قَالَتْ: حَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا»، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَى حَقِّي أَسَابِيقَكِ». فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَيْنِي، حَقِّي إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدَنْتُ وَنَسِيْتُ، حَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَى حَقِّي أَسَابِيقَكِ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بِيلُكُ». أخرجه أحمد في مسنده برقم: ٢٦٧٧، وأبو دارد برقم: ٥٧٨، وقال محقق المسندي: «إسناده جيد».

(٣) عن عائشة، قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشَرَةَ امْرَأَةً فَتَعَااهَدْنَ وَتَعَاقدْنَ أَنْ لَا يَكُنْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتِ الْأُولَى: رَوْجِي لَحْمُ جَمِيلٍ غَتَّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لَا سَهْلٌ فَيُرِتَّقِي وَلَا سَمِينٌ فَيُنَتَّقِلُ، قَالَتِ الثَّانِيَةُ: رَوْجِي لَا أَبْتُ حَبَرَّ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْرُ، إِنْ أَذْرُهُ أَذْكُرُ عَجَرَّةً وَبُجَرَّةً، قَالَتِ التَّالِيَةُ: رَوْجِي الْعَشَنَقَ، إِنْ أَنْطَقْ أَطْلَقَ، وَإِنْ أَسْكَنْ أَعْلَقَ، قَالَتِ الرَّابِعَةُ: رَوْجِي كَلْيَلْ تَهَامَةَ، لَا حَرُّ وَلَا قُرُّ، وَلَا مَحَافَةَ وَلَا سَامَةَ، قَالَتِ الْخَامِسَةُ: رَوْجِي إِنْ دَخَلَ -

ولديه وقت أن يلبي دعوة من دعا له الطعام^(١).

فَهَدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسْدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهَدَ، قَالَتِ السَّادِسَةُ: رَوْحِي إِنْ أَكَلَ لَفَ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَ، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَ لِيَعْلَمُ الْبَثَّ، قَالَتِ السَّابِعَةُ: رَوْحِي عَيَّاِيَاءُ، - أَوْ عَيَّاِيَاءُ - طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَكٌ أَوْ فَلَكٌ أَوْ جَمَعٌ كُلُّا لَكِ، قَالَتِ الثَّامِنَةُ: رَوْحِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْسَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ رَزَبٍ، قَالَتِ التَّاسِعَةُ: رَوْحِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ التَّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ، قَالَتِ الْعَاشرَةُ: رَوْحِي مَالِكُ، مَالِكُ حَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبْلٌ كَبِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْجَزْهَرِ أَيْقَنَ أَهْنَ هَوَالُكُ، قَالَتِ الْحَادِيَةُ عَشْرَةً: رَوْحِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ! أَنَّاسٌ مِنْ حُلِيٍّ أُدْيَ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَصْدَيَ، وَجَجَحَنِي فَبَحِثْتُ إِلَيْ نَفْسِي، وَجَدْنِي فِي أَهْلِ عُنْيَمَةٍ بِشَقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهْبٍ وَأَطْبِطِ، وَدَائِسٍ وَمُؤْنَ، فَعِنْدَهُ أَتَوْلُ فَلَا أَقْبَعُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصْبَحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقْتَحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَعَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ! عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، أَبْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أَبْنُ أَبِي زَرْعٍ! مَضْجَعُهُ كَمَسَّلٌ شَطْبَةٌ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ! طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَجَلْءُ كَسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارِتَهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ! لَا تَبْثُثْ حَدِيثَنَا تَبْثِيشًا، وَلَا تُتَقْتَ مِيرَتَنَا تَنْقِيشًا، وَلَا تَمْلَأْ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا، قَالَتْ: حَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُمْحَضُ، فَلَقِي امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ حَصْرِهَا بِرْمَانَتَيْنِ، فَظَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيَّاً، رَكَبَ شَرِيَّاً، وَأَخْدَ حَطَّيَّا، وَأَرَاجَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيَّاً، وَأَعْظَانِي مِنْ كُلِّ رَاجِحَةٍ رَوْجَا، وَقَالَ: كُلِّي أُمَّ زَرْعٍ وَمَبِرِي أَهْلَكُ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمِعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَمْ أَصْغَرَ آنِيَةً أَبِي زَرْعٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْتُ لَكِ كَأَيِّ زَرْعٍ لَأَمِّ زَرْعٍ». أخرجه البخاري برقم: ٥١٨٩، ومسلم برقم: ٤٤٩.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْظَلْقَنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعَمَهُ، وَعَسَلَ يَدَهُ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَلَا يُطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا، فَهَدَانَا، وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٌ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الصَّلَالَةِ، وَبَصَرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقٍ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

أخرجه ابن حبان برقم: ٥٦١٩، وقال محققه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

ولديه وقت ليسمع مشكلات العباد^(١).

ولديه سعة ليفتي كل ما يأتيه من فتاوى^(٢).

ولديه بحبوحة ليحل خصام زوجاته، ويرضي الساخطة منها، ويمسح دموعها بيده الشريفة^(٣).

(١) وهذا أكثر من أن يمحى، منها ما جاء عن عبد الله بن الربيز رضي الله عنهما، أنه حدثه، أن رجلاً من الأنصار خاصم الربيز عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسكنون بها التخل، فقال الأنصاري: سرخ الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للربيز: أسي يا ربيز، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك، فتلعون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: أسي يا ربيز، ثم أخيس الماء حتى يرجع إلى الجذر، فقال الربيز: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: «فَلَا وَرِثَكَ لَا يُؤْمِنُكَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» [النساء: ٦٥]. أخرجه البخاري برقم: ٩٣٦٠، ومسلم برقم:

.٤٣٥٨

(٢) وهذا أكثر من أن يمحى، منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أتى نذرت أن تتحجج فلم تحجج حتى ماتت، أفاحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمتك ذين أكنت قاضيئاً، أقضوا الله، فالله أحلى بالوفاء».

آخرجه البخاري برقم: ١٨٥٦، ومسلم برقم: ١١٥٠.

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كاتب صفيه مع رسول الله ﷺ في سفر، و كان ذلك يومها، فابتلاه في الميسير، فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي وتقول: حملتني على بعير بطيء، فجاء رسول الله ﷺ يمسح بيدها عينيها ويسكتها، فأبى إلا بركاء، فغضب رسول الله ﷺ وتركتها، فقامت فأتت عائشة، فقالت: يرمي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيته عي، فعمدلت عائشة إلى حمارها، وكانت صبغته بورق ورعنان، فنضحته بشيء من ماء، ثم جاءت حتى قعدت عند رأس رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: «مالك»؟، فقالت: ذلك فضل الله يؤتى به من يشاء، فعرف رسول الله ﷺ الحديث، فرضي عن صفيه، وأنظر إلى

ولديه سَعَةٌ ليدخل في مُسْكِلة سمع بها، ولم تُرْفَعْ له أصلًا^(١).

واسمع هذا الحديث، لأعلق عليه بعده إن شاء الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقْعُمُ الْمَسْجِدَ^(٢)، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَتْ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْתُمْ آذَنْتُمُونِي». قَالَ: فَكَانُوكُنْتُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا فَدَلُوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَورُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»^(٣).

والسؤال لكل من يعاني ضيق الوقت، أياضيقي عليك الزمن ويتسع

= إلى زينب، فقال لها: «إِنَّ صَفِيفَةَ قَدْ أَعْيَا بِهَا بَعِيرُهَا، فَمَا عَلَيْكِ أَنْ تُعْطِيهَا بَعِيرِكَ»، قالت زينب: أَتَعْمَدُ إِلَى بَعِيرِي، فَتُعْطِيهَا الْيُهُودِيَّةُ فَهَا جَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةً أَشْهُرٍ، فَلَمْ يَقْرُبْ بَيْتَهَا، وَعَطَلَتْ زَيْنَبُ نَفْسَهَا، وَعَطَلَتْ بَيْتَهَا، وَعَمَدَتْ إِلَى السَّرِيرِ، فَأَسْنَدَتْهُ إِلَى مُؤَخِّرِ الْبَيْتِ، وَأَيْسَتْ أَنْ يَأْتِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَأْتِيَاهَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذَا بِوْجِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَوَضَعَ السَّرِيرَ مَوْضِعَهُ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَارِيَتِي فُلَانَةً فَدْ ظَهَرَتْ مِنْ حِصْنِهَا الْيَوْمَ، هِيَ لَكَ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَضَيَ عَنْهَا. أخرجه النسائي في «ال السنن الكبرى» برقم: ٩٣١٤، وإسناده صحيح.

(١) عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدَ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، فَتَادَى يَا كَعْبُ، قَالَ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا وَأَوْمَأْ إِلَيْهِ أَبِي الشَّهْرَ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُمْ فَاقْضِهِ». أخرجه البخاري برقم:

.١٥٥٩، ومسلم برقم: ٥٤٧

(٢) يعني: تنظف منه القمامه.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ١٣٣٧، ومسلم برقم: ٩٥٩، وهذا لفظه.

رسول الله ﷺ ليتفقد حال امرأة خادمة، أو عبد ينظف المسجد؟

وفي بعض ألفاظ الحديث من طريق ابن عباس: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَرَّ بِقَبْرٍ قَدْ دُفِنَ لَيْلًا، فَقَالَ: «مَتَى دُفِنَ هَذَا؟»؟ قَالُوا: الْبَارِحَةَ، قَالَ: «أَفَلَا آذَنْتُمُونِي؟»؟ قَالُوا: دَفَنَاهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ، فَقَامَ فَصَفَقْنَا خَلْفَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنَا فِيهِمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ^(١).

ولَدَيَّ الآن وَقَفَاتِ:

١- هل أَعْبَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُسْمِحُ لَهُ أَنْ يَتَابُعَ صَغَائِرَ الْأَمْرَ، كَشَانُ هَذَا الْخَادِمُ أَوِ الْخَادِمَةُ؟

٢- فَهُمْنَا أَنَّهُ تَابَعَ أَمْرَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَاتَ، فَالْمُتَوَقَّعُ أَنَّهُ اكْتَفَى بِالتَّرْحُمِ عَلَيْهِ.

٣- هل الْأَمْرُ يُسْتَحْقِقُ أَنْ يَذَهِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَتَرَكَ أَعْمَالَهُ وَمَهَامَهُ الْعُلِيَا مِنْ أَجْلِ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ دُفِنَ وَانْتَهَى الْأَمْرُ؟

٤- لو كَانَ الْمَيْتُ أَوِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذُوِّ الْوِجَاهَةِ، أَوِ النَّسْبُ لِعَرْفِ السَّبِّ أَنَّهُ تَأْلِيفُ لِقَلْبِ الْقَبِيلَةِ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُمَّةُ سُودَاءَ، مَمْلُوكَةُ فِي مَكَّةَ، وَلَا أَهْلَهَا وَلَا عِشِيرَةَ، إِنَّمَا طَلَبَتْ عَتْقَهَا لِتَعْفُوَ عَنْهُمْ عَمَّا اتَّهَمُوهَا بِهِ مِنْ زُورٍ فِي حَادِثَةِ

الْجَوَابِ: أَنَّهُ ﷺ أَدَارَ الْوَقْتَ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ فِي الْسَّعَةِ، أَمَّا نَحْنُ فَالكَثِيرُ مِنَّا قَدْ أَهْدَرَهُ، أَوْ لَمْ يَرْتَبْ أُولَوِيَّاتَ الْوَقْتِ كَمَا يَنْبَغِي.

وَلَعِلَّ أَفْضَلَ كِتَابٍ يَفْصِلُ الْبَرْنَامِجَ الْيَوْمِيِّ عِنْدَ الْحَبِيبِ ﷺ كِتَابٌ: «الْيَوْمَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمٍ ١٦٥٨.

النبوى» لفضيلة الدكتور عبد الوهاب الطريري حفظه الله، وفي الكتاب بيان شاف معرفة:

- الوقت الذي كان يجلس فيه المصطفى ﷺ في المسجد لاستقبال أي أحد من غير ميعاد^(١).

- والوقت المخصص لسامرة جميع الزوجات، وهو بعد العصر، حيث يطوف على نسائه جمِيعاً، فيدنو من كل امرأة منهم في مجلسه، فُيَقَبِّلُ ويَمَسُّ ما دون الواقع، حتى ينتهي إلى التي هو يومها، فيبيتُ عندها، وأما إن كان أيام قصر النهار، فإنهن يجتمعن في بيت التي هو يومها، لأن الوقت لا يتسع للطواف على كل واحدة في بيتها^(٢).

- والوقت المحدَّد للتهجد بين يدي الله تعالى^(٣).

- والمحدَّد لمؤانسة الصحب في المسجد النبوى، وقد يزيد فيه كلام الصحابة رضوان الله عنهم على كلام الحبيب ﷺ^(٤)، وهكذا لسائر اليوم النبوى.

بين ساذج العقل وشيطان الفكر

- وما أكثر الناس ولو حرصت بمئتين، بل تميل الكفة لدى الإنسان حتى يجنح يمنة أو يسرة، فمنهم الذي يصدق كرامات مكذوبة، ويسلم

(١) «اليوم النبوى» ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) «اليوم النبوى» ص ٧٠.

(٣) «اليوم النبوى» ص ٨٩.

(٤) «اليوم النبوى» ص ٦١ وما بعدها.

لِخُرْعَبَلَاتِ لَا تَدْخُلُ فِي عَقْلِ مَجْنُونٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْبِسُ الْمَغَبَّاتِ عَلَى عَقْلِهِ،
وَيَجْعَلُ عَقْلَهُ الْحَكْمَ عَلَى مَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ.

- عَقْلٌ وَإِيمَانٌ مَعَ غَيْبٍ: إِعْمَالٌ نَقْدِ الْعَقْلِ فِي أَمْرَّ الْمَغَبَّاتِ التَّابِتَةِ قَدْ
يُوْدِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الْكُفَّرِ، كَمَا أَنْ إِهْمَالُ الْعَقْلِ بِالْكُلِّيَّةِ لَا يَعْطِي إِيمَانَ
الرَّاسِخِ.

- يَكْثُرُ فِي زَمَانِنَا نُوْعَانُ مِنَ النَّاسِ: مِنْهُمْ مَنْ يَصِدُّقُ كُلَّ أَكْنَوْبَيَّةِ الْأَصِيقَتِ
بِالْبَيِّنِ ﷺ، بِدُعَوَى الْمَحْبَةِ لَهُ، وَالْمَدْحُ لَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْمِلُ النَّقْدَ فِي أَحَادِيثِ
الْفَضَّالَاتِ كَأَنَّهَا وَارِدَةٌ فِي أَصْوَلِ الْعِقِيدَةِ.

- مِنَ التَّوَازِنِ الْخَطَابِيِّ أَلَا يَرْكَزُ الدَّاعِيُّ أَحَادِيْثَهُ دَائِمًا بِصُورَةِ رَفِيعَةِ تَلْيِقِ
بِخَطَابِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا بِصُورَةِ يَسِيرَةِ تَلْيِقِ الْعَامَةِ، وَلَا يَرْكَزُ عَلَى الْمَوَاعِظِ، وَلَا
يُدْمِنُ طَرْحَ الْمَنَاقِشِ الْعُقْلِيَّةِ، بَلْ يَكُونُ لَدِيهِ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ فَنٍ
رَجَالٌ، وَعِنْدَ الْكَلَامِ أَمَامُ الْجَمَهُورِ الْمُتَنَوِّعِ فَإِنَّهُ يُنَوِّعُ فِي الْحَدِيثِ، وَيُغَيِّرُ فِي
الْأَسَالِبِ.

لَا تَمْرُقْ تَنْمَة دَفْتَرَك

كَثِيرٌ مِنَ الدُّعَاءِ يَخْتَمُ عَلَى أَفْكَارِ النَّاسِ فِي خَطَابِهِ، فَيُوْهِمُهُمْ أَنْ فَلَانًا مِنَ
الدُّعَاءِ لَمْ تَلِدْ أُنْثِي مِثْلَهُ، وَفَلَانًا لَمْ يَأْتِ الزَّمَانُ بِشَبِهِ، وَفَلَانًا خَاتَمَ الْحَفَاظَ،
أَوْ خَاتَمَ الْفَقَهَاءِ، وَأَشَبَّهُهَا بِمَنْ آتَاهُ اللَّهُ دَفْتَرًا يَكْتُبُ فِيهِ، فَكَتَبَ فِيهِ مَا
شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَبَقِيتُ صَفَحَاتٌ بِيُضْ نَقِيَّةٌ، فَمَرَّقَهَا جَمِيعَهَا، وَاكْتَفَى بِمَا
كَتَبَ، وَخَتَمَ الدَّفْتَرَ وَأَقَامَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ وَآرَاءٍ صَبَاحَ مَسَاءً، وَالْحَقُّ أَنْ
يَتَرَكَ الصَّفَحَاتُ الْجَدِيدَةُ لِيَكْتُبَ فِيهَا الْحَدِيثُ، وَيَبْقَى دَائِمًا عَلَى تَجْدِيدِ
الْمَعْرِفَةِ، وَهَذَا الْخَتَمُ يَأْتِي عَلَى صُورَ:

الغض الخيم من صورة المحبوب: الناس تتفاوت في الاتزان، وعندما تجد من يمدح معلمه فهي حالة جيدة رائدة، فإذا ما بالغ في تكبير صورة الشيخ مثلاً فاعلم أن نقصاً ما قد وقع، فإما أن يكون من تصوير التلميذ، أو محاولة ترقيع صورة الشيخ غير السوية، فلا بأس أن تَمْدَح، ولكن اترك القفل مفتوحاً، وقل إن الذي أمدحه هو أحدبني آدم، «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ**»^(١).

إن إغلاق القفل ليجعل السامع - بشعر أو عدمه - يبحث عن أخطاء مَنْ بالغت في مدحه، لأنك سَوَقْتَ المدح وَصَدَرْتَهُ، وصادرتَ - ولو بطريقة خفية - وجود الرَّلل والخطأ.

النقد اللاذع للشخص: ويُنْجِكُم بعض الناس إغلاق القفل على أفكار خصومهم، فيصورها على أنها لا تحتمل الصواب ولا بأي حال، فهي كُثُلَةٌ من الخطأ والخطلل، وهذا ما يفتح للناس أفق البحث عن محاسن ذاك المذموم.

الانبهار بالجديد: جاءت قبل سنوات مسألة الرسوم المسيئة لحضرت مولانا رسول الله ﷺ، وتحرك العالم للدفاع عن الذي لا ينطق عن الهوى، وصار كُلُّ يتقدمُ المعركة بصلاحه الذي يحسن، وقدرته على التحرك، فمن كاتب جاهد بقلمه، ومن شاعر نافح بنظمه، ومن خطيب هز القلوب بمحكمه، بل تأسست هيئات كبرى للتعریف بهذا النبي العظيم ﷺ، والدفاع الكريم عنه.

(١) أخرجه الترمذى برقم: ٤٩٩.

ولكها خطئ صالحة، وأعمال مبرورة، وكان أحد المشاركين فناناً قضى عمره في التمثيل، والله يغفر له ما كدر، ويقبل منه ما صفا، فأخرج أنسودة شعبيّة جيّلة، وكانت محاولةً موقفةً، و موقفاً نبيلأ، ولها رسالتها ذات البصمة، إذ أرسلت للعالم المهدّم رسالة: أن الدين كنتم تعولون عليهم من فنانين وممثّلين قد جاروا مشاريعكم في لحظة ضعف منهم، ولكن التعرّض لمقام رسول الله ﷺ قد هرّ الإيمان في قلوبهم هرّا، وحرك الإيمان الراسي حتى طفا. موضوعي بالذات عند أحد العلماء الدعاة، حيث طار صوابه بهذه الأنسودة اليتيمة، حتى شطّت عبارته فقال: لم يُدافع عن الرسول ﷺ أحد دفاع هذا المثل بهذه الأنسودة القصيرة.

مهلاً عزيزي: سأشكر هذا الفنان على هذه اللبنة، ولكن لم مزقتَ أعمالاً أسطرين العلم كلها بشطّر حديث وشطّر كلمة، ونسفتَ جهود الكلّ بجملةٍ من طرف لسانك.

فما أحيل تحسين الحسن وتنميته، وتقبیح القبیح وتوھیته! ولكن من التعدّي على حقوق الناس أن تنسف أعمالهم لإعجابك بشخص ما.

الإساءة للثاني إكرااماً للأول: كان أحد المتكلمين يعظ الناس، فأراد أن يعظ قدر رسول الله ﷺ، فتعرّض لسيدهنا جبريل عليه الصلاة والسلام، ثم قال: منْ جبريل؟ ليس جبريل إلا خادماً عند رسول الله ﷺ، - وكانت نبرة التحقير والوضع - وأضاف كلاماً آخر.

قلت لصديقي الذي أسمعني هذا الكلام: ما الذي يريد هذا المتكلم تماماً؟ أ يريد مدح رسول الله ﷺ، أم ذمّ سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام؟

لأن مدح الحبيب ﷺ يقتضي أن تعظّم الشرع كما أراد الله تعالى، لا كما ثُمِّلَ عليك عاطفتك، فالله هو الذي اختار جبريل ليكون رسولًا عنه إلى الحبيب ﷺ، فلم الإساءة للأخر بدعوى إكرام الأول؟

التوبة لمن سقط في الذنب، لا لمن يخطط له

قد أتَهُم بالخُذْلَقَةِ إن قرأ كثير من الناس هذا العنوان، ولم يُتمُّوا سماع وجهتي، وهذا هي ذي:

طالما حججنا، ونريد الذهاب إلى الرمي بمفيه، فينبّري أحد الحجاج الأصحاء الأقوياء قائلاً: إنني لن أذهب، وسأذبح هديّاً، فإن لدى القدرة المالية على ذلك!

وكأنَّ المسألة مرتبطة بالقدرة الماليَّة فحسب!

وهل يُشرِّع لل المسلم أن يترك التشهد الأول عمداً بدعوى أنه يعوضه بسجود السهو؟ وما سُمي بسجود السهو إلا لأنَّه سهو وليس بعمد، وهل يحق لأحد أن يتلف مال آخر، بدعوى أنه يعوضه ويدفع الشمن؟

قدِّمَ مُهَدِّمًّ - يغلب على الظن أنه عميل هدم الدين من الدَّاخِل - إلى إحدى البلاد العربية، ونشر فيها الدعاية مُلْفَعَةً بثوب الإسلام، فأصبح يفتي الشابَ والفتاة أن الزنا حرام وكبيرة، أما ما دون ذلك فهو حرام صغار، فلئن قبلَ الشابُ أو زاد ما لم يصل إلى إيلاج الميل في المُكْحَلَةِ فإن الأمر يُغفر سريعاً، باستغفار، أو وضوء، أو صلاة، أو نحوها، ويسرد لهم حديث ابن مسعود رضيَ اللهُ عنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَهُ، فَأَنَّى لِلنَّبِيِّ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ الْيَتِيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ الْسَّيِّئَاتِ﴾
فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي لَكُمْ»^(١).

وهذا حديث صحيح، وهو قول حقٌّ، ولكن ألا تفرق معى بين الصحابي الذي تورط وقع في الذنب، وبين من يُفْقِي الشابَ والفتاة ليقعوا في الذنب!

وقد شبَّهَتْ هذا الموقف بِمُرَاهِيقِ مَرَّ بِائِعِ لُصَاقَاتِ الْجَرْوَحِ، وَاشترى عدداً منها، وجعل يبحِرُّ نفسه، ثم ينشفُ الدَّم لِيُضَعُ اللُّصَاقَةُ مَكَانُ الْجَرْحِ، أَعْقَلُ رشيدُ هَذَا؟ أَمْ إِنَّ الْغَشَاؤَةَ رَانَتْ عَلَى قَلْبِهِ؟ وَلَوْ سُأَلَ طَفْلًا صَغِيرًا لاستنكر عليه، وقال له: ما اخْتَرِعْتُ اللُّصَاقَاتُ الطَّبِيَّةُ إِلَّا لِمَنْ أَصَابَهُ الْجَرْحُ، ووَقَعَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ.

وبمثل هذا التهُور حاُلُّ الذي يستعمل الطلاق ليهذَّدَ، ويرجعَ زوجه بعد كسرها.

لَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَمْ يُشْرَعْ الطَّلاقُ وَلَا الرَّجْعَةُ مِنْ أَجْلِ التَّهْدِيدِ وَاللَّعْبِ
بِأَعْصَابِ الْمَرْأَةِ، إِنَّمَا هُوَ رَحْمَةٌ لِمَنْ قَرَرَ الفِرَاقَ بَعْدَ تَأْنِ، ثُمَّ رَأَى الرَّجْعَةَ بَعْدَ
تَغْيِيرِ الْحَالِ وَدِرَاسَةِ الْأَمْرِ.

حدثهم بما يفيدهم اللحظة

في الناس من تحدَّث عن خلاف علي وعائشة وغيرهم من الأصحاب رضي الله عنهم وكان في المستمعين له من لا يصلِّي؟ ومنهم آكل الربا، والكثير منهم

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٦، ومسلم برقم: ٢٧٦٥.

ظالم للأسرة أو المرأة أو الولد أو الأخت في ميراثها.

ومن أهل الوعظ من أدمن الكلام عن الصلاة على النبي ﷺ وفي الناس من هو مرتكب للسبع الموبقات دفعة واحدة!.

وأعرف أحد المُختَلِّين في الدعوة كان يقيم في الخليج ثم استقر به المقام في بلده، وجعل يدرس العوام، ويعقد الندوات والدروس التي فيها الرد على المنهج السلفي، وما عنده حديث إلا أن يحدث العوام عن أخطاء السلفيين! وإنقاومهم أنهم علماء الإنجليز؟ وأنهم يبغضون الحبيب ﷺ، والحاضرون لدروسه لا يعلمون شيئاً عن السلفية ولا غيرها، منهم الغارق في الربا، ومنهم من هجر أباء وأمه، ومنهم آكل مال اليتيم، ومن لم يخطر بباله يوماً سؤال: هل التوحيد قسم أو ثلاثة أقسام، فعلام طرح الشبهة؟ ومن المستفيد من هذا الطرح؟ وإن أُسقط علماء السلفية من عين هذا الأميّ ففي رصيد من سيكون الربح؟ أو أتى الحرمين الشريفين وقلبه مُوغرّ على أئمته أيكون قد خدم دين الله تعالى؟

ما نظرة العائِي لإنسان يبغض رسول الله ﷺ، وما الألفاظ المنتقاة ما لو تحمس للدفاع عن المعصوم الشفيع ﷺ؟ مواقف قد تُضحك ولكنها تُبكِّي وتجري القلب، وشريكه في هذا الجنون منْ دیدُنَهُ أن ينتقي أخطاء الصوفية ليحدث بها عواماً لا يفいでهم إلا تعليم أصول الدين والحلال من الحرام:

لِمِثْلِ هَذَا يَمُوتُ الْقَلْبُ مِنْ كَمِدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

قال لي شاب متّحمس: أنا الآن في مشروع قراءة ألف جزء حديسي! قاطعته قائلاً:

- ولم حدّدت ألف جزء؟

- الشاب: فلان من العلماء ذكر في شروط الحافظ أن يكون قدقرأ
ألف جزء على العلماء.

- استفضت بالحديث عن بعض هذه المبالغات، وضربت أمثلة كثيرة،
كان أهمّها نصيحةً ملخصةً في أسطر قليلة:

منهجي في الدعوة أن أقرأ على الناس ما يفيدهم اللحظة، فأشرت إلى أكبر
الحاضرين في ذاك المجتمع سِنًا، وعُمره قد جاز السبعين، وأصغرهم سنًا
وعُمره أربع سنوات، وقلت له: ما رأيك أن أنتقي من « صحيح البخاري »
حديثاً يفيد كل الحاضرين من أكبرهم إلى أصغرهم، وأشرحه لأريك المثال
النافع، وأطرح عليهم حديثاً آخر من الكتاب نفسه، وأعدك ألا يستفيد من
الحاضرين إلا القليل، كالحديث عن المخابرة أو المزارعة أو مكتبة العبيد، أو
نحوها، وما أجملها وما أنفعها إن ذكرت لطالب علم، أيًّا كان الوقت أو السنُّ،
وما أبعدها إن جاءت إلى عاميٍّ ليس له في ذاك الفصل حَبَّةً خَرْدَلٍ!

طَرْحٌ يُكَفَّرُ، وَآخْرُ يُدَمِّرُ

ظهرت في العصر الحديث دراسات كثيرة جدًا تُسَهِّم في التَّفْكِير
الموضوعي، وهي بِمُجْمَلِهَا أمرٌ حَسَنٌ، يحسّن الأداء، ويقوّم الفكر، ويُسَهِّم في
الوصول إلى الحق^(١).

(١) من أهمها كتاب: « فصول في التفكير الموضوعي » لأستاذنا المفكر الدكتور عبد الكريم
بكاري يحفظه الله.

ومن أهم الأفكار التي يُرَكِّز عليها: التجدد عن القائل، ومناقشة الفكر، حتى إن بعضهم أرسل رسالة مفادها: أن امرأة تَبَنَّتْ كلام شخص مُفَكِّر ينقد التراث في مصر، فقامت عليها الدنيا ولم تقعده، ثم وقفت على الكلام نفسه لكاتب مشهور، نقل الكلام دون عزو لأحد، مع تغيير قليل فيه، فصاح الناس يهَلِّلون ويُكَبِّرون، يثنون على فِكْرِهِ، ويعظِّمون أمر عقله وتفكيره.

فطاش عقل المرأة وصرخت بأعلى صوتها: أتناقشون الأفكار أم الأشخاص؟

أولاً: لا شك أن بعض الناس يناقشون الأشخاص، فحيث عرفوا أن هذا الكلام لفلان أصبح كلاماً متَّنِداً حكيمًا رصيناً، ولكن الويل والثبور إن علموا أنه لفلان الآخر، فإن القيامة تقوم ولا تقعده، وهذا من قِلَّة الموضوعية لدى المتلقِّي.

ثانياً: سَأَسْلُطُ الضوء في هذه المرة على المُلْقِي، وليس على المتلقِّي، فما بال كثير من الناس يغفلون عن طريقة الإلقاء؟

لا أريد تعقيد الأمور، وسأكتفي بهذين المثالين، لتعرف أن طريقة طرح الفكرة لها أثر كبير في قبولها أو ردها:

الفكرة في بيان عدل الإسلام، وأن القتل والعبث بالأرواح هو من انحراف بعض المنتسبين لهذا الدين القويم.

الرجل الأول: لو قال لي محمد اذهب فاقتل أباك لقتلته هو، ولو قال لي: اكفر بموسى وعيسى لقلت له: أنت لستنبياً.

الثاني: والله إن رسولنا الكريم ﷺ قد حفظ دماء الناس الأبراء جميعاً، بل حفظ دماء الحيوانات من أن تهدر من غير فائدة، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عَصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا». قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا، وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهَا»^(١). ويل من يقتل الناس ولا يبالي بالدماء المحرمة، فقد ثبت عنه ﷺ قوله: «وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَشَّى مِنْ مُؤْمِنَهَا، وَلَا يَنْفِي لِدِي عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»^(٢).

وعندما أراد أن يتكلم الثاني في مسألة الإيمان بالأنبياء، فإنه قال: والله لا يصح الإيمان بالله حتى يؤمن الإنسان بكل أنبياء الله ورسله.

رأيتم الفروق الكبيرة بين الكلام الأول، الذي يتخيل مسألة منكرة، ويتخيل أن الأمر بهذا المنكر رسول الله ﷺ، ويذكر اسم النبي الكريم العظيم ﷺ بلفظ: «محمد» بدون تعظيم ولا صلاة عليه، إلى آخر ما في كلامه وطرحه من سوء أقوال وألفاظ وتعبير وخيال وقبح وكفر.

والله وبالله: يجب كسر قلم كل كاتب، والحجر على كل ناطق، يدعى أنه يريد الكلام عن خطورة الزنى، فيعبر بقوله: لو رأيتنبياً يزني لکفرت به.

وكيف مشت هذه المغالطة على عقله الضحل، أيجوز شرعاً أن يرتكب

(١) أخرجه النسائي برقم: ٤٣٥٩، وفي الحديث ضعف.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٨٤٨.

أيّ نبِيٌّ من أنبياء الله تعالى أيّ كبيرة؟ ثم تَفَكَّرْ بهذا السُّخْفِ: يضع نفسه موضع الإنسان الشَّرِيف العَافِ عن الزنا، ويفترض الكبيرة على نبِيٍّ من الأنبياء، ويخرج ب موقف البطولة والبسالة والعفة والطهُر، وهو أنه أبى الفاحشة، لأنَّ نبِيًّا رضيه لنفسه، فكفر به.

ولا بدَّ من تنبيه قبل وضع القلم، وهو: أن بعض الناس يؤمِن بطريقة المبالغات الفاقعة، ويراهَا أعظم تأثيراً في الناس من البناء الرَّاسخ، وليس الأمر كذلك، فطرح الانفجارات والتهويلات يتفاعل معه أصحاب الطَّيش، ويأنفه العقلاء، أما الإقناع بالحججة والبرهان فهو شأن العقلاء، والطائشون ليس لهم أتباع إلَّا أمثالهم، وهؤلاء لا كبار وزن لهم في المجتمع، لكن العقلاء قادة في فكرهم، ومقلدون فيما ذهبوا إليه وتبَّنُوه.

هذا وإن التوفيق في العبارة، والسداد في الطرح، وانتقاء الحرف اللازم للتوفيق إلهي، لا يسع المسلم إلَّا أن يفتقر إلى الله تعالى، ويطلب منه العون والمدد، وأما الاعتماد على النفس والبيان والبلاغة والإقناع والحججَة وحدها فهو أكبر مُدَمِّرٍ.

والسَّعيد من أراد الخير ووُفِّقَ له، ولم يربح من أراد الخير ولم يُوَفَّقْ إلَيْهِ،
والأشقي من طلب الشَّرَّ فَدَرَّكَهُ.

إجبار لم يُرَبِّ نفْسًا، ولكنه عَقَدَ حِيَاةً

كان الناس قبل سنوات قليلة يذهبون إلى العمرة، وبما أن الروح شَعُوفَةً بالحرم وما يَمُتُّ إلَيْهِ بصلة، تراهم يعظُّمون كُلَّ ما رأته أعينهم، ويظُنُّون كُلَّ عمل هناك مبروراً، وكل قراءة من إمام الحرم مُبْكِية، ويزداد الإيمان عند

بعض الناس كفرحة العيد المكثفة، ثم ما يلبس أن ينخفض بمحنة عقب الرجوع، وكأن العيد قد انتهى، وانطوى بساط الزيارات ولم يعد صاحبه يفكر بصلة رحم إلى العيد المقبل.

و كنت ترى في بلاد الحرمين قبل سنوات إجبار الناس على إغلاق المحلات والصنائع، والذهاب إلى صلاة الجمعة، وكثيراً ما سمعت الناس يثنون على هذا العمل، وكانت أعراض هذه الطريقة، ولا أجد إلا النذر اليسير من يواافقني، وأفتئد الأمر خطوة خطوة، وأرى نفسي أني ألم بجوانبه أكثر من ذاك الزائر المار سريعاً، بما أني أقمت بين ظهراني أهل ذاك البلد، ونعمت بخيراته، وكرم أهله، وأفدت من فضلهم وعلمه، وتعلمت من سموهم وجميع خصالهم الحسنة، أقول:

اسمحوا لي أن أنتقد طريقة القسر على إغلاق المحلات التجارية والصناعية، سأحكي لكم قصة ما هي للضحك والله، بل أقوتها وقلبي يعصر ألمًا وحسرة، فأي إخفاق دعوي يحصل في أرجاء المعمورة يتعرّ له قلب الحريص المحب الغيور، وإن حصل خطأ في أداء الدعوة لمدرسة وفرحت المدرسة الأخرى فيها من ضيق نظر مُخجل، عندها اعلم أن حظوظ المتابعة للجماعة قد غلت على حب الدعوة وولائها.

إي والله، توجد حظوظ جماعة كحظوظ نفس، وأنانية للجماعة كأنانية الذاتية، ومكابرة في اعتراف خطأ الجماعة تشبه المكابرة الشخصية.

حدثني صديقي - والعهدة والثناء عليه - عن مصلح سيارات في آخر شارع بيتنا.

قال: هل تعرفه؟

قلت: أعرف المكان دون الرجل العامل.

قال: إن صاحب المحل يَمْنِي، ولديه مساعد فِلَبِّينِي نصراَنِي، وكفيل بطاقة الإقامة لليمني والفلبيني رجل سعودي، وانقضت إقامة الفلبيني، فأخذها السعودي ليجددَها، ووضعها في دائرة التجديد لكن التوفيق لم يحالقه، فقد انقضى الأسبوع ولم تُجَدَّد، وعطلة الأسبوع يومان، وقرر السعودي أن يسافر إلى مصر بضعة أيام، يَهْتَبِل فرصة العطلة وفوقها أيام قلائل.

لكن المشكلة أن الإقامة بقيت في التجديد، والعامل الفلبيني لا يحمل وثيقة تثبت هويَّته وإذن إقامته.

وجاءت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفتيشُ عن المخالفين عن الصلاة، فرأتَ الفلبيني جالساً لا يصلي، فسألَه: لم لا تصلي؟

الفلبيني: أنا نصراَنِي!

رجال الهيئة: أعطنا هويَّتك التي تثبت ذلك.

الفلبيني: إقامتي في التجديد!

رجال الهيئة: تريد أن تضحك علينا؟ أنت أندنوسي وتمثُّل هذا كذباً وزوراً!

الفلبيني: صدقوني أنا نصراَنِي.

رجال الهيئة: تعال إلى السيارة!

وُحِمِّلَ الرجل في سيارة الهيئة، وأُخِذَ إلى الحبس، وقالوا له: اتصل

بكفيفك السعودي ليُحضر الإقامة وتخرج.

الفليبي: كفيلي في سفر، والإقامة في التجديد.

بقي الفليبي في الحبس حتى عاد كفيفه، وأفرج عن الإقامة من التجديد، ولكن الأمر أخذ بضعة أيام، كانت كفيلة أن تقلب الفليبي إلى عدائٍ مُرّ، فقد حُبس ظلماً، وأوقف عمله، وتأخير تجديد الإقامة ليس بيده.

لكن الموقف لم ينته، أصبح الفليبي - يترصّد كل يوم عند كل صلاة - قدوم الهيئة ويراقب عن بعد، ومتى رأهم أتوا سارع إلى الجماعة التي تصطف في طرف الشارع وتصلي ولحق الصلاة بهم حيث كانوا من ركوع أو سجود، ومتى ابتعدت سيارة الهيئة ترك الصلاة ثانية، وهكذا يمثّل.

يا له من موقف يُبكي المحب ولا يُضحكه، سيدخل السرور إلى قلب ذوي الفيلبي، إذ مثل هذا الموقف البارد كفيل أن يصدّ هذا الشاب عن التفكير ولو قليلاً في تغيير دينه ودخوله في دين الإسلام.

وكنت أرى - ولا أزال على ذلك - أن إجبار الناس على إغلاق المحل مضحك، لأنني أرى أمام عيني المئات - عبر السنين - يقفلون الباب على أنفسهم داخل المحل التجاري، فإذا قضيَت الصلاة نهضوا من داخل المحل منتشرين إلى أماكنهم، يبتغون من فضل الله تعالى.

في الوقت الذي ترى المساجد عامرةً في مصر وسوريا والأردن وسائر أقطار المسلمين التي لم يسلك أهل البلد طريقة الإجبار على الإغلاق.

وأخطأ من حرم البيع وقت صلاة الجمعة خطأً بليغاً، والصواب أنه

جائز، وإنما المحظور هو البيع وقت الجمعة فحسب.

وإن اتهمني الظانُ أنني التقطت صورة أحاول تعميمها، فإنني أخبره أنني على معرفة من كثب بعدد من القصص التي تصبُ في الخانة نفسها، وتشتبَّه أن الإجبار على غير الفرائض، وبدون برنامج طويل المدى هو إجبار قليل المجدوى، ضعيف الأثر.

صلَّيت الفجر صباح هذا اليوم في أحد مساجد سوريا، فرأيت عدد المصليين يفوق ١٦٠ شخصاً، وما دخلت المسجد إلا قبيل الإقامة، وقد أخذ الناس مقاعدهم، وصلوا السنة القبلية، وجلسوا يتلون كتاب الله تعالى.

يا له من منظر مهيب، لم تأت هيئة الحِسْبَة إلى فراش أحد وتجبره على صلاة الجماعة، ولا النزول إلى المساجد، ولم يكن عليهم رقيب يحمل العصا لفرض قراءة القرآن، إنها التربية الجادة التي جملَت حضور الصلاة في أعينهم، ورَفَعَتها فوق لذة النوم، ورَيَّ الفراش.

ألا توافقني في نهاية هذه الدورة، وبعد هذه الجولة أن الإجبار على صلاة الجماعة لمن ليس على قناعة بها يُعرقل مسيرة الدعوة!

وليت الذي يختبئ داخل المحل - خوفاً من المخالفات - فتح المحل، وقضى حاجات العباد، ولم يتجمَّل بفضيلة لم يعملها، ولم يتسبَّب بما لم يُقدِّم، فإن حال هذا كلامٌ ثوبيٌ زُوريٌ.

النقد المنضبط المحدد الشحبي

كتبت لأحد إخواني مرّة: مجازفة العبارة شلل يحجب الساعي عن قبول

الخطاب، إلا لدى عُشَّاق الأمور الفاقعة.

قد يكون الرجل جبلاً في العلم، ولكن المبالغة تقتل الفكر وتحول الإصلاح إلى جدل.

قال الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) - طيب الله ثراه، وجزاه عن أهل الحق خيراً - في ذم التعصب وبيان شيء عن الخلاف في العلوم الإسلامية: «التعصُّب سبب يرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما سُبُّوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة - لا في معرض التعصب والتحقير - لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجah لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع، - مثل: التعصب واللعنة والشتيمة للخصوم - اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسمّوا ذبّا عن الدين، ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاكُ الخلق، ورسوخُ البدعة في النفوس، وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمنهاج، على ما سيأتيك تفصيل غوايئها وآفاتها، وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلو، فلا تظن

ذلك، فعل الخبير سقطت»^(١).

فإن رُمِّتَ الوصول إلى نشر فكرة فقدَّمها بحجمها العادي، واحذر الورَم السرطاني، فإنه لن يكون خيراً على كلامك، وقد عاب النبي ﷺ تكبير الأمر عن حجمه، بل حاربه بعبارة شديدة، فأكثر العلماء يعرف حدث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أَخْبَرُوا كَائِنَهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ التَّيِّنِ ﷺ قَدْ غُفرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أَصَلَّى اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِلَيْيَ لَا خَشَائِكُمْ لَهُ وَأَنْقَائِكُمْ لَهُ لَكُنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَصَلِّ وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغَبَ عَنْ سُنْنِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

نقد شحيح كأكل الميّة للمضطـر

كان أحد الدعاة قد رزقه الله تعالى الالتفاف حوله من جمهور بلده، وكان يحاضر ويدرس، حتى عظمت عليه نفسه، ودخلها استعلاء وكبر منهجي، فأصبح حاله يقول للناس: أنا خير منكم، ولدي زمام العلم، ولقد أوتته على علم عندي.

ثم انحرف به السبيل وبعـدـتـ التـجـعـةـ، وزـادـتـ الفـجـوـةـ، فـبـدـأـ يـخـصـ

(١) «إحياء علوم الدين»: طبعة دار المعرفة: ١: ٣٩ - ٤٠.

(٢) رواه البخاري برقم: ٥٠٦٣، ومسلم برقم: ١٤٠٣.

فيديوهات للرد على أقرانه من الدعاة، وزادت الأمور حتى أوقف العمل الدعوي لديه بأجمعه، ولم يعد له غير فيديوهات متتالية للتعليق على غيره، ونقد أعمالهم، وتمحیص أفواههم، وتتبع زلاتهم.

ولو سأله ما مشروعك؟ لأجابك عَمَلُه: ذَمُّ الْجَمِيع، وَتَتَبَعُ الْعَثَرَاتِ،
وَإِظْهَارُ شَرٍّ مَا عِنْدِ الْخَلْقِ، مَعَ الْحَرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى طَمْسِ الْمَحَاسِنِ، وَلَوْ
اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْسُرَ الْخَيْرَ بَشَرٌ مَا قَصْرٌ.

وَاللَّهُ غَيْرُ عَلَى عِبَادِهِ، يَقْبَلُ مِنَ الْعَبْدِ حِلَّةً، لِأَنَّهُ «مَنْ كَثُرَتْ حَسَنَاتُهُ
وَعَظَمَتْ وَكَانَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ تَأْيِيرٌ ظَاهِرٌ فَإِنَّهُ يُخْتَمِلُ لِهِ مَا لَا يَحْتَمِلُ لِغَيْرِهِ،
وَيُعْقِفُ عَنْهُ مَا لَا يَعْفِي عَنِغَيْرِهِ، فَإِنَّ الْمُعْصِيَةَ خَبَثٌ، وَمَاءَ إِذَا بَلَغَ قَلْتَيْنِ لَمْ
يَحْمِلْ الْحَبَقَ»^(١).

فَمِنْ الدُّعَاءِ مِنْ فَرَغَ نَفْسَهُ لِلرَّدِّ عَلَى هَذَا الدَّاعِي كَلَّمَا سَنَحتُ الفَرْصَةُ،
وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ أَكْثَرَ: مَنْ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَسْجِيلَاتِ هَذَا الرَّجُلِ أَبْدًا، وَمَضِي
نَحْوِ عَمَلِهِ مَسْرِعًا، وَجَدَ السَّيْرَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، وَمَا مَثَلُهُ مَعَ ذَاكَ الدَّاعِي إِلَّا كَهَذَا
التشبيه:

العامل في حقل الدعوة كالبناء، والمحرب في الدعوة كالسارق يسرق من
ذاك البناء، ولكن أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والحجرين لا أكثر، ولو
ترك البناء عمله ليجري وراءه لصاع عمره، وما وضع حجرًا على حجر،
ولكن يسعه أن يرتفع ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله، وشتان ما بين

(١) العبارة من كلام الحافظ ابن القيم رحمه الله، انظر: «مفتاح دار السعادة» ١: ١٧٦.

هذا، وبين آخر: ترك العمل الجاد، ومضى يجري خلف اللّصّ، فلا أدرك رَدَ المسرور، ولا أتَمَ عمران الدار.

حق نخاف من ظلاله

أكْثَرَ كثِيرٍ من العلماء في الكلام عن فضل بلاد الشام، والسؤال الآن الذي يطرح نفسه: هل وردت كل هذه الأحاديث في فضل بلاد الشام؟

الإجابة الأولى: بل وردت آية في بركة ما حول المسجد الأقصى الذي هو ضمن بلاد الشام، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيَلَّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لِئِرَيْهُ مِنْ ءَابِيَّنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. وصحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا»^(١)، وغيره، كما صحت أمور من كلام بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى.

الإجابة الثانية: لن أحكم على جميع الأحاديث، ولكنني سأضع بين يدي القارئ بعض الإحصاءات.

وردت في فضل بلاد الشام أحاديث تبلغ خمسة وعشرين حديثاً، لا يكاد يخلو منها حديث من مَطْعَنٍ، إلا القليل الحالي من المبالغات ونكارة المتن، والصراحة الزائدة، منها سبع عشرة رواية وردت عن كعب الأحبار اليهودي الأصل، من كلامه، ومن طريق آخر عن النبي ﷺ ! ألا يُحْدِثُ لك وقفَةً تدبُّر وتأمل ودراسة وتأنّ؟

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٠٩٤

لما بدأت الحرب في سورية سارع شيخنا المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلي حفظه الله إلى تأليف كتاب في تخريج الأحاديث الواردة في بلاد الشام، وقلت يومها لبعض إخواني - والشيخ في مدينة جدة من السعودية، وأنا في ولاية عينتاب من تركيا، ولم أسمع منه ولا عنه حرفاً في تعليل هذا العمل -: إن مقصود الشيخ لبعيد، إذ هو يسمع المشايخ كيف هبوا لنبش الأحاديث الواردة في فضل بلاد الشام، وكل منهم يصرخ على المنابر وفي المحافل: إن الله تكفل بالشام. وينسب القول للحبيب المصطفى ﷺ، ثم إن الشيخ يخشى أن تُخْسَى أذهان الناس بهذه الأقوال، ويصدقوها على أن النصر وعد من الله تعالى، ثم ماذا عن الأمر لو ازداد أزمة وازداد انحطاطاً؟

الشيخ يخاف من إغراء الناس بهذه الأحاديث، وتصديق الوعد المنسوب إلى الله بعاطفة، وإن تعذر النصر لأسباب أخرى فإن الذي آمن بعاطفة دون عقل، سَيَرْتَدُ بعاطفة دون تعقل.

وقلت لإخوتي: حاولوا أن تسألو الشيف: أليس هذا مقصده؟

وجاء اليوم الذي اجتمعت فيه بسيدي الشيخ، وسألته أليس هذا قصدك؟

هز برأسه بحرارة وابتسمة عريضة، وقال: قد عرفت المرمى.

إي وري: جاء اليوم الذي قال فيه بعض الناس: لا نريد المكان الذي تكفل الله به، إنما نريد أماكن الكفر التي حاربها الله؟

أهكذا تورد الإبل؟

أهكذا يكون التشجيع؟

فضل الشام ثابت بلا ريب، ولكن ليس بتلك الكثرة والصراحة في الأحاديث، وظلالُ الكلام يُوقعُ الناس بما لا تحمد عقباه.

سحور متعددة

١- سِحْرُ المَعْلُومَةِ الْأُولَى:

كن يقظاً عند طرح الكلام على الناس، فمن سمات الكثير منهم أن المعلومة الأولى هي التي ترتكز في أذهانهم، فلو حضر الناس محاضرة جماهيرية، وأثنى أحدهم عليها، وطار بأوصافها، فإن الذي ينطبع في أذهان الجماهير الثناء على المحاضرة، ولو جاء كلام مغاير بعد ذاك الكلام فلن ينفع، لأن العوام تتلقى المعلومة الأولى، ويَتَبَيَّنُونَهَا ثم يدافعون عنها، وهيئات أن تمسح من أذهانهم.

٢- سحر أحكام الأقواء:

ويلحق بسحر المعلومة الأولى سحر ثان، وهي أحكام الأقواء، فالناس أتباع كبرائهم، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَاضْلُلُنَا أَسْبِلُنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ويرى ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) رحمه الله: «أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب: في شعارة وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوايده»^(١).

فترى الكثير من الناس واجهين ساكتين باهتين، وب مجرد أن يصرخ

(١) «مقدمة ابن خلدون»، هكذا عنون بهذه العبارة انظر المقدمة، الفصل الثالث والعشرون:

القوى برأيه مالوا إليه جميعاً، وتنفسوا الصعداء، وكانوا قبل إفصاح القوي يتهربون من التصريح بالجواب، لكنهم بعد سماع كلام القوي يرددونه دون نقاش، بل دون وزن أحياناً.

٣- سحر الإعلام:

الإعلام سحر جديد، إذا ما عَمَّ الخبر وانتشر رأيت غير الواعين من الناس يصدقون الخبر، بل يدافعون عنه بشدة، وكأنَّ صاحبه قد تخبط الشَّيْطَان من المَسِّ، ذلك بأنه قد أصيَّب بسحر الإعلام، فأصبح لا يفرُّق بين حقيقة، وبين خبر انتشر، وقد يكون كذِباً وتلفيقاً.

٤- سحر الجماهير:

إن من السحر العجيب سحر الكثرة، وأكثُر الناس إذا مرروا إلى درس مزدحم حكموا على المتكلِّم أنه بحر مُظمَّم في المعرفة والعلم، وإن رأوا العكس زهدوا، وربما حَقَّروا من شأن المتكلِّم، ذلك بأنهم اتبعوا الجماهير، وأهملوا محاكمة الكلام إلى النقد الصحيح، من جهة الموازين التي لها علاقة بموضوع المتكلِّم.

٥- سحر الشهرة:

أمْسَكَ بي رجل عقب محاضرة لأحد مشاهير العلماء، وجعل يثني بأضخم العبارات، وأشد التراكيب على محاضرة ذاك العالم، وأنا أقرُّ بهذا، وأقول: إنه عالم بحق وaim الحق، ولكنَّ كلامَه فلسفِي يتعَثَّرُ مروره بين خلايا العقل.

تعجبت من هذا المبني خيراً، ورحت أدرس الموضوع في ذهني: ما الذي
دعاه أن يمدح محاضرة لم يفهم جلها؟

وسرعان ما اهتديت للجواب: إنه التقليد في حب المشاهير، والثناء
عليهم، ولا أستبعد أن يُكثُر هذا العامي من الثناء على هذه المحاضرة، بل
يصنع مناسبة أمام الناس ليخبرهم أنه حضر محاضرة فلان المشهور!

٦- سحر قديم الأحكام:

إذا تعلق العوامُ بشخص فمن الصعب أن ينجح بجانبه ثانٍ في ندوة
علمية، فضلاً عن أن يخلقه في إماماة أو قيادة مكان.

كنا ندرس في السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، وهو الصف التاسع في
الترتيب التسلسلي، وكان أحد العلماء يدرسنا وهو عالمٌ مَكِينٌ، وله روح عالية
في جذب الطلاب: قلباً ونظراً وعقلاً.

وفجأة احتمم الاختلاف بين إدارة المدرسة وهذا الأستاذ، وأخرجوا
المدرس المتميّز من المدرسة، وخرجت قلوب طلابه معه، وألقي على أجساد
الطلاب وعقولهم غلافٌ من رصاص، فلم يَعُدْ أكثرُ الطلاب يفهمون كلمة من
المدرس الجديد البديل، وأشهد لله وبالله أن المدرس الجديد كان على قدم
عالية من الفهم والتحضير، ولكن قلوب الطلاب مع الذي أخرج من
المدرسة، وأذى الموضوع كثيراً اعتقاد الطلاب وقع الظلم على شيخهم، وأن
الحانين عليه بالإخراج حَسَدَةً لا غير.

٧- سحر التعاطف مع المظلوم:

حدثني أخ أثق به، قال: كان في قريتنا رجل مصقع في الخطابة، إذا خطب على المنبر هدر الكلام هدراً، وشقّ صوته شوارع القرية، حتى إن بعض العجائز لتعتمد الجلوس أمام باب الدار كي تسمع الخطبة.

وكانت خطبة الرجل يومها عن «العقوبة للمتقين»، ودارت رحى الخطبة من أولها إلى آخرها على قصة سيدنا موسى مع فرعون، وكانت خطبة الرجل تُرسم أمام المستمعين كأن شريط فيديو يحضورونه ويستمعون إليه.

ومن بين الحالات على باب الدار امرأة مشدودة السمع، والقلب نحو الحادثة وسردها، حتى إذا بلغ الخطيب مرحلة غرق فرعون بعد أن لحق ببني الله موسى عليه السلام، وكيف أدركه الغرق، تصورت شدة عذابه في الغرق، فصاحت بأعلى صوتها: فَعَلَ اللَّهُ بِكَ كَذَا وَكَذَا يَا مُوسَى؟ أُفْتَلَتِ الرَّجُلُ وَفِي رَقْبَتِهِ أَطْفَالُ صَغَارٍ وَعِيَالٍ؟

هذا شعور العامّة عامّة، والغواء إجمالاً، يجدون الموظف الذي خرج من العمل فيتعاطفون معه على أنه مظلوم، ولا يتكلّفون السؤال والبحث والتنقيب، ولو أنهم فعلوا ذلك لأصبحوا في عداد المفكرين، فمن أكبر الأخطاء الدعوية الدخول في مَعْمَدة انتصار الداعي لجهة يراها العامة أنها ظالمة أو قوية، وإن كان يعتقد عدها وإنصافها، ولكنه يمكن أن ينصرها بطريق مُلَفَّ بالحيادية، أو مخفي غير ظاهر، أما الاصطفاف الواضح فله ضريبة، يُقدّر الداعي ثمنها مقابل جدواها، ويأخذ بالراجح لديه.

٨- سحر طلاسم الألفاظ:

حدثني خالي الأستاذ عاطف بيانوني حفظه الله، قال: حدثني رجل من الصالحين، أن عدداً من الوعاظ الفارغين من حلب كانوا يأتون من أنحاء البلد إلى حيهم: «حي الكلسة» ليُلقي درسه على الناس، قال الرجل الصالح: وكنا لا نفهم من كلام أي مدرس إلا كلمتين: «الله»، «محمد»، فكنا على انتظار وشدّ أعصاب نحو الشيخ المتكلم، و مجرد أن يذكر الله تعالى سارعنا إلى مسح أيدينا بوجوهنا وألسنتنا تلهج بقولنا: «جل جلاله»، أما إذا ذكر رسول الله ﷺ فنبادر إلى الصلاة عليه باللسان، ومسح اليدين على القلب.

وكان الناس يعتقدون أن الكلام الصعب دليل على فهم العالم، لأنه يحكى كلاماً لا يُفهم، فهو بضاعة أهل التخصص والتمكّن العلمي، أما الكلام المفهوم فهو دليل على الضّحالة العلمية.

وبُثُوا على هذه الحال حتى جاءهم العلّامة المري الورع الشيخ المحمدي عيسى البيانوني (ت: ١٣٦٢ هـ) رحمه الله، فغيّر لهم الوجهة، وأصبح يدرّسهم ما يحتاجونه، ويشرح لهم، فعلموا عندها أن صعوبة الكلام لا تعني فهم المدرس.



العلاقة مع الدعاة



العلاقة
مع الدعاة



غضُّ البصر الدعوي

تعلم المبدأ النبوى الذى قاله ﷺ في الأنصار: «فَاقْبِلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَوَّزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»^(١)، فهو مبدأ فيه أكبر إشارة إلى غض البصر عن هفوات القريب.

وغض البصر الدعوي يكون على صور كثيرة:

١- منها: غض البصر عن الاختلاف الفقهى، أو الزلل، أو في الأسلوب.

من أهم نجاح الداعية أن يُغض بصره عما هو حكم معتمد في المذاهب، وإن خالفة، أو زلة لداعٍ، أو أسلوب رأه غيره صالحًا، أما هو فلم يرها.

قال تاج الدين السبكي (ت: ٧٧١ هـ) رحمه الله: «فلعمر الله! لا أحصي من رأيته يشمر عن ساعد الاجتهاد في الإنكار على شافعي يذبح ولا يُسمى، أو حنفي يلمس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكي يُصلّي ولا يُبسم، أو حنبلي يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، يتركون الصلاة التي جزء من تركها عند الشافعي وممالك وأحمد ضرب العنق، ولا ينكرون عليه، بل لو دخل الواحد منهم بيته لرأى كثيرًا من نسائه يتركتن الصلاة، وهو ساكت عنهن!

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٣٧٩٩، ومسلم برقم: ٥١١، ولفظ البخاري بتمامه: «أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كُثُرٌ وَعَيْنِي، وَقَدْ قَضَوْا الذِّي عَلَيْهِمْ، وَبَقَى الذِّي لَهُمْ، فَاقْبِلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَوَّزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ». ومن أحب التوسيع فإنه سيجد غير هذا الكلام في كتابي: «هكذا علمتني الدعوة إلى الله تعالى»، القاعدة: ٤٥، ص: ٧٤.

فِيَاللَّهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ^(١)! أَهْذَا فَقِيهٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ! قَبْحُ اللَّهِ مِثْلُ هَذَا الْفَقِيهِ.

ثُمَّ مَا بِالْكُمْ تُنْكِرُونَ مِثْلُ هَذِهِ الْفَرْوَعَ، وَلَا تُنْكِرُونَ الْمُكْوَسَ^(٢)
وَالْمُحْرَمَاتِ الْمُجْمَعُ عَلَيْهَا، وَلَا تَأْخُذُكُمُ الْغَيْرَةُ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا! إِنَّمَا
تَأْخُذُكُمُ الْغَيْرَةُ لِلشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةِ وَالْمَدَارِسِ الْمَزَرِفَةِ! فَيُؤْدِي ذَلِكُ إِلَى
اِفْتَرَاقِ كَلْمَتَكُمْ، وَتَسْلُطِ الْجَهَالِ عَلَيْكُمْ، وَسُقُوطِ هِبَبِكُمْ عَنْدِ الْعَامَةِ،
وَقُولِ السُّفَهَاءِ فِي أَعْرَاضِكُمْ مَا لَا يَنْبَغِي^(٣).

هذا عند صريح المخالفه في أصل، فما الحال عند الاختلاف في وجهه

نظراً؟

٦- غُضُّ البَصَرِ عَنْ مجتهدٍ في ميدانِ لم تَخْضُرْهُ

لقد انبرى كثير من النشطاء لاسترداد حقوق المسلمين المسلوبة من
عدوّهم، وخذ منها:

مقام الإفتاء، أو أوقاف المساجد، أو أي منصب ديني، فتفاجأ كثير منهم

(١) أظن أن إيقحام الواو هنا خطأ، لأن في اللغة تفتح همزة المستغاث به، وتكسر لام المستغاث له، فتقول مثلاً: «فِيَاللَّهِ لِلصُّعَفَاءِ».

(٢) المُكْوَسُ: جمع مَكْسٍ، وهي: الضريبة التي يأخذها المالكس، وقد روى أبو داود في سننه برقم: ٢٩٣٧ قول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ»، وهو حديث حسن، فعلقَ الحَطَاطِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ شَارِحًا الْحَدِيثَ: «صَاحِبُ الْمَكْسِ: هُوَ الَّذِي يُعْشِرُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَأْخُذُ مِنَ التَّجَارِ وَالْمُخْتَلِفَةِ إِذَا مَرُوا عَلَيْهِ وَعَبَرُوا بِهِ مَكْسًا بِاسْمِ الْعُشْرِ». انظر: «معالم السنن» للخطابي ٣: ٤.

(٣) «معد النعم، ومبيد النقم» ص: ٦٣.

بَاٰتِهِمْ إِخْوَتِهِمْ الدُّعَةُ لَهُمْ، وَصَارُوا مَوْضِعَ التُّهْمَةِ بِأَنَّهُمْ الْمَاشُونَ فِي رَكَابِ الظَّالِمِينَ، وَكَمْ سَبَّهُمْ أَصْدِقَاؤُهُمْ وَأَحْبَابُهُمْ بِقَوْلِهِمْ: «لَوْ تَرَكَ هُؤُلَاءِ أُولَئِكَ الظَّلَمَةَ لَانْهَارَتْ عَرْوَشُهُمْ»!

لَقَدْ نَقَلُوهُمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ حَظِيرَةِ الْأُخْوَةِ، إِلَى رَكَابِ الظَّالِمِ، وَلَمْ يَفْرُّوْا بَيْنَ الْمُسْتَرِدِ ٩٧٪ وَالْمُتَبَرِّعِ بِ٣٪.

إِيٰ وَاللَّهُ، مَنْ جَاءَ إِلَى حَقِّ مَسْلُوبٍ، وَاسْتَرْجَعَ مِنْهُ ٩٠٪ فَإِنَّهُ لَا يَحُوزُ بِحَالٍ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ تَبَرَّعَ بِ١٠٪.

وَلَا عَجْبٌ مِنَ الْعَامِيِّ أَنْ تَكُونَ رَؤْيَتِهِ بِهَذِهِ الْأُطْرِ الْمُعْتَمِدَةِ، وَرَؤْيَتِهِ بِهَذِهِ الضَّبَابِيَّةِ الْقَاتِمَةِ، وَلَكِنْ حَالٌ كَثِيرٌ مِنْ أَقْرَانِهِ مَنْ يُنْسِبُونَ إِلَى الْعِلْمِ لَيْسَ أَحْسَنَ مِنْ حَالِ الْدَّهْمَاءِ، وَسُوقَةِ الْمَجَمِعِ.

لَا وَاللَّهُ، إِنَّهُ اسْتَرَدَّ كَذَا وَكَذَا، وَمَا تَبَرَّعَ بِشَيْءٍ، وَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى اسْتِرْدَادِ الْكُلِّ، فَغَصُّ الْطَّرْفِ عَنْ قَلْةِ مِنِ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكُلِّ.

ثُمَّ إِنَّ أَخْاكَ مِنْكَ وَلَيْسَ مِنْ عَدُوكَ، وَصَحِيحٌ أَنَّهُ لَمْ يُسْتَطِعْ إِلَّا التَّنَازُلُ عَنْ جَزءٍ، فِي سَبِيلِ اسْتِرْجَاعِ الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّهُ مَنْدُوبُ الْأَطْهَارِ إِلَى لِقَاءِ الْأَشْرَارِ، وَفَارِسُ عَشِيرَتِهِ الْمُنْتَدَبُ لِلَّدْفَاعِ عَنْ حَرْمَةِ مَالِ أَهْلِهِ.

٣- مِنْهَا: غَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا يَفْلَقُ الصَّفَ وَيُصْنَعُ الْفُرْقَةُ

وَمِنْ سُلُوكِ مَرْضِى الدُّعَوةِ أَنَّهُمْ يَشْتَدُّونَ شَنْجَهُمْ فِي أَمْوَالِ صَغِيرَةٍ، وَلَا يُقَدِّرُونَ حَجْمَ خَطْرِ الْفُرْقَةِ، فَرِبِّمَا أَحَدُثُوا أَكْبَرَ الْأَخْطَارَ لِتَحْقِيقِ هَدْفِهِمْ صَغِيرٌ، وَمَا دَرُوا أَنَّ الْاجْتِمَاعَ عَلَى مُفْضُولٍ، خَيْرٌ مِنَ الْاِخْتِلَافِ عَلَى الْأَفْضَلِ.

فما جاء الأمر القرآني بغضّ البصر للرجال عن النساء فحسب، ولا النساء عن الرجال فحسب، بل الأمر أن يغضُّوا من أبصارهم عام، لذا وجب في عيوب الأخ، وزلات الزوج، وسقطات الصديق، فضلاً عن موقف يحتمل الخطأ والصواب^(١).

علاقة مع الخطأين، لا مع المرسلين

يصيب بعض ذوي الإنتاج والعمل والتميز مرض الأنأ، فيرى عمل نفسه، وينسى عمل غيره الذين يتфанون في الميدان معه، وتکبر في عينه أخطاؤهم، وثابر عنده أخطاء عمله، ويرى لكل أخطائه حججاً وأعذاراً.

وأساصل له وصفة: وهي إن رأى نفسه بحراً فلا حرج، ولكن بشرط أن يرى الناس بحاراً أيضاً، والبحر يرمي بالجواهر والرديء، فالنظر الأول: يُرى في نفسه على وجود أخطائه، بل كثرتها، إلى جانب الخير عنده، الثاني: يُرى في نفسه على وجود جواهر عند غيره، فليس هو البحر الوحيد، وإن رأى العيب في غيره فليعلم أن بحره يحوي العيوب كما يحوي الدرر.

لِوْنُ النَّظَارَةِ تَحْكُم

زرت دوحة قطر قبل فترة، وزرت فيها أحد العلماء الأفضل، وهو من المتخصصين في علم الحديث الشريف، ولكنه كثير الطعن بالإمام

(١) يشهد لما ذهبت إليه قول الشبلي رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوُا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فقال: أبصار الرؤوس عن المحرمات، وأبصار القلوب بما سوى الله تعالى. انظر تفسير الآية عند الرازي في «مفاتيح الغيب» ٤٣: ٤٥٠.

الغزالى (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله، ومن على شاكلة الإمام ومدرسته.

عقب رجوعي سأله عدد من إخوانى: عَجِبْنَا مِنْ زِيَارَتِكَ فَلَانًا، وبينكم من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله، ولا سيما في ذات الإمام الغزالى عليه الرحمة والرضوان.

أجبتهم: لما دخلت لزيارة، وضعت على عيني نظارة: «هذا خدم سنة النبي ﷺ أكثر مني»، ولو أني وضعت نظارة: «هذا الذي طعن بالإمام الغزالى» لما استطعت رؤيتها.

علم أحد الناس أنني متخرج في مدرسة شيخنا العلامة المحدث الحافظ الشيخ عبد الله سراج الدين (ت: ١٤٦٦ هـ) رحمه الله، فأراد الغمز بالشيخ من خلف ستارة، قارناً بين الغمز به ومدحه، يُظهر لي أنه معجب بي، ولكن اعترافي بفضل شيخي أدخله في صراع، وظنّه الحسن - حسب الذي يدعوه - أن أكون من تخرج في المدرسة، ثم ارتدَّ عليها وعلى شيخها، وصاح بأعلى صوته: «ثم اهتديت».

لم أدفع عن شيخي رحمه الله بحرف، لكنني ذهبت إلى أمور يجب أن تكون من المتفق عليها مع البشر عامة، سأله قائلاً: أتظن أنني أتبع شيخي على أنهنبي مرسلا؟ قال: لا. قلت: في تعاملني مع كل مشايخي أنظر إلى أي شيخ من خلال نظارة على عيني عنوانها: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»^(١)، وشيخي من بني آدم.

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذى برقم: ٤٩٩، وقال عنه: «حديث غريب».

رد على: صحيح أنه من بني آدم وأنه خطاء، لكن أ يصل به إلى أن يذكر حديثاً موضوعاً؟

سردت لصاحبها سلسلة كثيرة، كان بعضها:

- أُسْقِط الإمام ابن ماجه (ت: ٢٧٣٦ هـ) رحمه الله من فطاحل علماء الأمة لأنه أورد بعض الواهيات والمواضيعات في سننه؟
- أُسْقِط من الصحابة ماعنزاً والغامدية وعبد الله الملقب بالحمار رضي الله عنه لأنهم أصابوا حدّاً من حدود الله تعالى؟
- أُنفي العلم والمعرفة عن ابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ) لما شدّ به عن الأئمة في الفقه ومنهجه الظاهري؟
- أترك الفائدة العلمية من شيخك فلان، لأنه شدّ عن علماء الأمة في مسألة كذلك؟

عند الأخيرة قاطعني قائلاً: أما قلت قبل قليل: كل ابن آدم خطاء؟
قلت: نعم لم أقلها، بل الذي قالها هو رسول الله ﷺ، وأنا نقلت عنه،
وشتان ما بين قولي وقول سيدي رسول الله ﷺ.

يا سيدي: اختيار النّظارة هو الذي يحدد لك الفائدة أو عدمها، وخذ الأمثلة الآتية:

- أضع نظارة الفائدة التربوية عندما أقرأ «إحياء علوم الدين»، ولا أضع نظارة البحث عن حديث صحيح في الكتاب نفسه، ولنأخذ منه حديثاً واحداً إلا بعد الرجوع إلى أقوال المحدثين، كأن يقول: رواه البخاري.

- أضع نظارة التفسير حينما أقرأ في كُتب التفاسير، ولا أضع نظارة الحديث الشريف فيها.

- ولكني أستعمل نظارة الحديث في «صحيح البخاري»، ولن أطلب منه علم الأصول ولا القراءات.

ولو أنا أحسناً استعمال النظارات، لاتضحت عندنا كثير من المخبات الصغار التي لا ترى في العين المجردة، وَلَظِيمَتْ أمامنا كل ما ليس من اختصاص النظارة، وتغيرت نظرة كل واحد مناً بمن كان يعده عدواً، وهو من أحب خلق الله إلى الله تعالى، وأقربهم إلى نفس المبغض.

حربٌ واحدةٌ فلا تتعدّها

كتبت على غلاف كتابي: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى»: أسوأ الدعاة حالاً من نصب نفسه محارباً لإخوانه الدعاة، وقد سلم أعداء دينه من لسانه وقلمه، وأحسنهم من توجّه إلى الكفر ومن حاربوا الإسلام، ورتب أولويات الردود والمناقشات العلمية الهدائية مع إخوته.

إذا كانت الدول المتقدمة تفخر بتهايئة العلاقة مع الجوار والإقليم ودول العالم، فهل من حكمة الداعية أن يفجّر العلاقة مع إخوانه.

جلست في مجلس أحسب أن أهله من أهل الحب والود، وما دريت أن بعضهم قد شحن قلب بعضهم على، وامتلأت النفوس حقداً، وقد جلّلها الشيطان بـجلال طاهر اسمه: «الغضب لله»! إِي ورب الكعبة هكذا كان يُخيّل للحاقد أن حقده من أجل الله، وانتصاراً لدينه القويم، ويرى نفسه أنه متحدث رسمي في دين الله تعالى، وأنه المتهم العاق المارق الذي يجب أن

يُقْتَصَّ مِنْهُ، أَوْ يُؤَدَّبُ عَلَى أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ.

فَأَثَارَ الرَّجُلُ مَسْأَلَةً يَصَارُحُ بِهَا أَنْيَى عَلَى خَطَأٍ وَضَلَالٍ، قَلَتْ: وَمَا وَجْهُهُ
نَظَرَكَ؟

أَشَاحَ الرَّجُلُ الْقَنَاعَ عَنْ وِجْهِهِ نَظَرَهُ، وَرَأَيْتَهَا حَقًا فَوَافَقْتَهُ عَلَيْهَا، فَعَاتَبَنِي:
وَكَيْفَ تَقُولُ خَلَافَ هَذَا؟

قَلَتْ: لِأَنَّ السَّبْبَ اخْتَلَفَ، وَالْحَالَةُ غَيْرُ هَذِهِ.

صَعَدَ الرَّجُلُ فِي لَهْجَتِهِ: أَلِيسْ مِنْ دِينِ اللَّهِ الْإِحْتِيَاطُ فِي الشَّرِيعَةِ؟

أَجَبَتِهِ: بَلِّي، فَتَابَعَ الْحَدِيثَ عَلَى أَنَّ جَوَابِيَ كَانَ: نَعَمْ، وَكَأْنِي قَلَتْ: نَعَمْ
لَيْسَ مِنْ دِينِ اللَّهِ الْإِحْتِيَاطِ! سَبَحَانَكَ هَذَا بَهْتَانٌ عَظِيمٌ^(١).

كَرَتْ عَلَيْهِ: أَوْاْفَقْكَ الرَّأْيِ.

فَكَرَرَ، وَكَرَرَتْ، ثُمَّ عَلِمَتْ أَنِّي لَوْ أَتَيْتُ بِلَوْحَةٍ مُحَكَّمَةٍ عِنْدَ أَكْبَرِ خَطَاطِي
الْعَالَمِ، وَرَفَعْتُهَا فَوْقَ رَأْسِي أَنَادَيَ بِهَا: أَنَا أَوْاْفَقْكَ فَلَنْ يَنْفَعَ مَعَ الذِّي امْتَلَأَ
قَلْبَهُ حَقْدًا، وَتَوَجَّهَتْ ذَرَّاثَهُ لِلْحَطَّ عَلَيْ.

خَرَجَتْ بِنَتْيَاجَةٍ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ دِيْدُنُهُ فَتْحُ الْحَرُوبِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَيَرِي
مَتْعَةً رُوحِهِ فِي ذَلِكَ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَوْحِدَ جَبَهَةَ قَتَالِهِ.

وَلَنْ أَتَرَدَّدَ قِيَدَ أَنْمُلَةً أَنْ مُثْلُهُ هَذَا يَخْسِرُ فِي الْمَعَارِكِ الْكَبِيرِ الَّتِي تَكُونُ

(١) يَجَابُ عَنِ الْاسْتِفَاهَ الْمُنْفَيِّ إِنْ صَدَقَتِ النَّفِيَ بِهِ: نَعَمْ، وَإِنْ نَفَيْتَهُ بِهِ: بَلِّي، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ

﴿بِرِّتُكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٧٦]. وَلَوْ قَالُوا: نَعَمْ: لَكَفَرُوا، أَيْ: لَسْتُ رَبِّنِا.

ضُرُوسًا مع الأعداء الحقيقيين، لأنَّه قد فتح جبهاتٍ كثيرةً صغيرةً مع الأقربين، ففيها أن يصل إلى معركة أبعد، والأقربون يحولون بينه وبين الكبار، حتى يصل إلى حالة ينسى فيها المعركة الحقيقة الكبرى، وهو غارق بمن حوله.

أجل: الموقف لا حرب لديه مع الأخ القريب، بل يوحّد جبهة قتاله ويجعلها ضدَّ العدوَّ الأبعد، مهما تعددَ مدارسهم وتلوّنَت عداوَاتهم، ولو اضطُرَّ لفتح معركة ثانية فقد يؤذن له، ولكن لن تكون هناك ثلاثة ورابعة وعاشرة، وإنَّما فهو خاسر مع البعيد شاء أو أبى.

دُعَاءُ أَضَاعُوا الْبُوَصَلَةَ

يقولون: إذا لم تكن لكِ وجهة، فكلُّ الطرق توصلك، والداعي إذا أضاع البُوَصَلَةَ تَوَهَّمَ أنَّ كُلَّ الطرق خدمةٌ للدعوة، وعندَها لن يفرَّقَ بين عدوٍ وبين عدوٍ مُتَوَهَّمٍ.

الحمد لله الذي منَّ علىَّ بقولي: حربي ليست علىَّ أهلي، وإنَّما هي مع الكافرين المحاربين، ثم رأيت حربياً لا بدَّ من خوضها، ألا وهي: جبهة الدفاع عن السنة، وإعلان الحرب علىَّ محاربيها، وإنَّ كان من مسلمي الهوية والشهدتين، سواءً أكان مخدوعاً، أم عدواً لدواداً، وقد أقاتلَه حباً فيه ليفيء، أو ليرتدع: ﴿فَقَاتَلُوا الَّتِي تَبَغِي حَقَّهُ تَفْسِهُ إِلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

تُخَاصِّمُ شخصان من أبناء طريقة واحدة وعندَشيخ واحد، وكان شيخُهم طاعناً في السن والقدر والمرض، وكان سبب خصامِهم اختلافُهم في جزئية في أثناء الذكر الجهري جماعة، حتى بلغ التشاحن والتدارب أوجَهه، وعمِّيل طلابُ

كل واحد منهما على زيادة الشرخ وتأجيج النار.

حدَّثْتُ شيخنا الداعية الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٦ هـ) رحمه الله آنذاك بهذا الخبر، وشكوت له حُرْقَتِي، وكان من جملة ما قلت: ظني: أن لو كان رسول الله ﷺ في زماننا لحَثَّهم على عدم الاختلاف في سبيل جزئيات كهذه؟ ولا سيما أن عدوَّهم المشترك حاضر يستمر مثل هذه الفرَص لزرع الخلاف، فقال لي شيخنا: لا والله ليس هذا فحسب، بل كان يرضى بإلغاء هذا النوع من الذكر كلَّه، فإلغاؤه أقلُّ من الاختلاف.

الحرب عند الداعي لا تكون إلا على مُتَّفق على خطئه، أو أُمِّرِ ذي بَالٍ شُرُّه مستطير، فلا حرب في وجهات النظر، ولا الاختلاف الفقهي المعتبر، ولا غير المعتبر - وإن كان لا بدَّ من الإنكار ورفع الصوت بالدليل والحججة والبرهان -، إِنَّما الحرب خاصة بمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

انسحاب خير من غرق

تعجبت وأنا أقرأ عن فن إنقاذ الغريق، فقرأت قوله: إن كنت تحسن السباحة، فلا تظن نفسك أهلاً للإنقاذ، فالإنقاذ من آخر غير السباحة، والسؤال: لو سقط ولدي الطفل أمام عيني في بِرْكة، فهل أتركه؟ يجيبك مدربو الإنقاذ: نعم، لأننا أمام غريق واحد، ومحاولتك الإنقاذ تسبب في الأغلب لنا غريقاً آخر.

لن أعلق على صحة أو خطأ هذه المعلومات، ولكنني وجدتها صحيحة في مجالس الداعي إن لم يستطع أن ينقذ غريقاً، فلا يجلس، لأنَّه سيكون الغريق الثاني.

جلست اليوم أتدبر هذه الآية العظيمة: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَبِ أَنَّ إِذَا سَمِعُتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ يُكَفِّرُ بِهَا وَيُسْهِرُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يُخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مُتَنَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْكُفَّارُ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

فقلت في نفسي: وماذا عن الداعي إن حضر مجلساً يُظلِّم فيه أخيه الداعي، ولم يستطع أن ينصره؟ أو لم تُجِدْ نصرته له؟

ماذا لو تشرذم الدعاة، وأصبحت مجالسهم مجالسَ نيل بعضهم من بعض؟

ماذا لو جلس مجلساً بين مَنْ ظاهروهم العلم، وحقيقةتهم أخلاط من الناس، منهم من له هُمْ دعوي، ومنهم من هُمْ الفقاعات والتحرش بين العلماء؟

ماذا لو انتسب إلى لفيف ثم اكتشف أن وقت الاجتماعات تقتل جزءاً من دعوته، وتصدُّه عن الأهم؟

ماذا لو قُتِلتُ أوقاتُ أهل العلم والدعوة في التنظيمات لاجتماعاتهم؟ ومضى شطر من العمر دون جدوى؟

الأَوْلَى فِي وِجْهَةِ نظري هو الانسحاب، وعدم ضياع البوصلة التي تكلمت عنها آنفًا.

ورحم الله الإمام الغزالى (ت: ٥٠٥ هـ) إذ قال: «وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتغير في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت، والآخر لا يفوت، أو فضلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ

الترتيب فيه كان مغروراً، ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد»^(١).

سامحوني: كأني نقلت النص في غير مكانه! الغزالي رحمه الله يتكلم عن ترتيب الخيرات، وأنا كنت أوازن بين الخير والشر!

قيل لطفل: هل أضيفك على حلوى، أم أضربك؟ فسخر من عقل السائل وأجابه: الموازنة بين خيرين أو شرين، ولا تصلح بين الخير والشر: **﴿وَلَا سَتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾** [فصلت: ٣٤].

خاصم في العلم ففجر

قرأت لعدد من المعاصرين من لهم صولة وجولة سلبية في قصيدة البردة للبوصيري (ت: ٦٩٦ هـ) رحمه الله، ولدّي وقوفات عند الفجور في الخصومة العلمية:

١- الكلام على الحقيقة يتحمل الشرك، كما هو محمول على الإيمان مجازاً، فمن الفجور في الخصومة العلمية ألا يحمله المخالف إلا على الشرك، وألا يصدر للناس إلا هذه الوجهة.

(١) «إحياء علوم الدين» ٣: ٤٠٣.

ولو أراد أن يعامل كلام أبي بكر في هذا لـكفره، وكذا الصحابة الذين قالوا: هلا متعتنا به يا رسول الله^(١)، والجارية التي قالت: «وفيما نبي يعلم ما في

(١) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسرنا أياماً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنئها؟ و كان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالفؤاد يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصْدِقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
وَالْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا
إِنَّا إِذَا صَرَحْ بِنَا أَبَيْنَا

قال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟». قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله». قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لو لا أمتعدنا به... فلما تصف القوم كان سيف عامر قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه ويرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال: فلما قفلوا، قال سلمة: رأي رسول الله ﷺ وهو آخر بيدي قال: «ما لك؟!؛ فلث لة: فداك أبي وأمي زعموا أن عامرا حبط عمله، قال النبي ﷺ: «كذب من قاله، إن له لأجررين، وجمع بين إصبعيه إن له تجاهد مجاهد، قل عزيز مثى بها مثله». أخرجه البخاري برقم: ٤١٩٦، والشاهد في قوله: لو لا أمتعدنا به. حيث كانوا يعلمون أن النبي ﷺ إذا قال: يرحم الله فلاناً بأنه سيموت، فقلوا له: لو لا أمتعدنا، أي: سألت الله ذلك، ولكن الكلمة قيلت على سبيل المجاز. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٧: ٤٦: «قوله: قال: «يرحمه الله»، في رواية إيس بن سلمة قال: غفر لك ربك، قال وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، وبهذه الرسالة يظهر السر في قول الرجل: «لو لا أمتعدنا به»، قوله: قال رجل من القوم: «وجبت يا نبي الله لو لا أمتعدنا به»، اسم هذا الرجل عمر سماه مسلم في رواية إيس بن سلمة، ولفظه: فنادي عمر بن الخطاب وهو على جمل له يا نبي الله: «الولا أمتعدنا بعامر». وفي حديث نصر بن دهر عند ابن إسحاق: فقال عمر: وجبت يا رسول الله، ومعنى قوله: لو لا، أي: هلاً، وأمتعدنا أي: متعدنا أي أبقيته لنا لنتمتع به، أي بشجاعته، والتمتع الترف إلى مدة، ومنه أمتعني الله ببقائك».

غد^(١)، أو يكفر السيدة الشريفة فاطمة عليها السلام عندما نادت أباها بصريح النداء بعد وفاته فقالت: «وأبتابه أجاب ربّا دعاه»^(٢).

٦- من الفجور في الخصومة إيهام السامع أن العلماء مجمعون على ضلال بعض الكلام في القصيدة، دون تبيين للناس أن هذه القصيدة عمل عليها نحو ٢٠٠ عالم من أساطير الإسلام، شرحاً وتسبيعاً وتخميساً وتشطيراً ومعارضة وأمثالها، وقد وجّهوا الكلام توجيهًا بلاعِيًّا يليق بحال المؤلف ومكنته العلمية.

٧- كما أن من الفجور ألا يبيّن للناس وجهة نظر الناظم التي يراها.

٨- ولكن من حق أي عالم أن ينقل وجهة نظر الكاتب، ويخالفه بما يشاء، فالباب مفتوح.

(١) عن الربيع بنت معوذ رحمه الله عنها قالت: دخل على النبي ﷺ غداة نبئ على فيراشي ك مجلسه ميّي، وجويّيات يضرّين بالدّف يندبن من قتل من آبائهم يوم بدري حتّى قالت جاريّة: وفيينا نبئي يعلم ما في غد، فقال النبي ﷺ: لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين». أخرجه البخاري برقم: ٤٠٠١. والشاهد في هذا الحديث، أن النبي ﷺ نهاها عن القول، لأن الناس حديثو عهد بجاهلية، فأراد أن يُبعد عنهم ألفاظ الإيهام، ولكنَّ علم منها صحة العقيدة، فلم يأمرها أن تجدّد إسلامها، ولو علم منها سوء الطوية لأمرها أن تعيد إسلامها، وأن تتلفظ بالشهادتين.

(٢) عن أنسٍ، قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتعشأ، فقالت فاطمة عليهما السلام: «واگرب أبتابه» فقال لها: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ». فلما مات، قالت: يا أبتابه أجاب ربّا دعاه، يا أبتابه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتابه إلى جبريل نعاه. فلما دفن قالت فاطمة عليهما السلام: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ أخرجه البخاري برقم: ٤٤٦٦.

على أنني ما قصدت التعميم في كل من ردّ على هذه القصيدة، لأنّه لن يخلو الحال من منصف يخرج عن رأي جماعته، ويفتح نوافذ عقله، لينصاع إلى الحق، ويحكّم العلم، ويُعمل موازين الفهم في كلام الخصم، فأنا مع شدة حي للقصيدة، وحفظي لها، وتكراري الدائم لأبياتها، أراها قصيدة من شاعر أديب ذوّاقة، وليسنبياً مرسلاً لا ينطق عن الهوى، فيؤخذ من كلامه ويرد عليه.

لكن المنصف يُقابِل - لا محالة - بالعداء من أبناء مدرسته، تدري لم؟ لأن التقليديين يقرُّون بعضهم، ويحاربون مَنْ خرج عن خطّهم.

محاربة المبتكر، وإقرار التقليدي

وسأشرح لك هذا: لو أَلَفَ أَيُّ كاتب كتاباً في أربعين حديثاً في فضل الجار؟ هل يجد اعترافاً؟ لكن المجدّد هوَ مَنْ يناله الاعتراض، وربما بُولَغَ في الخصومة إلى حد الفجور.

وما أحيلَ الحربَ من عدو مقاتل، ولكن تبَّا لها إن كانت من أخ لصيق. ولا تنس أن هذا مثال يصدر من كل مدرسة، فلست أبْرئَ رُوَادَ المدارس الأخرى من التعصب والخصومة العلمية، والفسور في الردود، والشَّهِم من غير تقوى، وتحميل الكلام ما لا يحتمل، والإلزام بلازم الكلام، وإفشاء السمعة السيئة، والافتراء من غير أصل، وتقديم سوء الظن على حسنِه، وهلم جرا.

والسؤال الآن: لم لا ينال الأذى إلا من خرج عن خط مسير الناس؟

الجواب: هو خلق قديم، لأن الناس يألفون ما اعتادوا عليه، وتتفرط باعهم من التغيير، ومن القديم قال معارضو الرسل لأنبيائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا إِبَائَةَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ إِثْرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقلها أبو جهل وبعد الله بن أبي أمية لأبي طالب عند النزع: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)? وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يُبَايِطُونَ اللَّهَ يَحْمَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

مرحباً بكل مناقشة علمية ورد، فإن كان الفجور في الخصومة خلقاً من أخلاق المنافقين في توافة الدنيا، فإنها لأشد وأعظم في أمور العلم ونقل الشريعة.

عداء متوجه

عاداك غيابياً دون سبق معرفة، ولو رأك لتغيير كثيراً، وكم في الناس من ناصب غيره العداء، حتى إذا فقد أخاه لم يجد بدليلاً عنه، ولم يعرف له شبيهاً! وذلك لأن مشكلتنا ليست بالصدق، وإنما بالتصديق، فالكل صادق، ولكنه متحفظ على أخيه، فهناك الذي يتحفظ للعداء المدرسي، وهناك من يتحفظ لتوهم الغلط، وهناك من يتحفظ على الشخص كله من أجل مسألة من صغار المسائل التي بلغته، وهي صحيحة، وأنكها وأشدتها من يخون

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧٥، ومسلم برقم: ٤٦٧٦.

أخاه الصادق الذي لا تكاد تعرف عنه شائبة سوء، ولكن الزَّلَلَ بلغه - والبلاغُ كاذبٌ -، أو ظَنَّهُ - والظنُّ كاذبُ الحديث -، أو تَوَهَّمَ والوَهْمُ يشبه السَّمَادِير^(١).

قال لي أحد شيوخ حلب: لما ردد علي فلان من الخطباء على المنبر، ومسح سمعتي بأرض المدينة، حملت في قلبي عليه من الغيظ كَمًا يزيد يومًا بعد يوم على امتداد عَقْد ونصف، ثم شاعت حكمة الله تعالى أن ألتقي به في مجلس عام، فلما دنا مني وكلمني ألفيته كُتْلَة لُطْفٍ وأدب وحياء، وكنت أَزِينُه من خلال رفع صوته على المنبر، ولو سئلت عنه قبل لقائي به لأوصيت أحفادي أن يُتَرَّبُوا وجوه أحفاده لما له من الغيظ في قلبي، ولكني فوجئت به أنه عالم تقىٰ، خانه الموقف، وأخطأ التقدير في الرد علي.

أنكر أحد العلماء على بعض أتباع الطريقة النقشبندية صِرَاطَ بعض المریدین، وذلك عند ذكر الرسول ﷺ، أو ذكر الشیخ، أو أحد الصالحين، وأبدى إنکاره، وكلم هذا العالم شیخ الطريقة في هذا، وشیخ الطريقة رجل علم وصفاء لا يظُنُّ بمسلم إلا خیرًا، فراجع الشیخ التقى بعض أتباعه، فأووهمه الكاذبون منهم أنه حال صادق، مما جاءته ذرۃ احتمال أنهم كذبَة، فصدقَ الشیخ حالمَ، ولا غرابة، فهذا من تقواه وحسن ظنه بال المسلمين.

ولكن الواقع فرضت شِقاً بين الشیخین، وتخاصم الشیخان: الناصح

(١) في لسان العرب، مادة: «سمدر»: «السَّمَادِيرُ ضَعْفُ البَصَرِ، وَقَدْ اسْمَدَرَ بَصَرُهُ»، وقيل: هو الشيءُ الذي يُتَرَأَى للإِنْسَانَ من ضعف بصره عند السكر من الشراب، وغثُّي التَّعَابِينَ والدُّوَارِ».

والمنصوح، وأذكى طلابُ كل شيخ نار الفتنة من خلال حبهم لشيخهم، بحسن نية أو غير ذلك، واعتقادهم وجوب نصرته، فلما توفي الشيخ المنكر للصراخ أراد طلابُه التواصل مع شيخ الطريقة، وما إن جالسوه حتى اندهشوا بشدةً طيبه، وصفاء قلبه، وقد حدثني أحد شيوخي من كان في الزيارة قائلاً: ما كنت أظن في الوجود قلباً صافياً كهذا القلب، وندمنا على أيام اشتَدَ الخصام فيها من غير مبرِّرٍ، وكان الواجب أن نقبل الاختلاف، لتصافح قلوبنا، وتعاون عقولنا على هداية شباب بلدنا.

قَبَحَ اللَّهُ وَهُمُ الْعَدَاءُ، وَلَيْلَ الْهَجْرُ، وَظَلَامَ الْقُطْبِيَّةِ، مَا أَضَرَّهُمْ! فَمَنْ كَانَ مَعَادِيًّا فَلَيْكَنْ مَتْحَرِّيًّا قَبْلَ الْعَدَاءِ، وَمَنْ كَانَ مَقَاطِعًا فَلَا يَقَاطِعُ أَخَاهُ إِلَّا عِنْدَ الْخَبَرِ الْقَطْعِيِّ فِي سَوَءِ وَفَحْشٍ يَسْتَحْقَانَ ذَاكَ الْهَجْرِ الْمَشْرُوعِ.

ذمه من باب الاحتياط

ضحكَت بشدة وأنا أستمع إلى حديث أنيسي يقول: إن طبيباً وضع يده على بطن مريض، وتَكَهَّنَ أن به المرض الفلافي، وطلب صورة توضُّح حقيقة المرض، وبالغ في إثباتات كلام نفسه، وهو يقول: ستثبت لكم الصورة أنني أسرع منها، وأنني أكشف المرض مجرد لمس بطن المريض.

وشاءت حكمة الحكيم أن الصورة أثبتت ألا ذرَّةً من المرض الذي سماه، وإنما هو وجع زائل، وألم عارض، فشعر الطبيب بالحرج، فطلب نوعاً ثانياً من التصوير أدقًّا وأعلى، فكانت النتيجة أثبتَ وأوضحَ، فشعر بالإحراج أكثر، وكأن عيون أهل المريض تقول له: لقد نزلت من أجفاننا، فطلب نوعاً من التحليل في بلد آخر، وصرَّح لبعض مَنْ حوله: أَنَّ أَمْلَهُ بِاللَّهِ كَبِيرٌ أَنْ يَكُونُ

المرض موجوداً، وأن تثبت صحة كلامه.

أيُّ رُعُونَةٍ وصلَّها هذا الحَرَّار بـلحوم البشر، الذي لا يرفق بـمريض بين يديه، بل يرفق بكلام رماه من غير ميزان، وضَحْمَتْ نفسه في عينه حتى راهن في ثنايا عباراته، ثم لم تطاوِعه أَمَارته بالسوء أن يُظْهِر البهجة والفرح والسرور بـبراءة المريض من خبيث المرض.

بعض الناس في الدعوة يطعنون بالمرء من باب الاحتياط، فتسمي لهم داعياً قد نفع الله به، فيسكت ولا يجيب، وهو يبحث سرّاً عن خطأ له، وربما فاه بكلام وإشارة يد تقول: اغسل يديك من فلان.

تسأله بكل براءة: وهل علمت عليه شرّاً؟

يجيبك: قلبي لم يرتح له.

وسوِيَّداء قلبه وفَلَتَاتُ لسانه تسأله أن يزَّلَ ذاك المذموم بـهَفْوَةٍ أو سَهْوَةً أو خطأً، كي يخرج إلى الناس ويقول: ألم أقل لكم: إن نفسي لم ترتح له. سامح الله من فرح لزلل الدعاء، وهدى من تناهى قاعدة السَّتر على المسلمين، والله در رجال الدعوة والتَّبليغ، فقد تعلَّمت منهم درساً في صفاء القلب هَرَّني: فإنه إذا انتُدِبْ أحدهم للكلام تَوَجَّهَ أصدقاؤه بالدعاء إلى الله تعالى، أن يوفق أخاهم ويكتب في كلامه الـهدى والـهداية، وهم يستمعون كلامه، ثم يشكرونـه بعدهـا، ويعززـونـ الكلـام بالـثناءـ عليهـ.

مقلّد يَعِيبُ عَلَى مُقلّد!

كل حزب بما لديهم فردون، ولغيرهم مُتَّهِمُون، نَتَّهِمُ غيرنا بأنه من أهل

الأهواء، وفي صفوفنا أصحاب الأهواء، وهم مقلدون لا مبدعون، تعلم وأنت خالي الذهن، وإذا ما عرض أمر جديد فحذار من معارضته ورده، إلا إن ثبت لديك الدليل بما يؤيد مشاك.

كنت في سفر، وجرت مسألة الجمع في السفر، فقلت لصديقي: مذهبنا الشافعي أنه يجوز الجمع تقدیماً وتأخیراً، فما مذهبکم؟ قال: ليس لنا مذهب، نحن نأخذ بالكتاب والسنّة، قلت: وما الرأي الذي تأخذون به؟ قال: جواز الجمع تقدیماً وتأخیراً.

فلما توسيّعت قليلاً في إعلال بعض المحدثين بعض أحاديث الجمع تعجب صديقي، فقلت: يا فلان، أنت لست بمجتهد، وإنما أنت مقلد لشيخك، وما لدى مانع أن تكون مقلداً لشيخك، ولكن المانع أن تدعى الأخذ من الكتاب والسنّة مباشرة، وأنت تبرأ من التقليد، والواقع أنك لم تجمع أحاديث الباب، ولم تدرس النصوص، ولم تُعمل الأدلة، أمّا أنا، فقد كنت أشجع منك، إذ كنت مقلداً واعترفت بهذا، ولم أتبجّح بدعوى الاجتهاد مع الفراغ، ولعل انتقامي في هذه المسألة أكثر توفيقاً من انتقامك، فقد اخترت فحلاً من فحول أئمة اللغة والأصول والفقه، وهو الشافعي المطلي (ت: ٢٠٤ هـ) رحمه الله وقلّدته، وفقهه صرحاً يَعمل على تصحيحه وتنقيحه وتحسينه أئمّة على مدى القرون، أمّا أنت فقلدت معاصرًا منفرداً.

لم يرق لصاحب هذا الحوار أبداً، وما كنت أدرى أن هذا الحوار الأخوي سيسبب لي قطيعة أخ أحضر على ورده، وصلّتي العلمية به.

كم عاب الناس على بعضهم التعصب، وذلك في رمي غيرهم، أمّا إذا

انتقل الأمر إلى ساحتهم جعلوا التعصب تمثّلاً بالمبادئ، وأليس التّحبيّر قناع الثبات على النهج الصحيح.

قام عدو من أعداء كتاب الإحياء للإمام الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله، وتبئّنَّ مسألة من مسائل الإحياء، ثم طرحتها على غارق في بحر حب الإمام الغزالي، لكن هذا الغريق تحسّس من الرجل وردها ردًا عنيفًا، وأغلظ القول على أصحابها، وما درى أنها من كنوز «إحياء علوم الدين»، فلما بالغ في الشجب وأغلظ في الإنكار كشف القناع أخوه وأخبره أن هذا عين ما قاله الغزالي رحمه الله، ولكن بغضّ الناقل أصبح حاجزاً على عين السامع، فلم يفكّر بعقله ما لو كان الكلام صحيحاً أو خطأ.

فمُتَحرّر العقل يناقش الفكرة، وصاحب الهوى ينظر مَنْ القائل أو الناقل لها، وصدق الله القائل في إنصاف الخصم: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنَاطِرِ يُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَكَ لَا يُؤْدِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وصدق رسوله ﷺ القائل لأبي هريرة رضي الله عنه واصفاً الشيطان الرجيم: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١).

النائم لا ينقد الحارس السهران

يبقى المؤلف في تأليف كتاب ما سنّة كاملة، وهو يراجع فيه ويعدلُ

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٥٠١٠.

وينقُّح ويريدُ ويُقصُّ، ثم يقدمه هدية لأحد أصدقائه، إذا بالرجل يمسك الكتاب وهو غير راض أن يقرأه، يسأل المؤلف: عن ماذا يتكلم الكتاب؟ فيجيبه: عن مسألة كذا.

العابت الكسول: وهل مشكلتنا في هذا الأمر الجزئي الصغير؟ برأي لا فائدة من هذا الكتاب.

من أعجب ما شَيَّب عقلي، ما حصل مع بعض الشيوخ، حيث إنه ألف كتاباً، وعرضه على أقرانه قبل طباعته، ليزدُّوه بالملحوظات والوقفات، فما نشط واحد لقراءة الكتاب، وليس في الأمر غرابة، إنما الغرابة أن ينشط الجميع إلى قراءته بعد الطباعة، ثم كل منهم يكشف الوشاح عن وجه خُلقٍ أسودٍ من أخطاء الكتاب وهو كظيمٌ - حسب زعمه - ويقول مؤلفه: ليتك لم تكتبه ولم تطبعه.

نعم، وكذلك لا يجوز للجالس أن ينْقدَ المراِبط، ولا الكسول أن ينْقدَ صاحبَ العمل.

ولست مُبرِّئاً كاتباً من خطأ أو خلل، أفلأ يدرؤن أن صاحب العمل هو منْ تقعُ منه الأخطاء؟ ثم ألا يعلمون أن من لم يخطئ - من غير الأنبياء - هو الذي لم يعمل قط؟

نشَّط أحد العلماء فكتب في ترجمة عالم، وأزاح فرض الكفاية عن كاهلٍ كلٌّ تلامذته وعارفي فضله، الذين تقاعسوا عن ترجمة وَفَيَّةً بذلك الشيخ الراحل الجليل، وما إن رأى الكتابُ نورَ الشمس حتى سارع النقادُ إلى نقد الكتاب، وتَصَيَّدَ ما يرونَه أو يتراءى لهم أنه خطأ، مع إساءة الظن، وتحميل

السوء للكتاب فوق ما يحتمل.

أفلا تقدمتم لحمل عبء هذه المهمة؟ أم هو النقد من أجل النقد فحسب؟ أم هي رعونات طفت بعد ضمور، وأبْتَ إلا الظهور، بل أبي الله أن يترك بعض أصحاب النية الخبيثة حتى فضحه في ثنايا حديثه، وصفحات وجهه، وفلاتات لسانه.

رأيت شباباً من رجال الدعوة قد شمروا عن سواعدهم، ونشطوا في العمل لهدایة الناس، وصارت لهم صولات وجولات في تأمين فرص العمل الدعوي لإخوانهم أهل العلم.

سارع بعض الكسالي وسقط المتابع ومن لا يتحرّك خطوة واحدة ليحاسب ذاك الأبي الحر المغوار بقوله: من أين لك النقود؟ وما المعايير في التعامل مع الناس؟ وماذا قدمتم؟ والله لنحاسبنكم!

مهلا يا عزيز: أيحاسب النائم ذا الحركة والتحريك والنشاط؟

سبحانك! هذا تجاوز مهين.

فمن يحق له النقد إذن؟

ولا يفهم من كلامي إلا شيء واحد، وهو أن النقد حق لكل عامل، أما النائم فلا ينقد السهران، والمتقاعد لا يظهر أخطاء المتحرك.

وحذار أن ترد علي فتقول: القائد نائم، وقد ينقد وزيره وعامله! أقول: ما دام هو القائد فهو عامل وليس بنائم، أما النائم فهو ذو البطالة والتقاعس.

سمعت النقد الموجّه لمن اشتغل بالتصحيح والتضعييف من علماء هذا

العصر، وقد قيلتُ هذا النقد جدًا من علماء اشتغلوا في الحديث وقدَّمُوا أروع الصور، ولم أقبلهُ من رجلٍ لا يفرق بين «المدلّس» و«المرسلي الخفيّ إرساله» مثلاً، كما لا يفرق بين «المقطوع» و«المنقطع»، فلِمَ جاز للأول وحُظر على الآخر؟ لأن الأول عالم بما يقول، وصاحب جهود سامية فيما يقدم في علم الحديث، فهو متحرّكٌ يرد على متحرّكٍ، أما الحُمُول فليس بأهل أن يرد على الدّؤوبِ.

ومثلها أضعف منْ قرأ الكتب قراءة من غير ممارسة، كمن قرأ مئة كتاب في إصلاح السيارات دون أن يمارس الصنعة بيده، هل يحق له العبث؟ وأعظم منها من قرأ الكتب الكثيرة في إصلاح الطائرات ولكن دون التدريب العملي، ومثله من قرأ مئة كتاب في الطب، ولا يقدر أن يعمل عملية واحدة.

حقّ ما تريده من عمل، ولكن من أهل العمل والحركة، ولا تكون من أهل الكسل والنوم، ولذلك الحق أن تفلي أعمال غيرك من العاملين بكل رحابة صدر.

أختتم بالحديث عن شيخ التقىته، وقد رد على أحد شيوخي، فشكرته شكرًا بالغاً، وقلت له: لم أوفقك علميًّا في الرد على شيخي فلان، لا لأن الشيخ شيخي، - خبُثْ إذن وخسِرْتْ إن فعلت هذا، ولا بارك الله بطالب الحديث إن غدا ولا وله لغير الحديث النبوى الشريف - لكنَّ شُكْرِي لك لأنك أديب في الرد، رصينٌ في المناقشة، سَلَكْتَ طريق الرد الصحيح، بعلم وفهم، فكلامُك محترم وإن لم نتفق في النتيجة.

المراهقة الدعوية

أشبه المراحل الدعوية عند من يمارس الدعوة بالمراحل العُمرية، فهناك من دعوته في سن الرضاع والمهد، ومنهم من في الطفولة المتأخرة، ومنهم من في المراهقة، ومنهم من بلغ التضيّع مع القوّة، وهو الكُهُولَةُ، وبعضهم وصل الشيخوخة، وأخرهم قد رُدَّ إلى أرذلِ العُمرِ والحرفِ والتخلّي.

وقليل من يكون في مرحلة النُّضُجِ، وما أكثر أهلَ المراهقة!

تمثّل بعض المدارس مرحلة المراهقة الدعوية، وكثير من الناس يعرف أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الأفعال والأراء والتصرفات والقرارات غير المتنّنة، وقد تجد فيها اتزاناً ونبلاً وعقلاً، ولكن هذا خير في غير مظانه.

المراهقة الدعوية: ليست سناً معينة، بل وصف لحالة من اختل ميزانه الدعوي، واضطرب سُكَّانُ المركب لديه^(١).

فمن صفات مراهق الدعوة - ولو كانت سنه بلغت السبعين -

- ضياع سُلْمَ الأولويات، فقد يعمُل بالملபضول ويترك الفاضل، ويعادي القريب الحميم ويتودّد لعدوًّا أبعد.

- تكبُر في عينه جزئيات وكأنها كليات.

- يحمل الظني الذي تبنّاه حمل القطعي ويحاسبُ عليه.

(١) السُّكَّان هو ما نسميه المِقوَد في وقتنا، وهي الخشبة التي تعدل السفينة في توجهها. انظر: «لسان العرب» مادة: سُكَّن.

- ليس لديه نص حماًل أوجٍ.
- ظاهرية الفهم للنص والركون إليه.
- يرى نفسه - أو جماعته - المرجع الأوحد الذي يمثل الصواب.
- رأيه صواب لا يحتمل الخطأ ولا ذرة.
- أكثر حروبـه مع الأقربين لا الأبعدين.
- يصرخ ويرفع صوته مع الأقربين للدفاع عن فكرته، وكأنه يخاطب عدواً.
- أكثر حروبـه مع من يلائمه وييلئـ في يديـه، ولكنه سميع مجـيب لمن يتسلـط عليه بعنـف.
- التـحولات عنـده من أقصـى اليمـين إلى أقصـى الشـمال.
- تـبعـية الأصـغر للأـكـبر تـبعـية عـمـيـاء.
- من يتـجاـوز هذه المـرـحلـة يـعلـن تـرـكـه لها وـتـبـرـؤـه منها.
- كـثـير الـاضـطـرابـات في العـلـاقـة مع النـاسـ.
- لديه الاستعلـاء المـنهـجي، وـتـأـبـطـ الحق مع الإـخـوة الأـقـربـين^(١).
- عـلـاقـته مع أـبـنـاء مـرـحلـته عـلـاقـة التـعـصـبـ.
- شـرـسـ الأخـلاقـ مع من يـعـدـه خـصـماـ.

(١) التـعبـير بـ«الـاستـعلـاء المـنهـجي» أـفـدـته من فـضـيـلة الدـكـتور عبدـالـكـرـيم بـكارـ حـفـظـه اللهـ.

- المراهقون معجبون بما يأتون، وغير مُقِرّين لأعمال غيرهم.
- أكثر إنكارهم المنكر بمنكرٍ، وأمرِهم بالمعروف من غير معروفٍ.
- يُجْرِون الظنون مجرى اليقين، ويحاسبون الناس على هذا الفهم الشديد.
- إن تَحْمَسُوا كانوا كسيارة تهوي دون كوابح، وإن أمسكوا أضحووا معملاً سُبِّحَ منه تيَار الكهرباء.
- منطق المزايدة يكثُر في حديثهم.
- هم أغراً، الحق والباطل عندهم لونان لا تدرج بينهما، والحياة عند الغِرّ عامة كلودة مقسمة إلى قسمين: نصفها أبيض والآخر أسود متلاصقين، وليس بينهما منطقة رمادية، لكن طبيعة الإنسان كلما تقدمت سنُّه توَسَّعَت مساحة المنطقة الرمادية على حساب الأبيض والأسود، حتى يفارق الدنيا، ومساحة الأبيض صغيرة جدًا، والأسود كذلك، وأكثر لوعة الخبرة عنده رمادية.
- من تَخْرَجَ من هذه المرحلة لا يستطيع الانتساب إليها بحال، بل يعُدُّها تاريχًا مضى، ومرحلةً دَرَجَت.
- المتخرج من هذه المرحلة أمرٌ مغضوب عليه مُتَبَرّأً منه من قبل أبناء الصبا والمراهقة، ويعدونه من المتساقطين في الطريق.
- لئن تَخْرَجَ أحد المراهقين من هذه المرحلة غالباً ما تَشِبُّ الحروب والضغائن من المراهقين نحوه، دون عكس.
- في أوصاف أخرى، ولكن هذه أهمها.

ليس في الدعاة من ولد في سن الرشد والسداد

ولا يكاد يخلو الكثير من الدخول في مرحلة المراهقة الدعوية، وهي بوجهة نظرى كالخدمة العسكرية الإلزامية لأبناء الوطن، منهم من دخلها غير محب لها، ثم خرج بأسرع ما يمكن، ومنهم من عاشها بمحاذيفها، واستمتع بكل لحظة فيها، ومنهم المخلص لها الذي تطوع فيها أكثر عمره، حتى أصبح عظيم المراهقين، ومحرّج المراهقين، وأصبحت أخلاقه مرجع المراهقة، ومدجنةً لتفريخ الأغرار.

أما منهج رسول الله ﷺ، فهو البالغ ذورة الكمال، من بعد النظر، ولين النقاش، فهو القائل ﷺ في صلح الحديبية: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قَرِئْشُ الْيَوْمَ إِلَى حُكْمٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةُ الرَّحِيمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»^(١).

وقد أسلم الصحابة رضي الله عنهم فانتقلوا من الظلمات إلى النور، ولكن خبرتهم في البدايات ضئيلةٌ صغيرةٌ، نماها لهم رسول الله ﷺ وعدّها وصحّها وكبّرها، فانظر إلى مثال يخص التفكير بعقلية الأبيض والأسود، وانحسار المنطقة الرمادية، عند المتحمس، فهو يحب الصرامة، ولا يرى إلا لونين: أبيض وأسود، وذلك في يوم الحديبية: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ مَا شَكَكْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْتَ نَبِيًّا اللَّهَ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلٌ». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحُقْقِ وَعَدْوُنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلٌ». فَقُلْتُ: عَلَامَ نُعْطِي الدِّينَيْهِ فِي دِينِنَا إِذَا وَنَرْجُعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ تَاصِرِي وَلَسْتُ

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم: ٢٧٣٤.

أَعْصِيهِ». قُلْتُ: أَوْلَئِكَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِ الْبَيْتَ وَنَظُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَّ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَام»؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتَيْهِ وَمُظْوَفٌ بِهِ. قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرَ فَقُلْتُ لَهُ كَمَا قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَدَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٌ كَمَا رَدَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَوَاءً، وَزَادَ: فَاسْتَمْسِكْ بِعَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ^(١).

وشتان ما بين رؤية رسول الله ﷺ، ورؤية سيدنا عمر رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن كم طالت مدة هذه النَّظَرَةِ عند فاروق الإسلام؟ وكم كان يبقى الموقف بين يديه ليفكر به ويتطور من حاله؟

إن شئت فاقرأ الحادثة لما أشكلَ عليه مسألة صلاة رسول الله ﷺ الجنائزَ على رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول عندما مات^(٢)، فما استغرق الموضوع بين يدي فاروق الإسلام دقائق يسيرة، استفسر عن شبهة كانت في ذهنه، ثم سلمَ تسلیماً، ولو أن سيدنا عمر رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقنع لزad في الاستفسار حتى تزول الشُّبُهَةُ.

ومن أهم مواطن تركيز القرآن على إثبات المساحة الرَّمَادِيَّة قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءٌ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقْنَطِرٌ بِيُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمَنْهُ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُدِينَارٍ لَا يُؤْدِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

(١) هو جزء من الحديث المخرج في الحاشية الآنفة.

(٢) انظر الحديث بتمامه ص: ١٨٧.

والمنافقون ليسوا سواء، ففيهم شيطانهم الأكبر عبد الله بن أبي، وفيهم الذئب: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

وم المؤمنون ليسوا سواء: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَفَنَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

والصحابة العظام الأخيار ليسوا على مستوى واحد، ففيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم الأعراب الذين نادوا الحبيب ﷺ من وراء الحجرات، ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبه: ٤٧]، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِيمَانًا قُلْ لَمَ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيَّانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَكُمْ مَنْ أَعْمَلْتُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وما رَكَّزَتُ الكلام على التوازن في الحكم على الأبيض والأسود إلا لвшوّ هذا المنطق في أبناء الدعوة، والسعيد من ولد صغيراً ثم كبر حتى بلغ الرُّشدَ ووقف عنده، لكن الخسارُ من ولد صغيراً حتى وصل المراهقة فأقام عندها وعاش فيها، ولم يغادرها.

لاتنس رقم معدك

إذا رَفَعَكَ الْكَبَارُ فَلَا يُخْطِرُ بِيَالِكَ أَنَّكَ مِنْهُمْ، بل تذكر سنّكَ وأسْنَادَهُمْ، وعلَمَكَ وعُلُومَهُمْ، وحَجْمَكَ وأحْجَامَهُمْ، وتأثِيرَكَ وتأثِيرَاتَهُمْ.

كنت أَعْجَبُ من أحد الإخوة وهو نَابِي ذكي، له جاذبية في خطف قلوب الكبار، بحسن حديثه، ووعيه، بل ودهائه، فهو قادر على أن يجلس إلى العالم وقد أَطْلَعَ على بعض كتبه، فينشئ الحديث الموافق لما في كتاب العالم، فيخطر ببال الشيخ أن هذا الشاب الناشئ يحكي هذه الأفكار الناضجة من بنات أفكاره، فهو لا يوافقه في الفكرة فحسب، بل توصل إلى نُصْبٍ مَا وَصَلَهُ الشِّيخُ إِلَّا بَعْدَ عِنَاءٍ وسَنِينَ.

ومن عادة الكبار أنهم إذا رأوا نبتة صالحة شجّعواها وثمروها وكبّروها، قدْ دُوَّتْهم في هذا رسول الله ﷺ الذي رأى التفاني في الحديث من أبي هريرة رضي الله عنه فشجّعه، ودفعه، فقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَذْسَاهُ، قَالَ: ابْسُطْ رِدَائِكَ فَبَسَطَهُ، قَالَ: فَعَرَفَ بِيَدِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «صُمَّةُ»، فَضَمَّمَتْهُ فَمَا نَسِيَ شَيْئًا بَعْدَهُ^(١).

وفي رواية مسلم^(٢) قال أبو هريرة رضي الله عنه، قال: يَقُولُونَ: «إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدْ أَكْثَرَ وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَا بَأْلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يَتَحَدَّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ، وَسَأْخِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ إِخْوَانِي مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغُلُهُمْ عَمَلُ أَرْضِيهِمْ، وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغُلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مُلْءِ بَطْنِي، فَأَشَهَدُ إِذَا غَابُوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمًا: «أَيُّكُمْ يَسْطُطُ تَوْبَةً فَيَأْخُذُ مِنْ حَدِيثِي هَذَا، ثُمَّ يَجْمِعُهُ إِلَى صَدْرِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ شَيْئًا سَمِعَهُ»، فَبَسَطَتْ بُرْدَةً عَلَيْهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٩

(٢) برقم: ٤٩٦

حدَيْثِهِ، ثُمَّ جَمِعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ شَيْئًا حَدَّثَنِي بِهِ، وَلَوْلَا آتَيْنَا أَنْرَاهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مَا حَدَّثْتُ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُهَدَّى﴾ [البقرة: ١٥٩]، إِلَى آخرِ الْآيَتَيْنِ.

ولما رأى النبي ﷺ حرس ابن عمرو على الكتابة شجعةً ودفعهُ نحو الهدف، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: كُنْتُ أَكُتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَيْتُنِي قُرْيَشٌ، وَقَالُوا: أَتَكُتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتُرُ يَتَكَلَّمُ فِي الْعَضَبِ وَالرَّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأْتُ بِأَصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: «اَكْتُبْ، فَوَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١).

وعوداً إلى خبر ذاك، حيث إن الخطر الذي أصابه نوعان:

الأول: أنه أصبح يجلس في المجالس ويرى نفسه جزءاً من مجالس الكبار، ولا تسمع من حديثه إلا: اتصل بي الشيخ فلان وقال لي، واتصل بي فلان واستشارني، وقال لي فلان: كذا، فقلت له: لا، لا تفعل، وفلان وفلان من المذكورين هم طبقة شيخوخ شيوخه.

والثاني: أنه استصغر كل أقرانه ومن دون طبقة الكبار.

والرجل أحرق نفسه وطُرد من مجالس الأكابر بهذا التبجح المموج، ذلك لأنـه - من وجهة نظري - قد ضلَّ رقمَ المبعد الذي يجلس فيه، ولو أنه أدرك أنه صغير القوم، وأدخله الكبار إلى صفوفهم حُبًّا في العلم، وتشجيعاً

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٣٦٤٦، وهو صحيح.

على الشبات والنبات لما ظهرت منه هذه الحروف الباردة، التي يقال فيها المثل:
 «اثنان أبد من اليَخْ، شيخ تصابي، وصبيٌ تَمَشِّيخ»^(١).

نسى هذا الشاب أن مَقْعَدَهُ الْحَقِيقِي خارج هذه القاعة، بل في قاعة الصبيان، وإنما أدخله عَلَيْهِ الْقَوْمَ بَيْنَهُمْ لِيُصْبِحَ كَبِيرًا، وَتَأْمَلُ حَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِمَا فَعَلَ مَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْعَمَلُ بِالذَّاتِ، فَأَدْخَلَهُ مَجْلِسَ الشُّورِيِّ الَّذِي لَا يَحْضُرُهُ إِلَّا أَشْيَاخُ بَدْرٍ، فَهَلْ عَظَمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ؟ أَمْ هَلْ رَأَى نَفْسَهُ جُزًّا مِنْ ذَاكَ الْمَجْلِسِ؟ أَنْسَى مَقْعَدَهُ الْحَقِيقِيَّ وَأَقْرَأَهُ الْأَصْلَ؟

فَاسْمَعْ الرَّوَايَةَ مِنْ فَمِ ابْنِ عَبَّاسٍ، لَأَنَّهَا أَحْلٌ وَأَغْلَى:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَقِيقَ مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَا هُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُؤِيَتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِنْ إِلَّا لِيُرِيهِمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ وَرَأَيْتَ الْأَسَاسَ يَدْخُلُوكُمْ فِي دِينِ اللَّهِ أَفَوْجًا﴾؟ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمِدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصْرَنَا وَفُتَحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا؟ فَقَالَ لِي: يَا بْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَّاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

(١) يَخْ: كَلْمَةٌ فَارِسِيَّةٌ تَعْنِي: الشَّلَجُ، أَوْ: الْجَلِيدُ. انْظُرْ: «فَهْنَگْ دَانْشَگَاهِی» فَارِسِيٌّ عَرَبِيٌّ، مَادَّةٌ: يَخْ، ص٨٠٦، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ، طَهْرَانُ، ١٣٨١، هَجْرِيٌّ شَمْسِيٌّ. وَانْظُرْ: «الْمَعْجمُ الْفَارِسِيُّ الْعَرَبِيُّ الْمُوجَزُ» لِلْدَّكْتُورِ: مُحَمَّدِ التَّوْنِيِّيِّ ص٦٢٠.

وَالْفَتْحُ ﴿ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةً أَجَلِكَ، ﴾ فَسَيَّعَ حَمْدُ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ﴿، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ﴾^(١).

دون مبالغة أقول: لو ظهر من ابن عباس رضي الله عنهما - وحاشاه من ذلك - تبجح وتعال لما سكت أشياخ بدر، ولقالوا لعمر: هو ناضج الفكر ولكن انظر كلامه وسلوكه، بل ما سكت سيدنا عمر عن هذا، وفي روایات توضح كيف كان ابن عباس يجلس إلى عمر رضي الله عنه جلسة الطالب المتأنب، بل الخادم المتفاني في الخدمة، المتقرّب إلى الله ببسالٍ، يخدمه في ماء استنجائه ووضوئه، يسأله عن العلم، فاقرأ بعضها في صحيح البخاري في قصة زوجتي رسول الله ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ أَزُلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتَّيْنِ قَالَ اللَّهُ لَهُمَا:
إِنَّ نَوْبَةَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿ فَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَعَدَلَ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ
 بِالْإِدَاؤَةِ، فَتَبَرَّزَ حَتَّى جَاءَ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاؤَةِ، فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنِ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتَّانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا:
إِنَّ نَوْبَةَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿، فَقَالَ: وَاعْجِي لَكَ يَا بْنَ عَبَّاسٍ: عَائِشَةُ،
 وَحَفْصَةُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرَ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ^(٢).

وأختم بقولي: كم نال الألمعي بذكائه - بعد توفيق الله تعالى له - من أماكن يستحقها، وربما فوق ما يستحق، ولكن كم دمر نفسه وكان الذكاء

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٨، ومسلم برقم: ١٤٨٠.

سبَبَ مَهْلَكته! وكم رعى الله أقواماً بتزكيتهم لأنفسهم، وغَرِقَ آخرون في
أحوال حظوظ النفس والتطلع للدنيا!

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَىٰ فَأَوْلُ مَا يَقْضِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ





العلاقة مع المدعويين





ابحث عن مفتاحه الصحيح

لكل إنسان مفتاح يفتح قلبه، فلا يُغريه شيء آخر، ولن يُلِيقَ من قلبه، فضلاً عن قلب قلبه، وأنجح الدعاة أثراً من عرف مفتاح كل قلب ليفتحه، وتناسب المعلومات، وتتركز الهدية المهدأة.

فمن الناس من يفتح قلبه الحديث عن حب الله تعالى، وثان تجذبُه النصوص النبوية والمؤثرة، ومنهم من تجلبُه المحاكمات العقلية، وفيهم من يطرب للإحصاء والمعلومات الدقيقة، ولن تَعْدِمَ مَنْ يهوى الشعر، وهكذا تنوع الرغبات.

ومجرد الحديث مع مَنْ تَدْعُوه ببضعة أسطر يظهر للمتكلم هوايات الناس، وهذا فيما لو كان المقابل واحداً.

أما عند الخطاب الجماعي فلا بد من تنوع الخطاب، وحذر حذار أن تجعله من نوع واحد.

ستتحقق الخطبة العقلانية البحثة، ومثلها الخطبة المتخصمة بالشعر، ومثلهما الخطبة العاطفية الغارقة، ولكن الخطبة التي تحتوي على هذه العناصر وغيرها ستكون خطبة كلوجة الفسيفساء.

ولطالما انتقد بعض الناس دروس فلان من الدعاة، ووصفها بأنها عواطف مُتَهَّرَّة، ولكنني أقدّر تقييم الصورة التي وقع بها هذا الواسف، فقد وصفها بالمتَهَّرَّة لأنَّه عقلاً يبحث، ودروس هذا الداعي خالية من العقلانية، ويغلب عليها العواطف، وعلى العكس، فكم حَكَّم بعض العاطفيين على

فلان أنه متفلسف، أجل؛ لأن كلامه عقلاني صرف، وهم عاطفيون.
وما أبدع التنويع في الخطاب الجماعي! بحيث يبقى الكل مشدوداً إلى كلام
المتكلّم، وروحه تنشد الفائدة الآتية.

ولتنويع الخطاب فائدة جديدة، ألا وهي: إلزام كل أحد بخطاب الآخرين،
فعلى سبيل المثال، عندما يتقبل العقلاني درسك من حيث الابتداء، فسيسمع
منه الخطاب العاطفي الذي لا يميل إليه من حيث الأصل، ولكن لا بد
للخطاب العاطفي المنضبط أن يؤثر فيه ولو قليلاً، حتى يصل إلى حد القبول
مع استمرار الأيام، ودوام سماع الخطاب.

فمفتاح القلب يبدأ من حيث ميول السامع، والنتيجة إيصال كل أنواع
الخطاب له، وبهذا تتلاعّق أفكار الناس، ويتنوع خطاب الداعي، وبهذا يتشبه
خطاب النبي ﷺ، الذي كان يحوي كل الأنواع، فلا يبقى جليس إلا وقد
حركه وأثر في قلبه.

ولم أتعرض لمسألة أحاديث الخطاب، فالداعي الذي يترکز خطابه على
العاطفة ينفر منه ومن خطبه وكلماته كل مخالف، ويلتف حوله الموافقون
فقط، المحبوّن لهذا النوع من الخطاب، وتنتهي عن هذه أخطاء عده:

١- انكفاء الداعي على نفسه ومن يلوذ به.

٢- عدم تلقيح أفكار الداعي وأبناء خطابه من نوع الخطاب الآخر.

٣- جنوح الكففة في الشخصية، بحيث يزداد العقلاني عقلانيةً، إلى حد
جفاف العاطفة، والعاطفي يزداد عاطفةً إلى حد رفض الخطابات الأخرى،

وهذا ما يُخلُّ في شخصية المسلم المتوازن، وخروجه هذه العلة من إنسان عادي إلى متطرف نحو نوع من الخطاب.

الأمن الصادق لاستيراد وتصدير المعلومات

ما أحوجنا إلى الأمان الحراري أو التعليمي أو أمن عرض المعلومات، كي يأمن المرء على نفسه من الطرد أو الزجر أو التصنيف المحرق المدمر، بسبب تصريح أو سؤال أو وجهة نظر أو توقع!

كانت إحدى المدارس الشرعية تلقن أبناءها أن الكلام المخالف للشرع المنسوب إلى ابن عربي الحاتمي الطائي (ت: ٦٣٨ هـ) صحيح النسبة، ولكن هو كلام ثقيل لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، فسمع أحد الطلبة شعراً لابن عربي فيه كفر، والأستاذ الملحق للطلبة يطارد أفكارهم بقوله: إياك أن ت تعرض على أولياء الله، ومثلك كمثل الطفل الصغير، الذي وضعوا في فمه لقمة كبيرة فلم يُسْغِها، فما اقتنع الشاب بكلام أستاده، وأسرَّ إلى أحد أصدقائه بعدم قناعته، وخشي المؤمن على الخبر أن يعاقب إن اكتُشف صاحبه المنكر فخرج مسرعاً إلى إدارة المدرسة يشكو صديقه، وقامت القيامة على رأسه، ولم يهدأ أمره إلا عندما فتح عينيه فرأى نفسه خارج المدرسة الشرعية، قد طرد منها، وبوجهة مسؤولي المدرسة أنَّهم كانوا ينصرون الله ورسوله بهذه الممارسة السامة، أيعقل طرد شابٍ من أجل مسألة كهذه؟ هل حاورته أو أقنعته؟ أو كنت على البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ.

ولقد حدثني أحد أصدقائي قائلاً: رفع طالب في الصف السابع - الأول

الإعدادي - يده أمام المدرس سائلاً: نعلم أن الله خالق كل شيء، ولكن ما الجواب على سؤال: «من خلق الله»؟

إنه لسؤال عارض، وبَدَهِيَّ أن يأتي به الشيطان الموسوس إلى ذهن مسلم كبير، بل إلى ذهن صحابي، فكيف بطفلي!

لم يكن ردُّ الأستاذ بحروف من الفم، بل كان يدًا تطير من أعلى الكتف إلى خدٌ طرِيٌّ كأنه خدٌ عذراء بريئة، وبعدها تمَّ إبعاد الطفل خارج المدرسة، ليقف ذليلًا حقيباً على أبوابها، يرجو رحمة الأستاذ، وشفاعة أستاذٍ مسماً مسماً لا يَقِل خطورة عن صديقه، وفي دقائق غليانٍ خدٌ الصغير المتَّالم يمُرُّ مُلْحِدًا فيرى الطفل يبكي، رقَّ له وحنا، وتواضع إليه وانحنى، وسألَه بكل رحمة: ما يُكَ؟ وما الذي أخرجك من الدرس؟

اعتذر الطفل خوف سطوة جديدة عليه، لكن المُلْحِدَ أصرَّ إصراراً شديداً: حتى أُجَابَه بما حصل.

وطار المُلْحِدُ فرحاً، وحُقَّ له ذلك، أفلأ يطير فرحاً بصفقة من قَصَبْ، لا تَعَبَ فيها ولا نَصَبْ! ألا يفرح بلُقْمَةٍ سائغةٍ، وجسِّدٍ غضٌّ وعقلٍ مَرِنْ، قد وصلته فظاظةُ الإسلام - حسب وجهة نظره السقيمة - على ظَبَقْ من ذهب، وصورةُ المُلْحِدِ صورةُ المخلص المخلص، والشفوقي الرحيم، كما أن صورةَ المعلم في ذهن الطفل المظلوم كجبار يريد العلو في الأرض والفساد!

مسح المُلْحِدُ دموعَ الطفل بلطف، وأخذ بيده كائناً القُطْنُ الصَّافِي، ليوصله إلى بِقالَةٍ ويُهَدِّيه بعضَ الْحُلُويَّات، ويُثْنِي على ذكائه الْوَقَادُ الذي اكتشف خُرافَة وجود الإله - على حد زعمه الباطل -

لَا وَاللَّهُ لَا تَوْصِفُ سَعَادَةَ الطَّفْلِ الَّذِي رَأَى مِنْ فَهْمٍ شَكْوَاهُ، وَشَكَرَ الْيَدَ
الْحَانِيَةَ الَّتِي أَقَامَتْهُ بَعْدَ سَقْطٍ، وَعَدَّلَتْهُ عَقْبَ انْكَسَارٍ، وَتَوَالَّتِ الاتِّصالَاتِ
وَالتَّوَاصُلَ بَيْنَ الْمَلِحَدِ وَالْطَّفْلِ حَتَّى شَبَ عَلَى الإِلَاحَادَ، وَصَارَ مِنَ الْمُقْتَنِعِينَ بِهِ
اعْتِقَادًا، مِبْنِيًّا عَلَى مَظْلَمَةٍ.

ثُمَّ لَمْ يَلْبِسْ فِي صَفَوْفِ أُولَئِكَ الْمَلْحِدِينَ إِلَّا بَضْعَةِ سَنِينَ، حَتَّى نَشَبَ قَتَالٌ
بَيْنَ الدُّرُوزِ وَتِلْكَ الْعَصَبَةِ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ، وَقُتِلَ ذَاكُ الشَّابُ الْفَقِيرُ فِي صَفَوْفِ
الْمُنْكَرِيْنَ لِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى!

مَنْ هِيَ الْيَدُ الْآثَمَةُ الَّتِي نَقَلَتِ الطَّفْلَ مِنْ مَوْحِدٍ لِلَّهِ إِلَى مُنْكِرٍ عَنِيهِ؟
أَلَيْسَتْ يَدُ الأَسْتَاذِ الْغَيُورِ عَلَى الدِّينِ فِي الظَّاهِرِ، الْخَادِمُ الْأَمِينُ لِأَعْدَائِهِ عَنِ
جَهَلٍ وَضَلَالٍ!

كَيْفَ يَحْرُؤُ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ أَنْ يَسْأَلَ أَيُّ طَالِبٍ أَيُّ سُؤَالٍ خَارِجَ السِّيَاقِ
الْمَأْلُوفِ؟ لَقَدْ أَرْهَبَ الْجَمِيعَ، وَكُمِّمَتِ الْأَفْوَاهُ، وَأَخْرَسَتِ الْأَلْسُونُ، وَطَوَى كُلُّ ذِي
شُبُّهَةٍ عَلَى شَبَهَتِهِ، وَلَكِنَّ الشَّبَهَةَ إِذَا لَمْ تُعْطَ مَا تَسْتَحْقَهُ مِنِ الْإِمَاتَةِ نَمَتْ
وَكَبَرَتْ حَتَّى تُسْيِطِرَ عَلَى صَاحِبَهَا، وَتُصْبِحَ مُعْتَقَدًا رَاسِخًا.

الأَمْنُ النُّفْسِيُّ وَالْفَكْرِيُّ فِي الْحَوَارِ

مَا أَصَبَّ النَّاقَاشَ وَالْحَوَارَ وَالْأَخْذَ وَالرَّدَّ إِذَا كَانَ أَحَدُ الْطَّرَفَيْنِ يَتَوَجَّسُ
خِيَفَةً مِنْ صَدِيقِهِ أَنْ يَصْرُخَ فِي وَجْهِهِ فَجَاءَهُ، وَأَنْ يَصْبَحَ الْمَارِقُ الْهَارِبُ فِي
لَحْظَةٍ!

مَا أَحْرَانَا أَنْ نُوَرِّعَ الْأَمْنَ النُّفْسِيَّ عَلَى مَنْ نَنْاقَشُ، لَتَهَدَّأْ نَفْسَهُ، وَلَا يَشْعُرَ

بِهِجُومِ ذَئْبِ التَّضْلِيلِ، وَالْأَحْكَامِ الْمُعْلَبَةِ الْجَاهِزَةِ!

لِمَ يُهَدِّدُ الطَّالِبُ بِالْطَرْدِ إِنْ سَأَلَ خَارِجَ الْمُؤْلَفِ؟ أَلَيْسَ الْوَاجِبُ عَلَى الأَكْبَرِ وَصَاحِبِ الْيَدِ الْظُّلْمَى أَنْ يَتَسَعَ لِلأَصْغَرِ، وَأَنْ يُعْطِيهِ الْأَمَانَ الْوَافِي لِلْسُّؤَالِ بِحَرَيْةِ، وَالْتَّعْبِيرِ بِمَا يَجْبُوُنَّ فِي النَّفْسِ؟

لقد حدثني طالب علم مُضطهَدٍ، أن مدير مدرستهم سمع عنه أنه يذكر لأصدقائه قول من يحيى المسح على الجوربين الصفيقين الشخين في الوضوء، وأنهما يقومان مقام حُفَّ الْجَلْدِ في منع وصول الماء، أرسل مسؤول المدرسة إلى الطالب، يستفسر منه بلهجة ظاهرها الحزم، وباطنها التهديد بالطرد، وحقيقة الضرب باليد، إن تكرر منه نشر هذه الفتوى الباطلة، وهذا التهديد جعله يطن الحكم دون اقتناع ببطلانه، بل ما سَنَحت له فرصة يُبْثُت فيها هذه الفتوى إلا نشرها بين يدي المالِكِين للمساحة الآمنة في الحوار.

لَكُنَّ الْعَجْبَ يَكْبُرُ وَيَعْظِمُ إِنْ عَلِمْتَ أَنْ ذَاكَ الْمُنْكَرَ الْمُهَدَّدَ قَدْ وَقَفَ بَعْدَ سَنِينَ طَوِيلَةٍ عَلَى فَتْوَى لَعَالَمٍ يَقُولُ بِهِ، فَجَعَلَ يَدِهِ عَوْنَانَهُ إِلَى الْمَسْحِ عَلَى الْجَوْبِ الْغَلِيظِ، اسْتَنَادًا إِلَى كَلَامِ مَنْ يَقُولُ بِهِ، سَبَحَانَ اللَّهِ! أَهَكَذَا حَالُ الْمُقْلِدِينَ الْجَامِدِينَ الْمُوَلَّعِينَ بِتَقْلِيدِ أَكَابِرِهِمْ دُونَ عَقْلٍ؟ أَيْصُلُّ بِهِ الْحَالُ أَنْ يَهُدِّدَ أَخَاهُ بِمَسْتَقْبَلِهِ؟ أَسْتَجَازَ تَوْتِيرَ أَعْصَابِ أَخِيهِ لِمَجْرِ تَقْلِيدهِ وَقَصْوَرِ بَحْثِهِ؟

وَلَيْسَ أَعِيبُ عَلَيْهِ التَّقْلِيدُ فَهَذَا فَخْرٌ لِمَنْ قَلَّدَ الْأَئِمَّةَ الْهَدَاةَ، وَلَكُنَّ الْعَيْبُ فِي قَصْوَرِ الْبَحْثِ، وَإِرْهَابِ النَّاسِ عَلَى رَأْيِ وَاحِدٍ لَيْسَ لَهُ أَخْ مُعْتَمِدٌ. أَمَا يَمْلِكُ الْمَرءُ مَنَا مِتَّرًا مِنَ الْأَرْضِ الْآمِنَةِ لِيُوقِفَ عَلَيْهَا مَنْ يُنَاقِشُهُ مِنْ

المخالفين؟ أما يسعنا إلا أن نفرض على القريب منا الوقوف على أرض مُكْهَرَةٍ تؤدي ثوانٍ وجوهه عليها، حتى نُسْعَ في انسحابه وهَرَبَه!
ولَا أَمْلُ من سُؤال طالما سأله: ما حال المخالف إن رأى الحق لاحقاً عند مخالفه المضطهد؟

وكم جالست من بني الإنسان من هو متصرف بالإرهاب الفكري، يسيطر على جليسه، وعيناه تدور كأنها الشرطة، ما أوقعت بأحد إلا انهار أمامها!

حوار مع البعيد، وإرهاب للقريب

توسّعت المساحة في الحوار مع الأجنبي، وضُمِّرت مع الولد، وفي حالتنا التي نعيشها، يهرب شاب من شبابنا إلى صفوف العدو، فيجد التلقّي والحفاوة، وتستقبله الصدور الواسعة، وتوسّع له المجالس، ويُلَان له الحديث، فيجد أبناءنا أصحاب التساؤل المساحة الحرة في الحوار التي كانوا يبحثون عنها، وقد فقدوها لدى آبائهم وذويهم، لكن الكرّة تعود مرة أخرى إلى العكس، لأننا أصحاب صدور واسعة، وعقول قبل الحوار مع أبناء العدو الذي هرب من أهله إلينا، فما لنا كيف نحكم؟

ألم يكن التوجيه الإلهي في استثمار القريب قبل البعيد؟ ألم يعلم الرحمن تبارك وتعالى نبيه في حادثة: ﴿عَسَ وَوَلَّ ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَخْمَى﴾ [عبس: ٢]. أن التضحية تكون فيمن قرب قبل من بعده، وأن العمل مع الصاحب مقدم على المخالف المتأمل به؟ ألم تفتح ساحة الحوار رحبة أمام الهاوب من الإلحاد اللاجيء إلى دينك؟ فلم أغلاقنها بوجه ولدك السائل عن أمور من صميم فكر مدرسة أخرى؟

لِمَ سُمِّيَتْهُ الْأَمْنُ الصَّادِقُ؟

وَمَا سَمِّيَتْهُ بِـ«الصَّادِقِ» عَبْثًا، بَلْ لِأَنِّي عَثَرْتُ عَلَى أَمْنٍ مُتَصَّنِّعٍ، كَالْجَاسُوسِ عَلَى عُورَاتِ النَّاسِ، الْمُتَوَاطِئِ مَعَ جَهَاتِ شَدِيدَةِ الْبَأْسِ، عَنْدَمَا يَجْلِسُ يَصْبِحُ فِي أَكْرَمِ حُلْقَ، وَيَسْأَلُ الْأَسْئَلَةَ الْبَرِيَّةَ، وَيَسْفَتِحُ الْحَدِيثَ وَعِينَاهُ تَبْحَثُ عَنِ الْفَائِدَةِ، وَحَقِيقَتُهُ جَاسُوسٌ عَمِيلٌ رَخِيصٌ، لَا وَرَبِّي لَمْ أَبْلَغُ، إِذَا قَلَتْ لِكَ: إِنِّي فِي بَعْضِ السَّاكِنَيْنِ وَالْمُنْصَتِينَ لِلْحَدِيثِ وَبِرَاءَ الْعَيْنَيْنِ مَنْ هُمْ أَهْلُ صَنْعَةٍ وَتَمْثِيلٍ، لَمْ يَجْلِسُوا جَلْسَةَ الْمُتَأْدِبِ، وَلَمْ يَسْمَعُوا سَمَاعَ الْوَاعِيِّ إِلَّا لِتَأْمَنُ لَهُمْ، فَمَقْتَ أَفْرَغُوا كَامِلَ مَا عَنْدَكُمْ وَاسْتَوْفُوا مِلْءَ مَا يَطْلَبُونَ تَغْيِيرَ الْوِجْهَ وَالْأَلْوَانَ، وَانْقَلَبَ الْحَدِيثُ، وَكُثِّيرٌ عَنِ الْأَنْيَابِ، لَأَنَّهُ مُمْثَلٌ لِلْأَمْنِ وَلَيْسَ صَاحِبًا لَهُ، وَلَا مُتَخَلِّفًا بِهِ.

وَبَعْدَ هَذَا وَذَاكَ خَذْ مَثَلًا لِلْأَمْنِ الصَّادِقِ الَّذِي يَرْقُ بِجَمَاعَتِهِ، وَيَرْفَعُ مِنْ مَسْتَوَاهُمْ، وَيَزْيِلُ عَنْهُمْ غَشَاوَةً أَيِّ شَبَهَةٍ تَلَقَّهُمْ عَقْوَلَهُمْ.

مَثَلُ لِلْقَادِمِ مِنْ جَمَاعَةِ أُخْرَى: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِيْنَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزَعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرْنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا». قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: ذَاكَ عَذُونُ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْسُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيَادَةٌ كَبِدٌ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَةُ». قَالَ: أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

ومثال للسائل من جماعته:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا ماتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيِّ ابْنِ سَلْوَلَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبَتَ إِلَيْهِ، قَفَّلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّيَ عَلَى ابْنِ أَبِيِّ، وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، قَالَ: أَعْدَدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَخْرُ عَنِّي يَا عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا»، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَاتِ مِنْ بَرَاءَةَ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا نَقَمَ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا أُوتُوا وَهُمْ فَسِيقُونَ﴾ [التوبه: ٨٤]، قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٣٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧١.

ولولا الأمان العالى من سيدى رسول الله ﷺ، لما استطاع سيدنا عمر رضي الله عنه أن يصارح الحبيب ﷺ بسؤاله.

انظر من اتجاه المخالف لا اتجاهك

لو جلس شخصانِ أمام بعضهما لرأى كُلُّ واحدٍ منهما ما خلف صديقه، لكن لن يرى أحدهما ما خلف نفسه إلا إن قام وجلس في صفة المقابل له، وعنده التعامل مع المخالف لا بد من نظرتين:

الأولى: وجهة نظرك فيما آل إليه اجتهادك حسب الأدلة الشرعية.

الثانية: وجهة نظره هو، لتعرف ماذا أراد.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءً تَخْرَانِي غَلِيلُ الْحَاسِيَةِ، فَأَذْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَدَهُ بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثْرَتْ بِهَا حَاسِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَحَحَكَ، ثُمَّ أَمْرَ لَهُ بِعَطَاءٍ^(١).

من وجهة نظري: هو موقف إساءة من هذا الأعرابي نحو ألطاف البشر ﷺ، وهذا ما آل إليه اجتهادي حسب دراستي الشرعية، لكن لو تحولت إلى وجهة نظره لرأيت أنه ما أراد الإساءة ولا الإغلاظ، إنما أراد تلبية طلبه، ومن عادة أولئك الأعراب أنهم إن أرادوا التأكيد على الطلب شددوا بطرق كهذه، فهو مرید للخير لا مسيء.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٤٩، ومسلم برقم: ١٠٥٧.

وسيتحول حكمك عليه كثيراً عندما تجمع بين النظرتين، ولو كنت معه وقتها لعذرته، وحكمت أنه ما أراد السوء، ولكن الإعذار لا يعني ترك النصيحة له، ليتعلم الأدب مع الحبيب ﷺ.

لا يزيل القمع شبهة

يَتَعَقَّى كثير من الناس البسطاء بحوادث حدثت أمامهم، أو تناقلوها، مفادها أن الشيخ فلاناً، أو المري فلاناً سأله سائل عن مسألة فصاح في وجهه، فسكت سكتة لم يُجزِّر بعدها جواباً، ولم يُنْسِ ببنت شفة، ويدركون مثل هذه المواقف على أنه إنجاز للشيخ، وربح على ذاك الضعيف، وتسرد العنتريات تفُّناً في أساليب القمع والتسلط والإسكات وأخواتها.

لا عجب أن تسمع مثل هذا من حضر أو نقل الصورة، ولكن العجب أن ينقلها المسكين الذي جُني عليه، وصاح المري بوجهه، ويقول لك: لقد صاح بوجهي بعد أن سأله صيحة لم أعد أفك بالشبهة!

أوَ أَمْلِكَ وقد نُزِعَت الشخصية العلمية من بين جنبيك! أم هل أقدر على قلْع المازوخية^(١) من شخصيتك، إن كنت كذلك فما لي ولك، لأنني على نهج سيدى ﷺ الذي كان يتسع لصحابه ليسألوه، ويعرضوا عليه الشبهة دون قمع.

علمني شيخي فأحسن تعليمي

ذهبت في أول رحلة لي في عمري خارج سوريا، فالتحقت أحد من وصف

(١) المازوخية: هي اضطراب نفسي، يمنع المريض من الشعور بأي متعة، إلا إذا كانت ممزوجة بالعذاب الجسدي أو النفسي، كالإهانة.



بالعلم، وأهداني مجموعة كبرى من كتبه، وفيها الشبهات محسوّة بكتافة، وكان من جملتها نفي السحر عن رسول الله ﷺ، فرأيت الكلام غريباً مقنعاً، وأصبحت في حيرة من أمري، بين تكذيب حديث في صحيح البخاري، أو إلصاق نهمة - حسب قناعتي المؤقتة تلك - في أعظم رجل عرفه الناس ﷺ.

لم أجد طریقاً آخر، فذهبت ألجأ إلى بعض الشيوخ بحثاً عن طريق فَقْدُتُهُ، فراجعت الشيخ الأول، فكان جوابه كُتْلَةً تحطيم لي يَشُوُّبُهَا كَمٌ من الألفاظ العفنة، والعبارات البذيئة، مفادها: اترك من يدك هذه الكتب، فأنت من تزَبَّ قبل أن يَتَحَضِّرَ^(١)، والعلم ليس بكترة القراءة، ولكنه بكترة الفهم، والرجوع إلى أهله.

وكأن الشيخ ما درى أنني جئت شبهة، وكان الواجب عليه أن يرحب بي، ويشجعني على الخير، ويقول: هذا الطريق هو الصحيح، أنعم وأكرم بعملك أيها الهمام النجيب، فقد لجأت إلى من هو أكبر منك بمجرد عرض الشبهة عليك، فتعال نتعاون على حلها.

لكن التوقع الوحيد الذي لا شريك له في نفسي إلى يومي هذا: أن الشيخ جاهل بالمسألة، فهرب من جهله إلى رمي التّهم على، ولو كان عنده جواب لجاد به ولم يُحِسْهُ.

مررت الأيام والسنون، وأنا أراجع من توفر لدى من المشايخ واحداً تلو

(١) أي: صار زبيباً قبل أن يمر بمرحلة الحصرم، ثم العنبر، وهي كنایة عن النضج السليبي، أي: آكل طعام الكبار الذي هو سُم للصغار.

الآخر، وبعض الناس يرد بالسخرية، وثان بالغضب، وثالث بالتهكم، ورابع يسألني بالله عليك: هل فتح الله لك بما لم يفتح على غيرك من العلماء؟ وأنا في حيرة من أمري أتهيئ من تخطئة صحيح البخاري، ولكن الهيبة الكبرى أن أذهب النقص لرسول الله ﷺ، ثم لما لم أجده جواباً مُقنعاً حكمت بكذب الحديث، وناجيت ربي: إلهي تكذيب حديث في «صحيح البخاري» أحب إليَّ من نسبة العظام لنبيك ﷺ.

حتى قيَضَ الله لي وأنا أقرأ على سيدِي الشَّيخِ أَحْمَدَ القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله، فمررت بي عبارة لها مناسبة للموضوع الذي أقلقني، فخطر ببالي أن أسأل الشَّيخَ، فقلت في نفسي: إن الأَسَاذَةَ الشَّابَ لَمْ تَحْتَمِلْ عَقْوَلَهُمْ أَنْ يَرْدُوا بِجَوَابٍ، فَهَلْ مِنْ الْحِكْمَةِ أَنْ أَسْأَلَ شَيْخًا تَسْعَينِيَّا هَذَا السُّؤَالُ الْغَرِيبُ؟ أَلِيسْ مِنْ الْمُتَوقَّعِ أَنْ يَرْدُ على الشَّيخِ بِجَوَابٍ قَاسٍ يَدْمِرُ الْعَلَاقَةَ مَعِيِّ، وَيَطْرَدُنِي مِنْ دُرْسِهِ؟ فَتَجَرَّأْتُ قَلِيلًا بَعْدَ حَوَارٍ وَحِيرَةً فِي صَدْرِيِّ، بَيْنِي وَبَيْنِ نَفْسِيِّ، وَتَلَطَّفْتُ بِالسُّؤَالِ بِعَرْضٍ خَفِيفٍ، وَسَأَلْتَهُ: سَيِّدِي كَيْفَ نَفَهْمُ الْحَدِيثَ الَّذِي فِي الْبَخَارِيِّ، وَفِيهِ لَفْظٌ: «يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِي»^(١)، هَلْ يَعْقُلُ أَنْ يَصِلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى درجة لا يَدْرِي نَفْسَهُ، هَلْ جَامِعُ زَوْجِهِ أَمْ لَا؟

إِذَا بِالشَّيخِ يَلْفُزُ بِحَنَانٍ حُرُوفَهُ: لَا يَا وَلْدِيِّ، السُّحْرُ كَانَ جَسْدِيَاً وَلَمْ يَؤْثِرْ عَلَى الْعُقْلِ، فَكَانَ يُخَيِّلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَطِعُ الْجَمَاعَ، فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَجِدْ الْقُوَّةَ الْجَسْدِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٦٠٦٣.

أزال شيخي الإشكال كله من صدري، فلم أملك زمام صوتي، وكأن النار قد اقتربت من حفنة بارود، صحت بصوت رفيع: هكذا الجواب! فرد الشيخ: وإلا فماذا؟ قلت له: لقد أزلت إشكالاً من صدري كدت أن أنيأس من وجود محيب له.

وفتح الله علي ببركة جواب شيخي في حل باقي المسألة حرفاً حرفاً، حتى أكرمني الله بالعمل في تحقيق كتاب: «المواهب الـلـدنـية» للإمام القسطلاني (ت: ٩٣٣ هـ) رحمـه اللهـ، فزال الإشكـال بـتمـامـهـ، ورأـيـتـ جـوابـ شـيخـيـ مـرـةـ ثـانـيـةـ عندـ الإـلـمـاـنـ القـسـطـلـاـنـيـ، وـفـيـ الـبـحـثـ حـلـ لـكـلـ إـشـكـالـ مـنـ القـاضـيـ عـيـاضـ (ت: ٥٤٤ هـ) وـغـيـرـهـ مـنـ الـأـئـمـةـ، رـحـمـهـ اللهـ أـجـمـعـيـنـ، فـحـمـدـتـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ ذـلـكـ.

سوق قمع لأن البائع جاهل

كم عانى أهل طبقي من القمع العلمي! فإن نسيت فلن أنسى يوم جئت إلى أحد المدرسين، وسألته: ولكن السؤال ما كاد أن يغادر فمي من وجلي وخوفي، وأناأتوقع القمع والسخرية والتحقير والاستهزاء فأسأل الكلمة، وأزوج بجملة معترضة مفادها أنني أريد التعلم لا الاعتراض، ثم حرفاً ثانياً وجملة اعتراضية أخرى تبرئني من وصمة الجريمة، ثم آخر وأنا أتهم عقلي وفهمي وأقرُّ بقصوري وقلة علمي، والسؤال بدون جملٍ مُعْتَرِضَة: هل في بعض مواقف سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَسْرُّعٌ فيما يظهر لنا؟ هل من حق السائل عن دينه أن ينال التهديد من سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدل الجواب؟

هذا سؤالي الذي بقيت أتلعثم فيه دقائق طويلة، وفقد السؤال حقيقته أو كاد من كثرة الجمل الاعتراضية، فما إن وصل تمام إشكالي إلى الشيخ حتى شد مئزر

غضب، وصاحب بوجهي: من أنت أيها الحقير لتعترب على سيدنا عمر رضي الله عنه؟! وايم الله لم أعترب، ولكني تساءلت عن موقف أشغل علي، وأخرستني بطريقته التسلطية التي ثبتت الشبهة عند أمثالى ولا تمحوها.

وتمن الأ أيام والليالي ولا يزال في قلبي السؤال: لم كان رد عمر رضي الله عنه على الأعرابي المتعلم بهذا الأسلوب الفظ، أثبت هذا عن عمر الفاروق؟ أم للحادثة تتمة لم تذكر؟ أين الملابسات المخفية؟ ثم يأتيني الجواب الشافي مجرد تحقيقي في المسألة كما يقال: أثبت العرش ثم انقض، فبمجرد بحثي عن صحة القصة بدا لي أن القصة غير ثابتة أصلًا! بل كل القصص التي ثبتت التسلط المشين، والتعالي المرفوض التي تنسب لفاروق الإسلام رضي الله عنه إنما هي أكاذيب.

سبحان الله! أما كان يُوسع ذاك الرجل أن يقول لي: لا أدرى! أما آتاه الله لسانًا يحيلني بجملة منه إلى صديق له عنده تحقيق في المسألة؟ إنه الكبر عن أن يقول الإنسان لا أدرى، والانشغال عن البحث والدرس.

وسأختم الحديث بحادثة أخرى - وليس الأخيرة - و كنت قد التقى بـ أحد الباحثين، وله اشتغال في صحيح البخاري، مع عداء كبير للرافضة، فسألته: كيف يروي البخاري في صحيحه عن بعض الرافضة، وهو القائل: جعلت الجامع الصحيح حجة بيني وبين الله؟ فأجابني: الرافضة لا كرامة لهم، ولا يسمح لرافضي خبيث الدبر - وعبارته أشد من هذه ولكني شدّبته في كتابتها هنا - أن يروي عنه البخاري.

وكأن البخاري لم يكتب الصحيح، وهو الآن بصد الاستشارة هل يروي عن الرافضة أو لا؟ أما الحاضرون فقد ضحكوا من شغاف قلوبهم لما

سمعوا هذا الجواب، وبقي السؤال عندي أبحث عن جواب مقنع له، حتى
هداني الله له.

وهو أن مصطلح الرافضة الأول يختلف عما هو في زماننا اختلافاً كبيراً،
فأولئك كانوا كالسنة تماماً ديناً وعلمًا وقوى، إلا أن قلوبهم مع سيدنا علي
رضي الله عنه حيث دار، ويررون تقاديمه في الخلافة والمكانة على أبي بكر
وعمر، ولا يكفر أحدهم أحداً من الصحابة رضي الله عنهم، بل يررون
عنهم، ولا يسيئون إلى أمهات المؤمنين، فضلاً عن الري بالعرض،
والإساءة إلى حضرة الحبيب ﷺ، أو تكون له عقائد زائفة، فمثل هذا
الصنف، كان يُنعت بالرافضي كي يُتحرّى في روايته عندما يروي ما يوافق
بدعته، لزيادة التثبت، من أن يكون قد مال قلبه أحياً ولم يحكم إنصافه.

ولئن سألتني: ما الذي دعا ذاك الباحث وأمثاله مثل هذه المواقف
المُحرّمة والأجوبة غير المقنعة؟ لأقول: عَزْزٌ عن الجواب، وفتور عن البحث
والاستزادة، وكِبْرٌ عن الاعتراف بعدم العلم، وقل رب زدني علمًا.

فخذ - بالله عليك - كلامي مأخذ الحِدّ، وقل فيما تعلم: هذا جوابي، والله
أعلم، وإذا لم تعلم فاعتذر بالجهل، فإنه أهنا وأكرم لحياتك، وإياك واستعمال
السلط والبطش، فإن هذا كاللاصق المثبت للشّبهة.

بين التهويل والتهويين

من الدعاة من صور للناس أن أمر الكلام في الدين، والفتيا، والحكم على
الحديث صحة أو ضعفاً، والكلام في الفكر، والعمل الإسلامي وغيره أمور
سهلة، لا تخصصية، يستطيعها كل مسلم، ومنهم من صورها لطلبة العلم على

أنه باب مغلق موصداً، قد انتهى بموت آخر عالم قبل مئات السنين.

العلم قسمان: قسم للمتخصص، وقسم لكل طالب ومستفيد.

كنت أميناً لمكتبة إسلامية وفقيهة مرة، فأحببت أن أرتب المكتبة بطريقة تخصصية فنية فدّة، فسألت عن متخصص في هذا الفن، فأشار الكل على برجل واحد، وأشاروا بعلمه وخبرته، فلما زرته عرضت عليه بلهفة شوقي لتعلم فن ترتيب المكتبات.

أشار بسبابته في وجهي قائلاً: اسمع يا أخي، إن كنت صاحب شهوة عابرة، تنهزم من التعلم بعد أول الطريق أو في منتصفه فلا تضيع عليّ وقتي.

أجبته: وایم الحق إني لصادق الرغبة في هذا الفن.

أعاد علي: هل ستبقى إلى آخر المرحلة؟!

قلت: ليس من عادتي العبث وقطع العمل، فلا بد لكل مشروع اقتنعت به أن أمشي طريقه حتى نهايته.

الرجل: أثلجت صدري، لأن مشتهي التعلم كثير، ولكن الثابتين نادرون.

تابع كلامه: جاء ثلاثة نفر وتعاهدوا وتعاقدوا ألا يتركوا العلم حتى نهاية الطريق، ولكنهم انسحبوا وما وفوا بعد أقل من عشر سنوات!

فتحت في دهشة، وقاطعته: وكم يستغرق تعلم فن ترتيب المكتبات إذن؟

الرجل: إن كنت تظن أنك تتعلم في خمس سنوات، أو عشر سنوات، أو

أكثر فلا تخدع نفسك! فلان الوحيد الذي يلزمني منذ عشرين سنة، وما ملّ ولا كلّ ولا فلّ.

قاطعته أخرى: وما انتهى تعلمه؟!

الرجل: أَوَّهْ أَوَّهْ، هيهات أن يكون هذا، ما انتهى ولن ينتهي.

صدمته بجواب ذي حماس لا يقل عن حماسي الأول في طلب التعلم: سيدى: ظننت أن هذا العلم ينال في بعض جلسات خلال أسبوعين.

ائذن لي أن أصارحك بالاعتذار عن البدء بهذا المشروع!

لقد صدق من قال: «العلم نُقطةٌ، كثُرَّها الجاهلون»!

الشرع المحمدي بأكماله تم في ٢٣ سنة، ونزل قوله تعالى: ﴿أَلَيْوَمْ أَكَمَلْتُ

لَكُمْ دِيْنَكُم﴾ [المائدة: ٣].

زرت أحد علماء باكستان وعمره ٢٣ سنة في مكة المكرمة، فعرضت عليه أسئلة في الحديث الشريف: إذا به يُصْفَعِنِي بكلمة: أُنصحك أن ترك العلم الشرعي وتلتفت إلى صنعة تعمرك الخبز الحلال، لأن العلم صعب المنال.

وفي المقابل: دعاء على أبواب الانتحال يصوّرون للعامي أنه أهل للاجتهاد ودراسة متون الحديث - لا أسانيدها - والحكم على الحديث من خلال نقد متنه! من خلال ذاتقة عقله الفريدة!

لَقَدْ هُزِلْتُ حَتَّىٰ بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كُلَّا هَا وَحَقِّي سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسٍ

يخاصمك الجاهل بكل يسر: وهل الدين حُكْمٌ على الشيوخ؟

لا، عزيزي: العلم حُكْمٌ على من تعلمه فقط، لكن لا يُسمح لجاهله أن يدخل حِمَاه.

وهنا تظهر سذاجة الداعي الذي يُشغّل الناس بالأدلة، ويلقنهم دائمًا: «الراجح من قول أهل العلم كذا، والصحيح: كذا». حتى يُنتحّ عوام يقولون بضلال من يقول بغير ما رجح لهم زعيمهم، ويتولّد من فكرهم براعم يقولون بـكفر من قال عكس القول المُتَبَّقِي. كما مر في عنوان: «سوق المزايدة»^(١).

فمتى تفَقَّهَ في العلم بشروطه، ومنها:

١- تلقي الفن على متخصصٍ فيه تقىٰ

٢- تلقي الفن بتمامه وليس جزءاً منه

٣- خشية الله تعالى في الفتوى

فهذا الذي يحق له أن يفتى أو يشارك في الفن الذي توافر فيه هذه الشروط، بشهادة من عَلَّمَه، وإنْ فاعرف أن صاحبه من أهل التَّهور.

عصريّة لا حجَرِيَّة

وأعني بالحجَرِيَّة: القديمة، التي ترجع إلى العصر الحجري.

فمن العصرية ألا يشرح للطالب الصغير أنواع المياه السبعة، لأنَّه لا يرى في أغلب الأوقات إلا ماء الصنبور، وإن سافر إلى مصيف ورأى ماء النهر أو

(١) ص .٩٩

البحر تعلم من يعلم جواز الوضوء بذلك الماء، ومثله العدول عن تعليم الاستبراء بالحجر، وإنما بالطريقة العصرية السريعة، كالم Nadil فقط.

فكم درس بعض أساتذة النحو: «السَّمْنُ مَنَوْاْنِ بِدِرْهَمٍ؟»

ولم يعد في زماننا مَنَوْاْنِ، ولا درهم؟

ولكنني أجزم بضرورة تعلم الأمور الفقهية بجذافيرها لمن يطلب التخصص، بخلاف من يتعلم أمور دينه وليس من أبناء التخصص، أو كان في بداية الطلب.

وكنت ذكرت في كتابي: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله»، أمثلة من شيخي الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله، غيرها من المعقد إلى السهل، أو البعيد إلى المشاهد، أو غير مفيد إلى مفيد، كما في قول بعض علماء التجويد: أحرف الإظهار مجموعة في قولك: «أخي هاك علما حازه غير خاسِرٍ». استبدل بها قوله: «إن غَابَ عَنِّي حَبِيبِي هَمَّنِي خَبْرُه».

وقد درسنا في كتب التجويد أن أحرف الاستعلاء مجموعة في قولك: «خُصَّ ضَغْطٌ قِطْ»، لكن شيخنا استبدل بها أوائل كلمات قوله:

قَذْ ظَالَ صَدُّكَ ظُلْمًا حَفَّ فَضَرَامَ غَرَائِي

كنت ذات ليلة قمرية أسمُرُ مع شيخي الداعية الكبير الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٦ هـ) رحمه الله تعالى في مسجده مسجد الهدى في جدة، وكعادة الشيخ لا يَمُلُّ من نثر الفوائد الجديدة، والحاكم التوجيهية، فقال لي: لو كان الإمام الغزالى (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله في وقتنا حل مشكلة الشباب الأخلاقية،

ولما تحدث عن أدب المريد مع شيخه بما كتبه في عصره، لأنه كتب ما ناسب ذاك العصر، ولو أنه جاء إلى هذا العصر لكتب ما يعالج أمراضه.

وكان مرة في الأردن سنة: ١٤١١ هـ مع شيخه الداعية الكبير الشيخ عبد القادر عيسى (ت: ١٤١٦ هـ) رحمهما الله، وطلب الشيخ من المادح أن ينشد، فشرع ببيت ابن الفارض (ت: ٦٣٦ هـ) يقول:

هَنِيئًا لِأَهْلِ الدَّيْرِ كُمْ سَكِرُوا بِهَا وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَكِنْتُمْ هَمُوا
فأوقف الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله المنشد قائلاً:

نحن مسلمون، لسنا من أهل الدير، ولا من أهل الخمر، قل مكانها: هنيئاً لأهل الذكر كم طربوا به، أو: هنيئاً لأهل الحب كم سعدوا به.
قال شيخنا السقا فأردت استزادة الشيخ من هذه المعاني، فكلمته بما يجول في أعين بعض الحاضرين من التقليديين، الذين لا يرضون بتغيير حرف من قصيدة قيلت في وقت فهمها أهلها.

فقلت للشيخ: هذا نظم ابن الفارض يا سيدي، فهل يعقل أن تكون أفهم منه؟

أجابه الشيخ بلحظتها: لو كان ناظمها في وقتنا لغير المعنى إلى ما نقول.

وقد قالوا في تعريف البلاغة: «**مطابقة الكلام لمقتضى الحال**».

والبلاغة الدعوية: تحديث الناس بما يفيدهم في وقتهم، بلغة تناسب عقولهم.

فإن كانت كذلك فهي دعوة عصرية، وإن كانت بألفاظ القدامى وأمثلة

لا تلقي بهذا العصر، بأن كان المثال الذي جيء به للتوضيح يحتاج إلى مزيد شرح وإيضاح، فاعلم أنها دعوة حَجَرِيَّة.

وهذا كله في تدريس العوام والمثقفين ثقافة شرعية تلقي بحالمهم، لكنني أستثنى طالب العلم المتخصص، فهذا يتبعن عليه دراسة الكتب القديمة كـ لا ينقطع عن أسلافه، وعند اتصاله بالأقدمين وعيشه في الحاضر يكون قد جمع بين الأصالة والمعاصرة.

قتل الدين لدى الناس

إظهار اختلاف المدارس الفقهية حالة صحية بين المتخصصين وال العامة، مع عجنها بروح الشكر لله الذي جعل في الأمر فُسْحة، أو دراسة أدلة كلا الفريقين دون إسقاط أحدهما أو الميل عليه، ولكن طرحها على العامة لترجح رأي أو مذهب وإسقاط أخيه سقطة دعوية.

ومن خلال الذي يُشاهد يومياً، تجد أن جُل العامة على أحد قسمين:
 الأول: أن يقع العامي في الحيرة، ويصرح بأنه لا يدرى بأى الأقوال يأخذ؟
 الثاني: أن يتبنى أحد القولين ويتحمس ويشتغل لنصرته، فإن هذا إشغال له في غير تخصصه، وما لا يحسنه، وما وُجدت الاختلافات ليُنْصُرَ بعضها على بعض هو وأمثاله.

لكن ما حال الذي يذكر الآراء الفقهية للعلماء، ثم يرجع الراجح لدِيه، ويُسَفِّهُ غيره! حتى إذا انتسب إليه عامي، يحتاج غرس حب الله تعالى في قلبه إذا به ينقلب على عقيبه، وإنما أن ينزل الدين من عينه، أو يحمل لواء الدفاع

عن الرأي الذي سمع أنه راجح، وما ورطه إلا ذو سقمٍ، حيث سحب البساط من تحت أكثر الأئمة، ووضعه تحت واحد فقط، وأسوؤهم: من جعل البساط تحته هو، فيكون قد نهى عن تقليد الأئمة وترجيحاتهم، ودعا إلى تقليله هو! هيئات أن تكون له العاقبة، لأنه «إن كان لديه دليل فللأئمة أدلة، وإن قبل أحد من الناس كلامه فالآئمة محل إجماع الأمة»^(١).

تقزيم المخالف

تكلمت في نُتف من هذا الموضوع تحت عنوان: «التوازن الخطابي»، ولكنني سأحكي عن جوانب أخرى هنا:

لن أطيل في هذا الموضوع الحساس الذي كان من المفترض علينا أن نعيه في كل دروس حياتنا، ولكننا مع الأسف نقع فيه في كثير من مباحثنا، فعل مستوى أسرة أهل السنة، وضمن الأسرة الكبيرة الواحدة ترى كل حزب بما لديهم فرحة.

فمُدرِّس الجامعة يرى أن عمله سيد الأعمال، وربما استخفَّ بعمل الشيخ المربى المتفرغ القائم الساهر على تربية الناس، واستخفَّ بأهل الدعوة الذي يحبون البلاد، ولكنه لو خالطهم لغير رأيه.

قيل للشيخ عبد القادر أرناؤوط (ت: ١٤٦٥ هـ) رحمه الله: إن الألباني (ت: ١٤٦٠ هـ) رحمه الله ليس طالب علم، فقال: لو وضعت أيًّا جاهل في

(١) هذه العبارة العبرية من كلام شيخنا المحدث الشيخ نور الدين عتر رحمه الله وطيب ثراه، ذكرها في مقدمة كتابه «إعلام الأنام» ٩: ١.

مكتبة أربعين سنة وتركته يطالع لتعلم. وقد صدق، وشتان ما بين قولي: إن الألباني أخطأ في كذا وكذا، وعنده ضعف في كذا، وبين أن أقول: هو لا يفقه في العلم ذرّة.

كان أحد الشيوخ المتعصبين للمذهب الحنفي يقول: كيف يجمع الشافعية بين الصلاتين في السفر، والله يقول في كتابه صريحاً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

كان أحد متعصبي المذهب الشافعي عندنا في حلب يسّهُ أقوال السادة الحنفية بصورة تشمئز منها النفوس، أراد أن يخفّف دمه بنكتة سميجة ثقيلة غثّيّة، وكان يدرس طلبة العلم في مدرسة شرعية - مع كامل الأسف - فقال للطلاب: تعالوا فلأصلّ لكم على المذهب الحنفي، هبّوا أن الماء أمامي الآن، ثم مثل أنه يغسل رجليه، ثم يديه، ثم وجهه، ثم مسح رأسه، هكذا بدون ترتيب، ثم قال: كأن لدى الآن جلد كلب، مدّته لأصلي عليه، فدخل في الصلاة بدون قراءة فاتحة، ولم يطمئن في رکوع، وهكذا إلى أن وصل إلى نهاية الصلاة، وفي كل ركن يقول لهم: لا حاجة لقراءة كذا، ولا لفعل كذا، ولا طمأنينة، أما الخروج من الصلاة، فيكفي فيه إخراج الريح، ولن أستطيع أن أفعل هذا أمامكم، ثم سرد على آذانهم قولًا نابياً، يدل على حقدٍ متجرد:

أَجَازُوا الْخُرُوجَ مِنَ الصَّلَاةِ بِضَرْطَةٍ فَإِنَّ الضَّرَاطَ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ

والطلبة المراهقون يضحكون ويتمايلون، ولا عجب إذا كان المدرس بهذه الروح الخبيثة، ولا أشك قيد أئمّة أن هذا قد يأتي بأمور تُخرجه من الملة عند الضحك، وإيراد بعض أمور الدين مورداً السخرية وخففة الدم.

سمعت رجلاً يذكر مسألة رؤية الله في الآخرة، وينقل أن المعتزلة ينفون ذلك، ثم قال: حجب الله تعالى كل معتزلي عن رؤيته يوم القيمة.

ولو ملك الشفقة في الدعوة إلى جانب العلم لدعا لكل معتزلي أن يرى الله في الآخرة، بدلاً من أن يدعوه عليهم بالحرمان بعدهما قرأ قوله تعالى في الكفار:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ يَحْجُوْنَ﴾ [المطففين: ١٥].

ولو كان منصفاً غير مقرّم لوجهة نظر إخوانه لقال: إنما أرادوا تنزيه الله تعالى، ولكننا مختلف معهم، لشبوث الأحاديث الصحيحة في ذلك.

نصراني حاورته فهزّمْتُ في هذا الحوار، رحم الله من كان سبباً في ورطتي، لقد قرّم في عيني شبهات النصارى، وما من إنسان يصغر من رأي مخالفه إلا كان كلامه فتنة على من يكتشف الحقيقة، فمن تقوى بالعلم والبحث والمعرفة والإنصاف نجا، وإلا فرب قتلة كانت على يد محب مغفل، لا حسود ولا مبغض.

تذكريت مع شاب غيور يرى وجوب تغطية وجه المرأة في الشارع، ولكنه لا يرى أي وجاهة لرأي السادة الحنفية والمالكية في جواز الكشف، فأحبت أن أبيّن رأيهم من خلال أدلة، فذكرت الحديث الذي وصف المرأة السائلة بقوله: «فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِّنْ سِطْهِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْحَدَّيْنِ»^(١). وسألت الشاب: وكيف عرفها الجالس أنها سفيعاء الحديدين لو لم تكن سافرة الوجه؟ أجابني بكل ثقة: وأين الغيرة؟ قلت له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه حاضر؟

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨٨٧.

أجابني آخر: ليس في الحديث دليل أنه كان بعد الحجاب، فاحترمت رأيه، وشنان ما بين الجوابين.

كَنَّا في درس علمي، وكُنَّا أطفالاً صغاراً، فسألنا المدرس: كيف ينكر بعض الناس الاستغاثة بالنبي ﷺ؟ فقال: هؤلاء ما قرؤوا القرآن، ألم يقل الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْثُهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

في كل هذه الحوادث المختصرة قاسم مشترك واحد، وهو: مسخ رأي المخالف، وتصويره على أنه هزيل لا قيمة له، وهذا التصور يُحدث ضربة قاصمة لمن استهان بخصمه إن فاجأه خصمه بضربة شديدة من الحجّة.

بقي أن أقول: في التعامل مع المخالف من أبناء جلدتك لا بد أن تكون على بصيرة بأن الله سيحاسب كل إنسان على وجهته: ﴿لَا يُكْفِرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسَعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لَا يُكْفِرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ؤتَهَا﴾ [الطلاق: ٧].

لكل وجهته التي يحاسبه الله عليها

فما عليك إلا إعداد الناس فيما هم عليه، وتقدير ضعف الضعفاء، فلكل وجهة يحاسبك الله تعالى عليها، ولهم اجتهدهم الذي يُسألون عنه، وما وكل الله حساب أحد إلى أحد غيره، فكم تسمع بين المغتربين اليوم الشناق عند موت أحد في بلد فيه حاكم ظالم، فتهبّ موجة يقول فيه بعض الناس:

- لا يجوز الترحم عليه.

-

- لأنّه يعيش في أماكن الظالمين.

- هو ليس منافقاً.

- بل منافق، ألا ترى كيف حضر الحفل الفلامي؟

- من مَنَا قادر على مجابهة الظالمين إن دعوه؟

- فليهاجر.

- هل وجْهْتُك في الهجرة محترمة، ووجهته في الرباط في أرضه مخالفة لله
رسوله؟

وهكذا لا تنتهي النقاشات، ومَرَدُ هذا كله إلى عدم إعذار بعضاً، وفرح
كُلُّ حزب بما لديه.

أدب لا يريده الله!

- من أدواتنا التي نكثر استعمالها الطردُ، وهذا علاج جاهليٌ في نظري،
فقد قال أبو إبراهيم لإبراهيم: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيئًا﴾ [مريم: ٤٦]، وقد أَلَّفَ
الحافظ السيد عبد الله بن الصديق الغماري (ت: ١٤١٣ هـ) رحمه الله رسالة
سماها: «النَّفْحَةُ الدَّكِيَّةُ فِي أَنَّ الْهَجْرَ بِدُعَةٍ شِرْكِيَّةٍ».

وعندما لم يستطع المصطفى ﷺ أن يرى قاتل عمه حمزة رضي الله عنه لم
يطردَه، ولم يَرُدَّ إسلامه، إنما قال له: «فَهُلْ تَسْتَطِعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي؟»^(١)

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٠٧٤، وانظر الروايات التي سردها الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» ٧: ٣٧٠، وفي الروايات التي سردها ابن حجر عبارة صريحة أن هذا الكلام عند إسلام وحشى، بخلاف ما ادعاه بعض من ألف في السيرة، فزعم أن هذا الكلام من رسول الله ﷺ كان عندما وفد وحشى مع قومه، فطلب منه أن يغيب وجهه عنه، وأما عندما أسلم فلم يطلب منه ذلك، وهو كلام خطأ.

فما أكثر استعمالنا للطرد؟

– لا أعرف حديثاً واحداً يذكر أن النبي ﷺ أخرج مسلماً من المسجد! فما بال بعضاً يُخرج الطفل، وثانياً يُخرج المخالف، وثالثاً يخرج سائلاً، رابعاً، وخامساً.

لا تتعذر بأي عذر، فقد مر بالنبي ﷺ أشد أنواع بلايا الناس، ولا أشدَّ من المنافقين، الذين يقفون معه، ويصلون معه، ويبطئون الكفر وبُطْهُرون الإيمان، فكيف عاملهم! ثم تأمَّل أَنَّكَ: قد تُخْرِجُ الطفل من المسجد اليوم، ثُمَّ تفرش له الأرض وروداً ليدخل المسجد غداً فلا يستجيب، ولا سيما إذا صار فاسداً ذا نُفُوذ، ففيهات أن تهديه!

مزيدة لا يحبها الخالق

قال لي شيخي الجليل المحدث الشيخ محمد سعيد بادنجكي (ت: ١٤٣٤ هـ) رحمة الله: لا يُمدح بالأكاذيب والأباطيل إلا البضاعة المشوشة، فكيف يرضى بعض الناس أن يمدح المصطفى ﷺ بالأكاذيب؟ أليس عندنا في القرآن والسنة الصحيحة ما يكفي لمدحه؟ فلم اللجوء إلى الأباطيل؟

– نقل أخ كريم أبيات شعر للشيخ يوسف التبهاني (ت: ١٣٥٠ هـ) رحمة الله فيها قوله:

عَلَ رَأْسِ هَذَا الْكَوْنِ نَعْلُ مُحَمَّدٍ عَلَّتْ فَجَمِيعُ الْخُلُقِ تَحْتَ ظِلَالِهِ

أنكرت ذلك وقلت: هذا ليس ب صحيح، ولم يرد في ذلك شيء، فلم التَّقَوْلُ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ عَنْ نَفْسِهِ؟

رد على محب لا يدّقق في مدح حبيبه ﷺ: الأصل أن كل إنسان يلبس الحذاء عند الخروج من بيته، والنبي ﷺ خرج من بيته نحو المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، ثم عرّج به، وما دام أنه لم يرد الأمر بالخلع، فمعناها أنه قابل ربه وهو لابس النعلين!

قلت: وهل هذا مدح للنبي ﷺ أنه رأى ربه وهو منتعل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! لم أجرؤ على إكمال الحوار، وقلت في نفسي: لو تصورت إنساناً يمدح آخر، وقد دخل على رئيس من رؤساء الدنيا، ورَكَّ الحديث على قوله: لقد زار الرئيس وهو منتعل، أيكون الكلام مدحًا للمنتتعل؟ أم ذمًا للرئيس؟

وكم في أناشيدنا التي نترنم بها في المجالس من سمج الحديث الموضوع، والمبالغات القاتلة، بل بلغ بنا المبلغ أن ينظم العami المسكين قصيدة، ويخلط فيها ما يشاء من موضوعات الحديث، وقصص الخيال، وسمج الأخبار، وبارد المدح، ثم يذهب بعض العلماء يمنة ويسرة كي يبرّروا الكلام، أو يلُّوا عنقه ليُقبل، وأقبح الأجوبة وأسرعها أن تسمع قول بعضهم: «لا تعترض على أهل الله»، ومتى أُصِقَ هذا العami الفقير في العلم بأهل الله تعالى؟ وهب أنه من الصالحين الصوامين القوامين، ولكن الحكم على العبارة جوازاً وعدمه يُرجع فيه إلى العلماء، وليس إلى الصالحين، بل المرجع فيه العالم المتخصص في العلم، لأن المسألة العقدية لا يُفقي بها المحدث، ولكن يُفقي بها العقدي.

سمعت أنشودة ممَّن أحقر صلاتي بصلاته، وقيامي بقيامه، ولكنه يعيش في الدَّرْك الأسفل من الجهل والعامية، والقلة العليا من العبادة والتنس، ويقول في الأنشودة مخاطباً الله تعالى:

أَنْتَ عَيْنِي أَنْتَ رُوحِي أَنْتَ قَلْبِي أَنْتَ ذَاتِي

سارعت بالإنكار فسارع جليسي بالسبّ عليه، وقال: أَنْتَ أَنْقى أم
فلان الناظم؟

أجزم أن هذا العامي التقى المُفْلِس علمياً كان على عقيدة التوحيد، وما
سمع في حياته بانحراف اسمه: الحلول والاتحاد، ولكنه أراد الخير وما وُفقَ له.
فهل يباح لمن يعرف هذا الخطأ في الكلام أو الانحراف في القول أن
يَسْكُت.

عِرْفُ السامِعِ أَنَّهُ سُلْحَةٌ غَالِيَّةٌ

جلست وخليلي في روضة من رياض الجنة، يرتع فيها كل محب لله تعالى،
فتذاكرنا أحوال شيوخنا الذين بنوا فكرنا، وأنشأوا علمنا، وبُحثَت أصواتهم في
صناعة شخصيتنا.

سؤاله: من أفضل مُدَرِّس قد تأثرت به؟

أجابني: فلان.

قلت: ثم أي؟ فأعاد الاسم نفسه.

قلت: ثم أي؟ فكرر الاسم نفسه وقد حفظه بورود الألقاب، وياسمين
الثناء.

وافقته بكل ذراتي، وبدأ شدُّ الحديث وجذبه بينما عن سر نجاح ذاك
المعلم والمري والشيخ، ولم ينكر أحدُنا أن توفيق الله تعالى كان يحْفَظُه من كل

جانب، والشيخ مغموس بل معجون بالترزكية، فهو الذي لا يرى نفسه شيئاً مذكوراً، ولا يرى حاله أهلاً للوقوف بين يدي كتاب العلم ليعلّم، وفي المقابل يقدّر الطالب ويراه شيئاً عظيماً، ومشروعًا ضخماً، وأمةً سيقود العالم.

فتحت الحاسب لأكتب أهم صفات ذاك المربى وكتبت عدة أسطر من عصف الذهن وعصر الذاكرة من لكيينا.

لكني أوقفته وأوقفني، وأجمعنا على أن أهم صفة كانت في شيخنا رؤيته واقتناعه الداخلي أن الشباب الذين أمامه جبال المستقبل، فهو يقدم ما عنده من علم بأكمل إخلاص، وأكبر تفانٍ، وأعظم صورة، وأنصع خطاب، ويتجاوز بل لا يرى الزلل والخلل من الطلاب أحياناً.

ولكنني دمعت عيناي قبل أيام وأنا أستمع إلى فيديو صنعه مسكون من مساكين الدعوة، حيث نزل إلى شباب يقفون في الشارع وسأل كل واحد أسئلة، كان منها:

كيف تعاكس - والمعاكسة: هو التحرش الكلامي بالفتاة - البنت إن رأيتها في الشارع وأعجبتك؟ فيضحك الشاب ويقول: بطريقة كذا.

فيسأله: ما أركان الإيمان؟ فيسكت الشاب!

ثم يسأل الذي بعده: كيف تراسل البنت عبر النت؟ ويعقبه بسؤال: ما سورة الإخلاص؟

وما أشبهه هذا السائل بخطيب جمعة عايٍ، تسلق المنبر نصباً واحتيالاً ونشلاً، يجعل يعتمد على الغرائب والطائف وما يشدُّ أنظار العوام.

فيسأل وهو على المنبر: من منكم يعرف فلاناً من اللاعبين؟ ويكون أحد من ذاع صيته في تلك الحقبة؟ فيشير إليه بعضهم أنا.

فيسأله: وماذا تعرف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟

هذه طريقة التوريط للعباد، ومبرعها الأساسي الشعور الداخلي أن الناس لا يفهمون، وأنه أعلم وأفهم وأرق.

ولو أني كنت قربه لقلت له: ليس على العامي وجوب حفظ أركان الإيمان سرداً كما وردت في الحديث الشريف، ومن قال لك: كل أعرابي آمن برسول الله ﷺ حفظ أركان الإيمان يسردها كسردتها في حديث جبريل^(١)؟

لو كنت عنده لسألت السؤال بطريقة المساندة: وقلت له: أركان الإيمان

ستة:

الإيمان بالله، والملائكة، والكتب السماوية، والرسل أجمعين، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

أليست مؤمناً بالله؟ سيكون جوابه: بلى.

أليست مؤمناً برسوله ﷺ؟ سيكون جوابه: بلى.

أليست كذا! أليست كذا! حتى يطلع فجر إيمانيه على محياه، ويعتزّ بدينه.

(١) إشارة إلى حديث سؤال سيدنا جبريل، لما أتى إلى النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، وكان جواب الحبيب ﷺ لما سأله عن الإيمان: قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ». أخرجه مسلم برقم: ٨.

صَبَرَ عَلَيْهِ صَدِيقِي ثُمَّ قَالَ: وَمَا أُحِيلَّ أَسْلُوبَ الْخَطِيبِ فَلَانِ!

قَلْتُ: حَدَثَنِي، بِاللَّهِ عَلَيْكِ!

قَالَ: شَحِنَ الْمَوْقَفَ مُخَاطِبًا الْمُصْلِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِقَوْلِهِ: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا،
يَا مَنْ تَرَكْتُمُ اللَّهَوْ وَأَتَيْتُمُ تُلْبِيَّوْ نَدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، يَا مَنْ اسْتَظْهَرْتُمُ الْعَمَلَ وَالْمَتَعَّ
وَحَضَرْتُمُ لِتَعْغِرَفَ مِنَ الرَّحْمَاتِ الإِلهِيَّةِ، أَدْلُّ دَلِيلًا عَلَى إِيمَانِكُمْ أَنْكُمْ لَمْ
تُلْهِكُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

لَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: **﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ بَيْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ**

ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

فَإِنْ كُنْتَ دَاعِيًّا فَلَا تَنْظُرْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا عَلَى أَنْهُمْ عَظِيمَاءُ، وَلَنْ
تُنْزَعِ الْعَظِيمَةُ مِنْ قَلْبِ سَكَنَتِ فِيهِ **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ﴾**، وَإِنْ كُنْتَ
تَدْعُو غَيْرَ مُسْلِمٍ فَلَا تَنْظُرْ إِلَيْهِ إِلَّا نَظْرَةً الْمَنْقَذِ مِنَ الغَرَقِ، فَلَيْسَ الْمَنْقَذُ النَّاجِحُ
مِنْ تَحْتِ الْمَوْاَبِ مِنْ يَحْاضِرُ فِي الْغَرِيقِ بِتَسْفِيهِهِ، وَلَا التَّعَالَى عَلَيْهِ بِمَعْرِفَتِهِ فِي
الْعُوْمَ وَالسَّبَاحَةِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَأْخُذُ يَدَهُ وَيَرْفَعُهُ، وَيَعْطِيهِ الْأَكْسَجِينَ لِيَعْيِشُ،
فَالْكَافِرُونَ غَرَقُوا، وَالْمُدَاعِيَّةُ مُنْقَذٌ يَسْبِحُ الْهَلْكَى إِلَى الْحَيَاةِ.

وَلَا يَحْزُنَكَ تَهْدِيْدُهُمْ

إِنْ مِنَ الدُّعَاءِ مِنْ يُدَارِيِ الْمَدْعَوِينَ إِلَى آخِرِ حَدَّ، وَهَذَا مُقْبُولٌ إِنْ كَانَتْ
الْمُدَارَأَةُ تُؤْتِي أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَلَوْ بِخُطُوطَاتِ بَطِيَّةٍ، أَمَّا أَنْ يَصْلِيَ الْأَمْرُ
إِلَى تَنَازُلِ الدَّاعِيِّ، وَثِباتِ الْمَدْعُوِّ فَهَذَا غَيْرُ مَرْضِيٍّ وَلَا مَعْقُولٌ غَالِبًا.

تَخَاصِمُ أَبٍ وَوَلَدٍ الْمَرَاهِقَانِ، وَعِلْمُ بِذَلِكَ صَدِيقُ الْأَبِ، فَرَقٌ لِصَدِيقِهِ، ثُمَّ



غاب فترة عن حبيبه، فلما التقى سأله: كيف العلاقة بينك وبين ولدك؟
أجابه: الحمد لله أحسن بكثير.

تهلل وجهه وقال: إذن أبناؤك في طريق التحسن.

الأب: بكل أسف، بل أنا الذي اهتديت على أيديهم، فهم ثابتون، وأنا أتغير حيث أرادوا، وأجاده نفسي وأغير إلى رغبتيهما، فالحمد لله الذي هداني على أيديهما - تهلكم مؤسف -

جاء مُطرب موسيقي كبير إلى مجلس أحد العلماء، فأشاع أحد العامة أنه ما أتى إلا ليتوب على يد الشيخ، وبعد فترة وجيزة عمل الشيخ عرس ولده، وأتى بهذا المطرب ليحيي حفل ابنه بالموسيقى، فما زحني خالي الأستاذ عاطف بيانو حفظه الله قائلاً: «كانت الدعوى أن المطرب سيتوب على يد الشيخ، والحاصل أن الشيخ تاب على يد المطرب».

قال لي صديقي: أنا أعمل على تخفيف غلواء بعض الشباب السلفيين حولي.

قلت: كيف؟ وأنا أراك المتواضع الذليل بين أيديهم؟ أنت تستشهد لهم بأقوال ابن باز (ت: ١٤٦٠ هـ)، فهل تقدر أن تصرح لهم بحرف من كلام الكوثري (ت: ١٣٧١ هـ)؟

وتستشهد لهم بأقوال ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ)، فهل أنت قادر على الاقتباس بحرف من أقوال السيد الرفاعي (ت: ٥٧٨ هـ) رحمهم الله جميعاً؟ الواقع: أنت مدعو بالنسبة لهم، فهم المربيون لك، والذين يُسَطِّرون لك خط

مشيك، فلا تتجاوزه في صغيرة ولا كبيرة.

تحفيف الحدّ يكون عندما تتحمل عقولهم أن يُستدلّ بقول المخالف لهم فيما ذهبوا إليه، فلا ينقضي عجي منهم، وهم الذين يستدلون بأقوال الأخطل النصراوي في اللغة، ولا يرون الاستشهاد بكلام مخالفتهم.

عندما يطرح المري أمام طلابه ما يوافقهم، ويكتم ما يخالفهم فهو المُرَبِّي بين أيديهم لا العكس، لأنهم يصرحون أمامه بكل أفكارهم، أما هو فمُتَسَلِّط عليه، مكتوم على أنفاسه، لا يُنِيبُ ببنت شفة إلا بما يروق لهم.

قلت لصديقي: لا خير في دعوة مَنْ هم المرُبُّون لك، وهم الذين يصرحون بمخالفتك، ولا تستطيع مخالفتهم ذرة.

أجابني: لكنني أحافظ على قدر تعصبهم وانحرافهم كي لا يزيدوا، وقد جربت البعد عنهم فازدادوا بعداً وسحقاً.

قلت: إذن أوقفك.

الطريق الأور هو المؤدي إلى النجاة

تتخاصف الداعي طريكان:

١- طريق مريح سهل يسير لا مخاطر فيه ولا معارضات، وهو الأسهل على النفس، الأقل للنفع.

٢- طريق صعب فيه المكافحة، ولكنه يوصل إلى نتيجة أجود.

مثالاً: إن في تدريس العوام، والتدريس الجامعي لمحسن ومساوي، ولن

ينخلو طريق من كلِّيَّهما، ولكن طرِيق دُعْوة التُّخَبِ والمثقفين والبيئة الأكاديمية سُوئها أَقْلَى، وخيرها كَبِيرٌ، وبيئة العوام سُوئها كَبِيرٌ، وخيرها أَكْبَرٌ،
ولكن ماذا لو خَيَّر الداعي بين أمرين:

الأول: التدريس الجامعي، والجلوس على منصات المناقشات العلمية،
ومجالسة الأكاديميين ورفعه القوم، والعُكُوف على البحوث ومناقشتها، وفي
نهاية الشهر يكون مرتبه عالياً.

والثاني: العمل مع العوام، والتعب والنصب، والبعد - ولو جزئياً - عن
الجوِّ الجامعي الماَدِيِّ، والخلطة بالأكاديميين، فهو الجو الذي تكثُر فيه
القلق، وحل مشكلات الناس، وربما يسمع كلمة الذمّ عقب حل مشكلات
الناس، وقد يُتَهم.

أظن أن نفس الداعي الأكاديمي المؤهل للتدريس في السلك الأكاديمي
سيؤثر الأول، وينفر من الثاني.

أولاً: لي عتب الأخ المحبّ على كثير من إخوتي الأكاديميين، ولا سيما
من يعيش وليس له في السنة كلها لقاء دوري مع العوام، فهو يعيش في جو
غير جوهم، ولا يشعر بـكثير من مكابدهم، ولا يذوق همومهم، كما لي
العتب نفسه على كثير من الشيوخ المترغبين للعوام، الذين ينفقون أوقاتهم
ونفائسها مع العوام، فيكتفي أحدهم بما اكتسبه قدِيمًا من العلم، ويبعد عن
مجالس الأكاديميين، وينخفض مستوى المعرفة عنده، ويُخفِّف مستوى حديثه،
 فهو دائم التيسير للعوام، حتى انحدر مستوى حديثه دون أن يشعر.

والصواب ما عليه عدد من شيوخي: فبعضهم يدرس في الجامعات، وله

دروس عظيمة للعوام، ولو كان لأسرته وأهل بيته، وبعضهم لا يدرس في جامعة ولكن طلبة الجامعة يأتون ناديه، ويلتقىهم لقاء دورياً، وله مواعيد دائمة مع الأكاديميين، ويتابع المستجد من المطبوعات، والحديث من البحوث.

وبعضهم هو في الأصل شيخ مسجد وتربيه، ثم نال الشهادات الأكاديمية العليا، وقد جمع بين الحسينيين، فهذا غاية المنتهي، وأسمى المراتب.





العلاقة
مع المدعويين

القيادة الدعوية





لا جماعة بدون قائد

أَعْجَبْ حديث أَحْفَظَهُ فِي تقرير هَذِهِ الْقَاعِدَةِ حَدِيثُ أَبِي هَرِيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسْوُسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيٌّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «فُوْبَيْعَةُ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْظُوهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»^(١).

وَمِنْ عَظِيمِ حِرْصِ الْإِسْلَامِ عَلَى وُجُودِ الْقِيَادَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ آيَاتٍ تُتْلَى فِي ذَلِكَ، وَأَمْرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَهَا، فَلَقَدْ قَالَ أَبْنَ عَبَاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِمَانُوكُمْ أَطْبِعُوكُمْ اللَّهُ وَأَطْبِعُوكُمْ الرَّسُولَ وَأُفْلِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ﴾ [النَّسَاءِ: ٥٩]: «نَرَلْتُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَيْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ، إِذْ بَعَثَهُ الَّتِيُّ فِي سَرِيَّةٍ»^(٢). أَيْ: تَحْضُرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْأَمْرِ.

أَلَا تَشْعُرُ بِعَظَمِ أَمْرِ الْقِيَادَةِ فِي نَظَرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عِنْدَمَا تَرَكُوا جَثْمَانَ الْمُصْطَفَى ﷺ عَقْبَ وَفَاتِهِ مِنْ يَوْمِ الْاثْنَيْنِ، إِلَى الْأَرْبَعَاءِ، فَمَا تَمَ دَفْنَهُ بِأَبِي وَأُمِّي حَتَّى بَايِعُوا خَلِيفَةً يَقُودُهُمْ!

أَقْسَامُ النَّاسِ إِلَى قَادِهِ وَأَتَبَاعِ وَمُخْرَبِيهِنَّ

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى قَسْمَيْنِ، وَيَنْدِرُ الثَّالِثُ وَالْرَّابِعُ:

الْأَوَّلُ: جَنْدِي تَابِعٌ، وَهُمُ السُّوَادُ الْأَعْظَمُ، وَهَذَا الْوَصْفُ لَيْسَ بِتَعْيِيرٍ وَلَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٣٤٥٥، وَمُسْلِمٌ بِرَقْمِ: ١٨٤٦.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٤٥٨٤، وَمُسْلِمٌ بِرَقْمِ: ١٨٣٤.

عيّب، والإنسان ربما يكون قيادياً في مكان، ومن الّذهـمـاءـ العـامـةـ في آخر،
كـقـيـادـيـ الدـعـوـةـ، هو من الـذـهـمـاءـ العـامـةـ في عـلـمـ الطـبـ، وـعـكـسـهـ منـ كانـ
قيـادـيـاـ فيـ الطـبـ، لـكـنـهـ منـ العـامـةـ فيـ الدـعـوـةـ.

الثاني: قائد.

الثالث: من ينجح في الجنديّة والقيادة حيث وُجد، وهؤلاء صاعقة قِلَّةـ
أعجوبةـ، يُعَضُّـ عليهمـ بالـنـواـجـدـ، وـأـقـدـرـ نـسـبـتـهـ بـ١ـ فيـ ١٠٠ـ.

الرابع: وهو شرّها وأسوئها: وهو العنصر التابع، العصي على الانقياد، وهو
عنصر إفساد وجّر للوراء، فهو مثبّط محبّط سليّي، متى وُجد زاد الناس خبلاً.
ثم إن في الجندي من يجلس آخر الركب وهو راض، وهو القيادي الفدّ،
يدعم عمل القائد من موضعه، وربما كان أثره أقوى من القائد، لأنّه جندي
يعيش مع الجندي، وينفذ أوامر القيادة، فلا يتّهم بالتفع من بعض الجندي.

لكن ليس من المرض في شيء أن ينشر القائد أنيابه إن احترق أو
استُصْغِرَ مِنْ قِبَلِ بعض التابعين، أو شعر بالمزايدة عليه مِنْ هو أقل منه، كما
حصل لسيدينا حذيفة رضي الله عنه، لما قال له رجل:

لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذِيفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ
تَفْعُلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْرَابِ، وَأَخْذَتْنَا رِيحُ شَدِيدَةً
وَقُرْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَّنَتْنَا فَلَمْ يُجْهِهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ
جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَّنَتْنَا فَلَمْ يُجْهِهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ

يَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَنْتَنَا فَلَمْ يُحِبْهُ مِنَا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «إِذْهَبْ فَأَتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمَمَا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَا صَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مُثْلِ الْحَمَامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرْرَتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَصْلِ عَبَاءَةِ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصْلِي فِيهَا، فَلَمْ أَزِلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»^(١).

وَمَا أَجْلَ موقَفَ الْحَبِيبِ ﷺ - وَكُلُّ موافقِهِ جَمَالٌ فِي كَمَالٍ - وَذَلِكَ فِيمَا جَاءَ فِي الصَّحِيفَ: عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْحَوْيِصَرَةَ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي شَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خَبَثَ وَخَسِرَتْ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»^(٢).

وَجَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ أَنَّهُ قَالَ: خَطَبَنَا أَبْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمًا بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَبَدَأَتِ التَّجُومُ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ:

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمُ بِرَقْمِ ١٧٨٨.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ ٣٦١٠، وَمُسْلِمُ بِرَقْمِ ١٠٦٤، وَمَا أَبْعَدَ دَلَالَةَ لِفَظِ: «وَيْلَكَ»، فَهِيَ كَلْمَةُ عَذَابٍ، مِنَ الْوَيْلِ، بِخَلْافِ قَوْلِكَ: «وَيْحَكَ»؛ فَهِيَ كَلْمَةُ رَحْمَةٍ تُقالُ عِنْدَ الْإِكْرَامِ.

الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِّنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَفْتُرُ، وَلَا يَتْشَنِي: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَعْلَمُنِي بِالسُّنْنَةِ؟ لَا أُمَّ لَكَ^(١).

القائد الفذُ

لقد قالوا: القادة ثلاثة أنواع:

الأول: يَقُودُ، ويُقادُ، ويتعامل مع القادة.

الثاني: يَقُودُ، ولا يُقادُ، ويتعامل مع القادة.

والثالث: يَقُودُ، ولا يُقادُ، ولا يتعامل مع القادة.

وهم في الأفضلية على نَهْجِ الترتيب المذكور، فأفضلُهم أَوْلُهم، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه.

لقد خاطب النبي ﷺ هرقل بقوله: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدٌ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمُ الرُّؤُومِ»^(٢).

أما يَسَعُهُ أن يقول له اللَّفْظُ الَّذِي نَظَرَبُ لَهُ، وَتَرَتَّبُ أَصواتُنَا عَلَى الْمَنَابِرِ بِهْجَةً بَهِ، وَنَهَرَتْ طَرَبًا لِسْمَاعِهِ: إِلَى هِرَقْلَ كُلُّ الرُّومِ؟ أَمَا تُنْسَبُ هَذِهِ الْعَبَارَةُ إِلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ؟ أَفَكَانَ هَارُونَ أَحْكَمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ تَصْرَفًا؟ أَمْ كَانَ لَحَالَةُ خَاصَّةٍ اقْتَضَتِ الْحِنْكَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ الْكَلَامَ بِهَذِهِ الْلُّغَةِ؟

إِنَّ ظَلَّيِّ فِي قَصَّةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ - إِنْ صَحَّ عَنْهُ - أَنَّهَا خَطَابٌ عَسْكَرِيٌّ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم: ٧٠٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤، ومسلم برقم: ١٧٦.

وليست خطاباً دعوياً، وهو للتَّهْدِيدِ والرَّجْرُ، لا التَّحْبِيبِ والتَّقْرِيبِ.

دعوني من الظُّنُون، فَلْيُعْرَفْ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُفِ بِمَا هُمْ عُدُوُّهُ فَقَطُّ، إِنَّمَا خاطب بِعباراتِ الاعترافِ بِالفضلِ أَعْزَى أَحْبَابِهِ مِنْ شَرِكَائِهِ، ثُمَّ طَلَابِهِ، وَمِنْ هُمْ حَسَنَةٌ مِّنْ حَسَنَاتِهِ.

أَمَا الشُّرَكَاءُ: فَمَا أَرَوْعَ تَصْوِيرَهُ لَنْفَسِهِ أَنَّهُ لَبِنَةٌ وَاحِدَةٌ ضَمِّنَ مَنْظُومَةِ مِنَ الْلَّبَنَاتِ؟ أَبْقَى بَعْدَ هَذَا الاعترافِ بِشَرِكَائِهِ أَبْدَعَ مِنْ هَذَا الاعترافِ؟ قَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَقْلِي وَمَقْلِلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَقْلِلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ الْلَّبِنَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَنَا مَوْضِعُ الْلَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ»^(١).

وَأَمَا الطَّلَابُ وَالْأَصْحَابُ: فَلَقَدْ قَالَ بَأْيُ وَأَمِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنْنَتِي وَسُنْنَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيَّينَ، عَصُّوا عَلَيْهَا بِالثَّوَاجِزِ»^(٢).

الفرق في القيادة بين من تقدم ومن قدّم

في القيادة الدعوية: هناك الداعي الذي صنع مجده بنفسه، والآخر الذي صنعته أمور أخرى.

وال الأول: هو من تعب على نفسه، وله اجتهاد كبير، وبصمة واضحة، فتفتحت له الفرص، لأن يطلب منه التدريس في المسجد الكبير، أو

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٤، ومسلم برقم: ٤٩١.

(٢) أخرجه الترمذى برقم: ٤٦٧٦، وقال: «حديث حسن صحيح».

تستدعيه القنوات الفضائية لتألّقه وجهوده.

أما الآخر: فله صور عده: كأن يكون ابن وجيه وعالم، أو توجّهت إليه أيدٍ فأظهرته في قناة فضائية، أو وصل إلى مؤسسة قائمة فعُيّن على رأسها، أو قرَّبه صاحب نفوذ وقلَّده منصباً رفيعاً، فاشتهر بين الناس.

وهذا التفرّق بينهما يفيد عند العلاج من الشذوذ، وذلك ليعلم الصديق الذي شدَّ عن الطريق، من العدو الذي صنعه العدو وسوقه وأظهره ليث سمومه، ويؤدي رسالة تطلب منه.

أهم أعمال القائد

ولئن سألتني عن أهم أعمال القائد لـلخُصُّتها لك في أمور:

١- الحسم بالقرار بعد الشوري.

قال الله تعالى لقائدهنا وسيدنا محمد ﷺ: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ» [الشوري: ٣٨].

لقد كان من أساس بدهيات قيادة الحبيب ﷺ أنه يستشير أصحابه في الأمور العظيمة التي تهمُّ الأمة، ففي غزوة بدر شاور الجنود في لقاء العدو، وفي مكان اللقاء أخذ بآرائهم، وفي غزوة أُحدٍ شاور صحبه، بل في أموره الشخصية التي تعدَّت الشخصية إلى الرأي العام كمسألة الإفك شاور فيها كلَّ معنىًّ، من خادمة، وإنسان لصيق، وحكيماً، وبعيد نظر.

لَكُنْ حَسْمَ الرَّأْيِ بَعْدَ الشُّورِيِّ هُوَ الْخَاتِمُ بِالْمُسْكِ، فَالَّذِي يُشَارِرُ كَثِيرًا، وَلَكُنْ الَّذِي يَرْجُحُ وَيَمْضِي وَيَجْعَلُ الْقَرْأَرَ مُسْتَقْرًّا وَيَقْتُلُ آثارَ الْبَلْبَلَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ، وَهَذَا هُوَ الْقَادِنُ النَّاجِحُ.

٤- الإِقدَامُ أَمَامُ أَعْيْنِ الرَّكْبِ.

وَمَا أَجْمَلَ الْقَادِنَ الَّذِي يَدِيرُ أَكْبَرَ مَعرِكَةَ وَهُوَ فِي عَرِيشِهِ، إِنَّ احْمَرَتِ الْحَدَقَةَ كَانَ أَقْرَبَ الْجَنْدَ إِلَى الْعَدُوِّ! وَمَا أَعْظَمَ الْقَادِنَ الَّذِي يَطْلُبُ حَفْرَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ مَعْهُمْ، بَلْ أَخْذَ لِنَفْسِهِ الْأَمَاكِنَ الَّتِي يَعِزِّزُ عَنْهَا سَائِرُ الرِّجَالِ، وَمَا أَكْبَرَهُ عِنْدَمَا يَصْرُّحُ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ بِقَوْلِهِ مَعَ فَعْلِهِ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِّنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٍ، وَدَمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُّ مِنْ دَمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْخَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَهُ هُدَيْلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٍ، وَأَوَّلَ رِبَا أَضَعُّ رِبَانًا: رِبَا عَبَّاسَ بْنِ عَبْدِ الْمُظْلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(١).

٣- لَمْ شَعْثُ الرَّاعِيَّةِ، وَتَالِيفُ قُلُوبِهِمْ.

رُوِيَ عِنْدَ ابْنِ الْمَبَارِكِ فِي كِتَابِ الْجَهَادِ^(٢): عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَغَدَا الْجُنُوشُ، وَأَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِيَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى التَّيْمُ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «يَا بْنَ رَوَاحَةَ، أَلَمْ تَكُنْ فِي الْجُنُوشِ؟» قَالَ: بَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَكَ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَنْزِلَهُمْ فَأَرُوْحُ وَأَدْرِكُهُمْ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي

(١) أُخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بِرَقْمِ: ١٦١٨.

(٢) بِرَقْمِ: ١٤.

فِي يَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ عَذَّوْتِهِمْ .

وهذا الحديث عند الترمذى مروي أيضًا، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: **بَعَثَ النَّبِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي سَرِيرَةٍ فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَعَدَا أَصْحَابَهُ فَقَالَ: أَتَخَلَّفُ فَأُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ أَلْحُقُّهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ رَأَاهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَغْدُو مَعَ أَصْحَابِكَ؟» فَقَالَ: أَرْدَتُ أَنْ أُصَلِّي مَعَكَ ثُمَّ أَلْحُقُّهُمْ قَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ عَذَّوْتِهِمْ»** ^(١).

وهكذا كانت قيادة الحبيب ﷺ، فإنه القائد والمشرف على السرية، وليس لأحد من الجندي أن يتخلّف عن الجماعة لأسباب عاطفية، فمع شدة لطف النبي ﷺ وقد علم أن سبب تخلّف ابن رواحة رضي الله عنه تحرّك لوعيجه شوقيه لوداع حبيبه ﷺ، ول可能會 آخر العهد بالمدينة حضور خطبة المصطفى ﷺ ورؤيه جمال طلعته، ومع هذه التقديرات كلها فقد خاطبه بعبارة توجب إعادة النظر بهذه العاطفة، فإنها لم تشفع في تخلّف أحد الركب عن جماعته.

القائد الأعلى يعين القيادي والتنفيذي

اعرف كيف تُكلّف الدعاة، فبعضهم قيادي، وبعضهم تنفيذي، والتنفيذي إذا وضعته في موضع القيادة شدَّ الرَّكْبَ كَلَهُ إِلَى الوراء، كما أن عمل القيادي في التنفيذ يكثُر القوانين واللوائح الناظمة للعمل في أعين الناس أحياناً، ويُهُوّنُ في أعينهم ما يعدونه تجاوزاً.

(١) أخرجه الترمذى برقم: ٥٦٧، وقال: «حديث غريب لأنعرفه إلا من هذا الوجه».

والحكمة فرُزٌ كُلُّ متخصصٍ حيث يحسن من العمل والخبرة، ولا فضل للقيادة على التنفيذ، كما لا عكس.

فرض القيادة الجزئية على التنفيذي

وتفويض القيادي بعض المهام إلى المنفذ أَمْرٌ حسُنٌ، على أن يبقى زمام القيادة في يد القائد، والتنفيذ بيد المنفذ، مع بُحْبُوحة من المساحة بين يدي إنجاز المهمَّة، ولكنَّ أَكْبَرَ خطأً في القيادي أن يتوهَّم القيادة في المنفذ، فيفوَضُهُ من غير تقييد، ومنْ غَير رسمٍ كامل، ويتوهَّم أَنَّه يكفيه بيانُ الخطَّ العريضِ الأَكْبَر، ولو كان كذلك لكان قيادياً، ولما احتاج إليه.

وكم في قادة الدعوة من تعب نفسيًا من سلوك المنفذين تحت يده، لأنَّه يتوهَّم أنَّهم أهل للتفويض المطلق، وأكثُرهم لا يحسنون ذلك، فعقلهم التنفيذي لا يعرف إلا تطبيق الأوامر المطلوبة بالحدافير، والقائد يقيسهم على طريقة عقله في القيادة، وربما كان التنفيذي قيادياً، وهذا يصلح منفذًا تحت يد القائد، ويبعد أكثر من التنفيذي الصُّرف، ولكنه رجل نادر، ما أقله!

القائد لا يترك مكانه شاغرًا

ولقد اشتَدَّ المرض بمولانا رسول الله بأبي وأمي ﷺ فلم يترك المكان شاغرًا، ولم يشتعل بنفسه ومرضه ويترك مكان اجتماع الأمة فارغاً بغير قائد، فقد جاء في الحديث: لَمَّا اشْتَدَّ بَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَهُ قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالثَّانِي»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٨٦

وظني أن لو ترك المكان فارغاً لاجتمع المسلمون وسُدوا الشَّغْر، ولن يجتمع المسلمون في المسجد النبوي ثم ينفضوا دون صلاة، وسيتقدّم أحدهم للإمامية لا محالة، ولكن سيد القادة ﷺ لم يرض أن يعيش المسلمين ولو للحظات دون قيادة، أو أن تدخل بينهم المجادلات غير المجدية، ولكنه حسم الموضوع من أصله، وعَيْنَ القائد مكانه ليوم الناس.

بل القائد ﷺ لا يترك مكاناً بعيداً عنه بغير قيادة، فقد جاء في حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَابٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقْمَنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَا قَدِ اشْتَقَنَا أَهْلَنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: «اْرْجِعُو إِلَى أَهْلِيْكُمْ، فَأَقِيمُو فِيهِمْ وَعَلِمُو هُمْ وَمُرْوُهُمْ، وَذَكَرْ أَشْياءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا، وَصَلُوَا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِيْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةَ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحْدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(١).

وإنني لأعرف في الشيخ والدعاة من إذا سافر تعطلت دروسه وأنشطته الدعوية بِرِمَّتها حتى يرجع، كما أعرف من لا يوقف درساً ولا يربط الدعوة بحضوره، بل يوكل مكانه من يسُدُّ الشَّغْر، وهذا خاص بدورس الناس العامة، والدروس الوعظية وأشباهها، ومن حَقِّ العالم الذي يُقرِئُ قراءاتٍ خاصةً أن يتوقف عند التعطل، فمن كان يقرأ على شيخه ختمة من القرآن، أو يدرس كتاباً بعينه يُمنَح إجازة أو شهادة به، فلا حرج من التوقف، وعدم تقديم البديل.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣١.

إعداد الخلف من القيادات

يقولون: إذا أردت أن تبني مؤسسة فكن قائد الأتباع، وإذا أردت قيادة مؤسسة كبرى، فابنِ القيادات.

وبناء القيادات ليس بالأمر اليسير، بل هو من أشق الأعمال، والنفس المؤهلة للقيادة كثيرة، ولكن الفرصة والهمة قلَّ أن تأتي للمرء، فلذا تجد أن القائد الحقيقي هو واحد من مئة، وأقدم من صرَّح بهذه القاعدة هو مولانا رسول الله ﷺ، في قوله: «تَحْدُونَ النَّاسَ كَيْلَ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

حدثني باحث - والعهدة والثناء عليه - أنه أحصى سيرة الحبيب ﷺ فظهر أن الذين أسلموا على يد رسول الله ﷺ مباشرة كانوا على أعلى تقدير ١٥٠ شخصاً ما وصل إلينا، وهو القائد، أي معدل ١٣ في كل عامين، ولكنه أعدهم إعداداً كبيراً، بحيث كان الفتح على يد كل واحد منهم كالسيل الجارف، ما أتى على غثاء إلا جرفه، وروى الأرض العطشى، وسقى الزرع وأنبت البقل.

وقال بعض مدريي القيادة: يجب أن يعطي القائد ٨٠ % من وقته في تعليم الأتباع، و ٤٠ % في الإدارة.

ثم تفكَّر: أن أحد القيادات تحت يدي رسول الله ﷺ هو أبو بكر، وقد أسلم على يديه سبعة من العشرة المبشرين بالجنة^(٢).

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٤٩.

(٢) كما في «السيرة النبوية» لابن هشام ١: ٥٠ وما بعدها.

قلت: وأعظم من بناء القيادات عند مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ، أنه كان يبني بالعمل، ويشير إلى بنائه بالقول، لقد جاء عنه ﷺ: «أَرَحْمُ أُمَّتِي يُأْمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرٌ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاةً عُثْمَانُ، وَأَفْضَاهُمْ عَلَيْهِ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَفْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبْيَهُ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ رَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ حَرَّاجَ»^(١).

ما أبعد النظر النبوى عندهما أرشدنا إلى قادة الأمة وهو حي ﷺ بين أصحابه، ولو أنه قال: «أرحم أمتي بأمتى أنا»، لصدق، ولو قال: «وأشدُّهم في أمر الله أنا» لصدق، فلِمَ يعزُّوا الأمر لطلبة تحت يده؟ لعل من الأجوبة الكثيرة جواب: لأنَّه ﷺ قائد، والقائد السوي الناضج من يعترف بغيره ويحيل إليه أحياناً، وإن كان من نتائجه وطلابه، فكيف بسيد القادة ﷺ.

ويبدو لي أنَّ بُعدَ النظر النبوى أورد الحديث للإشارة إلى القيادات، وللإفادة من القيادات، ولإحالة الحِمل على القيادات الجدد، والمعجب المتعلق بالقائد الأول ربما لا يعترف بمن يخلف حبيبه الأول، فكم سمعت من الأتباع من قال: «لم أحضر درس عِلْمٍ في حياتي بعد رحيل شيخي فلان»، مما أبعد نظر الحبيب ﷺ عندما أحال نفسه على القادة بعده، فكانه يقول للناس: لن أسمح لأحد أن يقول بعدي: مات رسول الله ﷺ، ولم يخلفه مثله، مع أنَّ العبارة حق، فَمَنْ مِثْلُ رسول الله ﷺ؟

(١) أخرجه الترمذى برقم: ٣٧٩١، وقال: «حديث حسن صحيح».

انتقاء الأقوى للخلافة

ويا لهف قلبي على زمان نحن فيه، لا ينتقى الأقوى ليخلف الراحل، بل في كثير من الأحيان لا يُخطط للقادم أبداً، وإنما يُنظر إلى الواقع فقط، ويُخطط القائد ما يثبت وجوده، فينتقى صفاً كاملاً من الضعفاء تحته، لأن أول عوامل ثبات القائد في مكانه أن يأتي بعصبيةٍ كلهم ضعاف، فهذا ما يُرسّي قواعد كرسيه، لكن هذه النظرة الدنيوية لا تتماشى مع البعد الدعوي.

إذا أراد الداعي أن يبني القيادات، فلا بد من ملاحظة أمر: هو أن الطلاب تحت أيدي شيوخهم على قسمين:

قسم يولد وينشأ ويعيش ويموت تحت يد شيخ واحد، وقسم لا يستطيع إلا الدوران والاستفادة من عدد كبير من الشيوخ.

وفي كلا القسمين خير، ولكل صنف إيجابياته، وسلبياته إلا أن يلاحظ الطالب نفسه بالتهذيب.

فالقسم الأول: يسعه أن يكون الخليفة والبديل عن شيخه إن سافر أو مرض أو انقطع أو مات.

وأما الثاني: فمميز بل صاعدة في التميز، ولكن لا يستطيع أن يعتمد شيخه عليه بأن يكون خليفيه ولا نائبه، فمن سلبياته أنه غير قادر على البقاء تحت جناح شيخه، لأنه أوسع من أن يؤطر، لكن تميزه في إنتاج عسل أصله مُجَمَّعٌ من كل الثمرات، ولم يكن من زهرة واحدة.

أكبر كارثة تهدّد القياديين الناجحين خيانة طلاب القيادة، ومتطلعي

المناصب، وأغلب هؤلاء ليسوا أهلاً لها، وأهلها الصالحون لها زَهاد بها لأنها تأتِيهم على أطباق الذهب، بسبب شُحّ موارد القياديين.

ويهدّد القائد الصامد خونَةَ الصف الأول والثاني، فيعطل بعض الأعمال بسبب خوفه على العمل منهم، والأنكى أنه إن مات قَلَ وراءه أعمالاً كثيرة كانت غامضة عن أعين الناس، ولعل حلاً من أمثل الحلول لهذا المرض في هذا المضمار أن يهبيَ القائد نسخة واحدة عنه، مُوزَّعة على نفر من الصف الأول والثاني، من يغلب على ظنه تزكيتهم، وكل واحد من هؤلاء قطعة من أعباء القائد، فإن مات القائد قام كل واحد بمهنته، وإن خان أحد هؤلاء تكون الخيانة في جزء صغير، لا في المجموع.

فاصنع نسخة عن كل قيادي لديك، حتى لا يذهب العمل بذهابه، فإن خُفتَ خيانَةَ الجديد فاصنع البديل موزعاً على عدة، أي: اصنع خمسة كل واحد منهم يأخذ بعشرين من القيادي الأول، حتى إذا هلك نابوا عنه، وإن خان أحدهم لم يخن بأكثر من العشرين.

وهذا كالحلّ القائل: إن لم يكن لديكم صلاح الدين الأيوبي (ت: ٥٨٩هـ) رحمه الله، فاصنعوا صلاح الدين من مجموع من الشباب، كل فرد يمثل جانباً من شخصيته، وبمجموعهم يمثّلون شخصه الكامل.

قيادة متفرقة لها وجه واحد

بناء على الآنف أقول: القيادة أنواع كثيرة، منها:

١- قيادة مستقلة في واحد.

٥- قيادة موزَّعة على عدد.

٦- قيادة في مجموعة لهم وجه يظهر أمام الناس.

وأريد التعريف بالصورة الأخيرة الآن: أعرف فرقة إنشاد مؤلفة من فطاحل أهل النغم والكلمة الهدافة، والأصوات العذبة، والذائقه الفائقة، توافقوا بينهم على تنصيب رأس منهم وهو أحدهم، فاشتهرت الفرقة باسمه، وطار اسمه في الآفاق، والحق أن المجموعة هي العاملة بمجموعها، والآخر رمز لها، لكن أصبحت الناس تظنّ أنه المحرك الأول، ولكن الحقيقة انكشفت سرعان ما تفرق جمجمة الفرقة، ولم يستطع هذا الرمز أن يجمع فرقة بِأَلْقِي التي مضت.

وهنا لا بد من تنبيهات مهمة في إعداد القيادات:

- الإعداد القيادي إنما يكون من جميع الجهات، وإن كان القائد سيتخصّص بعدُ في زاوية واحدة، فعند إعداد القائد يجب أن يعَدَ من الناحية العقدية، والفقهية، والحياتية، والسياسية، والروحية، فيجمع العلم والعمل والتراكية والمِراس والجهاد والفتوى والتجارة وكلّ نواحي الحياة، ثم هو سيذهب بنفسه إلى قيادة مَنْ دونه في زاوية واحدة بشكل مرَّكز، وبباقي الروايا على سبيل التبعية.

- في تدريب الموهوب على القيادة لا بد أن يحضر عند جمهرة من مختلف أصناف العلماء، ولكن حَذَارٌ حَذَارٌ أن تسلّم هذا المتدرب إلى المرضى، فإن مُشَامَةَ العالم - أي: ما تشفطه الرُّوحُ من المعلم والشيخ - تؤثر في الملتقي سلباً وإيجابياً.

- في إعداد القادة إياك أن تنسى قاعدة: «تُقبلُ توبَتُهُ، وَتُرْفَضُ إِمَارَتُهُ»، وإن رأيت في التائب مؤهلات في القيادة الدعوية، فإنه لا يصح أن يُسلم مقاليد الدعوة، كأن يتوب العدو اليوم ويكون القائد غداً، فمن شروط القيادة أن يذوق مرارة الطاعة، كما ذاق حلاوة المعصية، فلم يسلم النبي ﷺ أبا سفيان منصباً في ثاني يوم من إسلامه، ولا استلم عمر إلا بعد التحقق من صدق إسلامه، رَحْمَةً لِلَّهِ عَنْهُ.

- إن الترقى بين رتبتي «صف ضابط» إلى «نقيب» سهلة، لكن كلما ارتفعت الرتبة شدداً عليها، فكيف في العمل الإسلامي؟ أي يصلح منْ كان صفرًا أن يرتفع إلى رأس الهرم في ليلة؟

- ضعفاء التخطيط يعيشون ويتوالدون ويسعدون ويتعدبون، وكل هذا في المخططين أيضاً، ولكن الإسلام حَضَنا على التخطيط والنجاح والمشي بعد الدراسة والمدارسة، ولا بد أن تكون نسبة الزلل عند المخطط أقل منها عند المتخطّط.

- كلما نَضَجَ المتدرب على القيادة أُوكِلَ إِلَيْهِ مَهْمَةً أعلى من التي قبلها، حتى يصعد درجَ القيادة درجة درجة، ويصل إلى القِممَ.

فاعمل على إعداد القيادات الدعوية، وإنما تخافن من قوم خيانة فلا تبتئس بما يصنعون، وامض إلى إعداد غيرهم ولا تلتفت، فالمتساقطون في الطريق كثير، والتعويل على الثابت النابت، وإنك لا تدرى في أي إعدادك البركة، وقل لسحابة التاركين لك: «أَمْطَرِي حَيْثُ شَئْتَ فَإِنْ خَرَاجَكَ سِيَّاتِينِي».

القائد يعيّن القائد ومن يخلفه

لم يكن النبي ﷺ ليرسل سرية إلا أمراً عليها أحد أعضائها، ولكن العجيب أن يعيّن الأول وخلفه إن قتل، والثالث إن ذهب الثاني، فلقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أمراً رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفُرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفُرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةً». قال عبد الله: كُنْتُ فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتال، ووجدنا ما في جسده بضمعاً وتسعين؟ من طعننة ورميّة^(١).

فلا تعجب بعد هذا إن رأيت أن النبي ﷺ لم يرض في سفر أن يبقى الناس بغير قيادة، فلقد جاء عند أبي داود من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: «إِذَا حَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤْمِرُوا أَحَدَهُمْ»^(٢).

والحديث ينص على شرطين اثنين: كون العدد ثلاثة، وكون الثلاثة مسافرين.

والسؤال: ماذا لو كانوا ثلاثة في غير سفر؟

الجواب: إن كانوا في المدينة فأمرهم شوري، وإن كانوا في فلاد فلهم حديث خاص ينظم أمرهم، ويجعل القيادة في يد واحد، لأن أمر الفلاة لا تصلح فيه الاجتهادات، بل يحتاج إلى حسم القرار مع سرعته، فقد جاء

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦١.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٣٦٠٨، ٣٦٠٩، وقد حسن الإمام النووي في المجموع: ٤.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرُو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِغَلَاثَةٍ نَفَرٍ يَكُونُونَ
إِلَّا أَمْرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ»^(١).

والسؤال الثاني: ماذا لو كانوا اثنين في سفر؟

الجواب: قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم،
وقد أرسلهما إلى اليمن معًا: «وَتَطَاوِعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(٢).

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ

في القيادة الدعوية: يجب أن يستعمل المبدأ القرآني وهو: **﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَشَدَّدَ أَوْ يَنْتَهِرَ﴾** [المذثرون: ٣٧].

فالتقدُّم والتَّأْخُر على أنواع: فالطالب يكون قريباً من الشيخ ثم يبتعد،
ويكون من الدائرة الأولى ثم الرابعة، ويكون من يواكب على الحضور ثم
يتحوَّل إلى الحضور عبر وسائل التواصل.

فلا يجعلهم القائد فيقرب سواءً، ولم يكن عاملاً للأعراب بين يدي رسول الله ﷺ كزاهر بن حرام، ولم يكن عاملاً لأهل المدينة كالخلفاء الأربع
رضي الله عنهم، وهكذا الأتباع، قد يبقى الجندي في صفة، وقد يتقدم أو يتراجع،
فيجب تعديل صفوفهم باستمرار، ومراقبة قرب مقاعدهم من تبعدها.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ٦٦٤٧، وحكم عليه محققون المسند بالحسن.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

دفع الطالب إلى الأصلاح له، بعد دراسة شخصيته

حدثني الشيخ محمد أمين الحامد حفظه الله، قال: إن والدي الشيخ محمد الحامد (ت: ١٣٨٩ هـ) رحمه الله نصح تلميذه الشيخ سعيد حوى (ت: ١٤٠٩ هـ) أن يلتزم عند الشيخ عبد القادر عيسى (ت: ١٤١٦ هـ)، لما رأى من ميلوه الصوفية.

وحدثني الأستاذ الشاعر يحيى حاج يحيى حفظه الله قائلاً: إن الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي قال ل תלמידه الشيخ سعيد حوى رحهما الله: اذهب إلى جماعة الإخوان والتزم عندهم، مع أن الشيخ سعيد حوى كان صوفياً ملتزماً عند شيخه الشيخ عبد القادر عيسى.

وهذه لا بد من تعليق عليها، حيث يلحظ المربي النجابة في عيني تلميذه ولكن في جانب دون آخر، وهب أنني أدرّس طالباً مواهبه في الخطابة والوعظ والتأثير الجماهيري، فمن العبث أن أضيق عليه، أو أشعره بالنقص إذا لم يستطع الالتزام بالبحث العلمي، أو تحقيق المخطوطات، أو تدريس الطلاب في مدرسة، أو إكمال الدراسة الأكاديمية، أو أمثلها مما هو عكس رغبة الطالب، وخلاف توجهه.

بل القيادة الحكيمة أن يُشجّع على مواهبه التي أُتيها، فمن أفلح في المجال الأكاديمي ولم ينجح في غيره فإنه لا يجبر على غيره، بل يوجّه إلى التعمق والتخصص الكبير في مشاه، وهكذا صنع الشيخ في المثال الآنف.

وليَّس صدر الداعي لأخيه الداعي إن دفع الطالب إليه ثم رجع، ثم غَيَّر ثم بَدَّل، فهذا كثير الصدور من المقلّبين، فبعض الطلبة يحب أن تفصل له على قدر قياسه، ثم يَعِنُّ على باله أن يُنقص وزنه، فيجب أن تغيير القياس، لأن

يرى نفسه أهلاً لتدريس الكبار، ثم إذا مسَّه شيءٌ من لأُوائِلِهم، صاح: رب ارجعون إلى الأطفال، فهم ألينٌ عريكة وألطُفُ همساً، ويفرض عليك أن تغيّر موضعه، أو رأى نفسه أهلاً للدراسة فدفعته إلى أخيك، ثم غَيَّرَ وبدَّلَ.

القصور الدعوي

كان شيخي الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٦ هـ) رحمه الله يخاطب طلبة العلم قائلاً: يا طلبة العلم: كونوا كالشمس، الشمس للجميع، وتدور على الجميع، وتبقي شمساً، فلا تبقى في مكانها، ولا تَقْصُرُ نفسها على جهة دون أخرى، ولو بقيت في جهة واحدة لمَلَّها الناس وكرهوها، وتعلموا أن ينفذ نوركم في الأشياء، لا أن يصطدم في الأشياء، وإياكم والاعتماد على فئة ضئيلة ومجموعة محصورة، فإذا فُقدَتْ فُقدَ كُلُّ شيء.

لا أشك أن بعض الدعاة قد نجح في تربية فئة جماعة محصورة، ولكن هذا النجاح بقي محصوراً، لأنه مصاب بمرض: «القصور الدعوي»، فهو لا يعرف إلا من سبقت معرفتهم، فلا يخرج عنهم، ولا يتواصل مع غيرهم.

ومن سلبيات عمل المريي مع جماعته المحصورة عدم التطلع واستهداف شرائح غير التي بين يديه، ويضيقُ أفق تفكيره الدعوي، وتُقصُّ جناحاً طموحةً، بحيث لا تُهُمُّه مخالفةُ المخالفِ، بل ربما يصل إلى استعداء الفئات غير المستهدفة، أما عندما يصبح الناس من يستهدف، ويرى عندهم مخالفة مقبولة، فإنه يتسع لهم.

الشيخ المنكفي على مَنْ حوله ويرى بهم على عقل أحادي واحد، إذا عَرَضَت مسألةً من التي تكثر فيها الخصومة فإنَّه لا يهمه المخالفُ، بل قد يشطُّ في

العبارة، ويحكم على المخالف بالأحكام الشديدة، لكن عند وجود طلاب من أتباعه من لهم رأي غير رأيه فإنه يغير خطابه شاء أو أبى، ويبدي للناس وجههِ نظريًّا معتبرة، ويفتح الله عليه باسمه «الواسع».

وهنا يجب أن يُطرح على المتوقع الذي قصر نفسه على فئة بعض الأسئلة:

ـ ماذا لو تقاعس بعض من عندك من مجموعتك؟

ـ ماذا لو نقصت الجماعةُ عندك بموت بعضهم؟

ـ ماذا لو تغير بلدك؟ وأنت من لا يتحرك ولا يتواصل مع جديد.

من خلال هذه الأسئلة وتوابعها سيقف الداعي إلى الله تعالى على أهمية تجديد الشريعة، ويرى أن المستهدفين لديه كلام، إن سال طاب وإن لم يجرِ لم يطِبْ.

قائد صاعقة

تألمت ألمًا شديداً لف्रط عقد جماعات عقب وفاة الشيخ أو فقده، وكتبت في نقد هذه الفكرة كثيراً، منها القاعدة السابعة والثلاثون من كتابي: ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى، ص ١٦١، حيث ابتدأت الكلام بقولي: «اربط مريد الهدایة بالإسلام لا بنفسك».

وأصلت لهذا من الكتاب والسنة وفعل الصحابة، وعُبِّـت قول القائل: «إنني لم أحضر عند أحد من الدعاة بعد وفاة شيخي، ولم يعجبني كلام أي أحد بعد كلامه».

ولكنني أجدد الأفكار وأنضجها وأحاول ألا أترك ثغراً يُعَابُ على إهمالي،

سألت نفسي: سأرفض قول الكثيرين إن قالوا هذا القول، ولكن ماذا يعمل من فقد شيئاً صاعقة، ولم يأت بعده من يملأ فراغه؟

لقد قال عدد من تلامذة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله: «إن الشيخ قد أفسد علينا العلماء»، أي: تعرّفوا على الذهب الخالص، فأصبحوا إذا رأوا العيار الأخف لم يملأ أعینهم، ولم يجدوا عنده الجديد الذي يُبهر العين.

ماذا يعمل من يبحث متجرداً وفي الحقيقة لم يجد؟ فالحديث عن الصاعقة الراحلة التي عزّ مثيلها.

هل تأدnon لي بالصراحة؟ إن في شيوخي من فقدته ولم يُسدد أحد مكانه مع اعترافي بفضل الكثير.

هناك الذي هيأه الله تعالى بروح عزّ نصيرها، أو معرفة قلّ نظيرها، أو شخصية عزّ وجودها، منهم شيخي الجليل الشيخ محمد عدنان السقا (ت: ١٤٤٦ هـ) رحمه الله، وبعض شيوخي الأحياء حفظهم الله تعالى لا يُسدد مكانهم أي أحد، أسأل الله أن يبارك في أعمارهم، وإن كان بعضهم في جانب من الجوانب، وليس في كل الجوانب.

قل لي بربك: من أين يأتي بمثل شيخه منْ تربى عندشيخ خطيب مصقع، عالمٍ متمكنٍ، أكاديميٌ فَدّ، مؤصلٌ عند العلماء، يجمع بين الفقه والفلكلور والسلوك والتربية والدعوة والحركة، بل بعضهم زاد: الاستغلال السياسي والبرلماني وأمور الأمة، والحنكة في الكلام، والعبقرية في مواجهة الخصم.

لا بد هنا أن أرشدك فأقول: لقد فقدت صاعقةً، ولا أظنك تعثر على

مثيل، ولكن ابحث عن عدد من الرجال ليسدوا بمجموعهم مكان شيخك.

جندى صاعقة

على القائد أن يلاحظ ويلقط الجندي الصاعقة، وهذا من يتقدم بنفسه دون مقدم غالباً، ويكشف نفسه قبل أن يكتشفه القائد، وذلك لإقادمه وإنجازه، وقل أن يمر بالقائد هذا النموذج، فيراه كالصاعقة، نبلًا وعملاً وحركة وإنجازًا، فيجب أن يقربه القائد ويفرح به، ولا سيما إذا ما قارنه بأثرائه، فإنه وحده ليمتاز على مجموعة كبرى من أولئك.

والغالب على المريي ومن في موضع القيادة أن يتوجّس خيفةً من أمثال هؤلاء، فتراه يحذر من تجاوزات الجندي المميّز، ويتوّقع التورّط، كما يخاف من منازعته المكانة، ويرأي هذا كله في غير موضعه، اللهم إلا إن بدا من ذلك شيء صريح، أو غالب على الظن كثيراً، فلكل داء دواء، كما لكل علاج حكماء.

من ذا الذي لا يسأل عما يفعل من الناس؟

ومن الحكمة أن يرخي المريي والقائد الحبل قليلاً لهذا الصاعقة، ولكن دون أن يصل إلى حد الغطرسة، ولیحدّر ثم لیحدّر من أن يصل رفض النصح إلى الجندي الصاعقة، بحيث يرى نفسه أنه لا يُعرض عليه، ولا يسأل عمما يفعل، ولا يُناقّش في آرائه، فهذا مرض سريع العطب بل الوفاة عن الجماعة.

قتل الصاعقة

إن عملية قتل الصاعقة لها طرق كثيرة: منها أن يمدح القائد الصاعقة

في جميله، ويُشَكِّرُه على إنجازه، ويُثني عليه خيراً، ويُشَكِّرُ عمله ولا يُكفره، ويرى من الحكمة أن يُسْكِنَ عن زللِه، فيُكْبِرُ الجندي في عين نفسه، ثم يعزم حتى يرى نفسه فوق حجمها، وهذه بداية استشراء مرض الوفاة، ويُصْفِقُ له مُصَفَّقُونَ، ثم يطول الأمد فَيَمْلِأُ المصفقونَ، ويُموتون حول ذاك المشوّه، ويُموت ذاك الجندي الصاعقة، وسببه: إعطاءه أَكْبَرُ من حجمه.

ومنها: أن يُكَبِّلَه ولا يفوّضه، ويحِدُّ من صلاحياته ولا يفسح المجال بوجهه.

ومنها: أن يقتل إبداعه بالإِنْكَار عليه، ومحاولة إظهار النقد لأي اجتهاد.

ولها طرق ما أظنه تحصى عدداً.

شعور الجندي أنه أكبر من معلمه

ولا أعرف داءً في الجندي المتميز أَكْبَرَ من أن يرى نفسه فوق معلمه، وأنه أَكْبَرَ من قائدِه، فإذا وصل البلاءُ هذا الحَدَّ بِكَى وأَبَكَى، ويكون قد اشتَدَّتْ عليه النرجسية^(١)، ووصل إلى مقام يتوهّم أنه ليس بحاجة إلى القائد، بل القائد بحاجة إليه، وأنه أُوعِيَ منه، وأنفُدَ منه، وأنه المطاغُ أَكْثَرُ منه، وأنه الخبر الإستراتيجي أَكْثَرَ منه، فعند ذلك كَبَرَ على القيادة أَرْبَعاً، وقل بأعلى

(١) النرجسية: مرض نفسي يُشعر صاحبه بأهمية نفسه بصورة مفرطة، ويكون صاحبه ذا جوع مستمر لسماع المدح والإطراء.

صوت: لم يعد يصلح هذا الجندي لهذا القائد، فابحثوا عن حل لهذه المعضلة.

علاج المنتفع تغيير المهام أو تقليلها

ومن داء بعض المتميزين أنهم يتوهمون أنفسهم أكبر من حجمها، ولا سيما إذا صاحب هذا مدح وثناء وتكبير من قبل القيادة العليا، فربما يصاب الجندي بداء الانتفاخ، وللأمر أدوية كثيرة، ولكن من أهمها: علاج الورم بتقليل أسبابه.

فالذى يُمْسِكُ بمهامٍ كثيرةٌ تُقللُ مهامُه.

ومن كانت صلاحياته كبرىٌ حُجِّمت.

ومن كان مفوّضًا بجنودٍ كثيرةٍ يرعاها قُللَ عددها.

ومن كان له موقعٌ حساسٌ في التواصل مع الناس عُزلَ من المنصب إلى غيره.

وهذه الأدوية كلها للحفاظ على جسم نشيط، فمن إماتة الجسم الحي أن يتورم وَهُمِيًّا، ويستمر بالورم، حتى يُؤثِّرَ غرورُه على نفسه ومن حوله، واقتلاعه بعد استشراء المرض خطأً، لأنَّه يشق صَفَّ الجماعة، ويُسحبُ الكثير من الجنود معه، كما أنَّ علاجه في المراحل المتأخرة قليلُ الأمل، والبرءُ من العاهة صعبٌ، فلا أَنْجَعَ ولا أَفضلَ مِنْ ملاحظة وتداركِ المرض في بدايته.

بعض أفكار القائد لا تنشر

التصريح من القائد بأفكاره لا يصلح إلا في مواطن، منها إلى صنفين:

الصنف الأول: أتباعٌ يتلقّفون كل كلمة يقوها.

الصنف الثاني: ذو عقل ناضج منفتح ومرؤءٍ تحجّبه عن الخيانة.

أما مَنْ يراكِ نِدًا، وإن كانت التَّنَّيَّةُ بقدر يسير، كأن يراكِ نِدًا له بقدر ١٠٪ فقط، وهو الآن مغلوب وأنت غالب، فهذا يُسْكُنُ، حتى إذا سَرَّى عنه فأتيحت له الفرصة أظهر كلَّ ما في قلبه عليك.

هذا وإن أعظم بُعْيَة يصل إليها أعداء الداعي غالباً ما تكون عن طريق إذاعة سَرٌّ، وربما يكون سبباً في تدميره أو تدمير دعوته، فلذا جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في التركيز على حفظ الأسرار.

وإن تربية الرسول الأعظم ﷺ كانت ثُرَّةً كثيراً على سرِّية بعض الآراء والأفكار، فأسرَّ النبي ﷺ سِرًا لإحدى زوجاته، وسَطَّر الله تعالى هذا الموقف في دستورنا الخالد فقال: ﴿وَإِذَا أَسْرَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَغْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ [التحريم: ٣].

والعجب أن ترى أصحاب الحبيب ﷺ يحفظون سرَّ رسول الله ﷺ دون أن يرِدَ في الحديث أنه ﷺ أمنَّهم ووصَّاهم بحفظ السر، ففي حديث عرض سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنته حفصة على أبي بكر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لم يرجع أبو بكر بحواب قبول ولا رفض، فوجد عمر في نفسه شيئاً، فلما خطبها رسول الله ﷺ جاء أبو بكر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وقال:

لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ،

قال: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعِنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقِيلُتُهَا^(١).

وهذا شأن البَضْعَةِ الطَّاهِرَةِ الشَّرِيفَةِ، السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا رَضْوَانُ اللَّهِ، فقد جاءَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأً، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» فَأَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسْرَ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَهَا فَصَحِحَّكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا: مَا يُبَكِّيكِ؟ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمَ فَرَحَا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ: أَخَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثِهِ دُونَنَا، ثُمَّ تَبَكَّيْنِ؟ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَالَثُهَا فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ حَدَّثَنِي: «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْفُرْقَانِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَانِي إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجْلِي، وَإِنَّكَ أَوْلَى أَهْلِ لُحْوَقَى، وَنِعْمَ السَّلْفُ أَنَا لَكِ»، فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَنِي، فَقَالَ: «أَلَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟» فَصَحِحَّكُتْ لِذَلِكَ^(٢).

وهكذا كان خُلُقُ الخادِمِ الْلَّاصِيقِ، فقد روَى ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ، عَنْ أَنَّسٍ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٤٠٠٥.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمِ: ٣٦٩٣، وَمُسْلِمٌ بِرَقْمِ: ٦٤٥٠، وَهَذَا لِفَظُهُ.

رَحْمَةِ اللَّهِ عَنْهُ أَتَهُ قَالَ: أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَتَى الْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، قَالَ: فَسَلِّمْ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُتْيَى، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرُّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا. قَالَ أَنَسُ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتَنِي يَا ثَابِتُ^(١).

فلا عجب بعد هذا أن تجد الإمام الحاكم (ت: ٤٠٥ هـ) ينقل عن الواقدي أنه وصف سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: «صاحب سر رسول الله ﷺ»^(٢).

وما ألطَّف وأجمل وأحبَّ لقبَ سيدِنا حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه لِمَ اشتهرَ بينَ أصحابِه بـ«صاحب سر رسول الله ﷺ»^(٣).

ولن أطيل أكثر من هذا في بيان أهمية كتمان الأسرار لدى الداعي، فمن بدَّهِي علم الدعوة أن يعلم أبناء الدعوة أنهم سيلقون الأحباب والأعداء، فما ظنُك بحال الأعداء إن وقفوا على بعض الأسرار؟ والأسوأ منه أن ينقلب إلى عدوٍ من كنت تُظنه صديقاً، ويكونَ من اطلع على ما ينبغي كتمانه، فتصبح بعض الأخبار عنده مادة للنَّيل من عدوه، ألا فلتنخل الصداقات، ولشخْتَرْ

(١) متفق عليه وهذا لفظ مسلم برقم: ٤٤٨٦، ولفظ البخاري برقم: ٤٤٨٦ بلفظ: «أَسَرَ إِلَيْنِي اللَّهُ سِرًّا، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدُ، وَلَقَدْ سَأَلَّتِي عَنْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ».

(٢) «المستدرك على الصحيحين» بعد حديث رقم: ٥٣٦٦.

(٣) انظر سنن الترمذى رقم: ٣٨١١.

الأُخُوهُ بمعايير الاختبار المحمدية قبل التوسيع في العلاقات والأسرار.

القيادي والانقلابات

القيادي في غير الدعوة غالباً ما يحرص ألا يأتي بمثله، فضلاً عن الأقوى والأجدر منه.

لي صديق يعمل في مؤسسة ضخمة، وطلب منه إحضار شخص بصفة كذا وكذا، وقابل عدداً من الموظفين، حتى أتى برجلي انتقاماً على صفات عالية من الخبرات، وأخلص في تعيينه بأعلى الصفات، ووصل الأمر إلى النهاية.

لكن خيانة المدير العام كانت جاهزة حاضرة، حيث أعطى صديقي إنذاراً بالإقالة من العمل، ليُعينَ هذا الجديد مكانه، وهياً صديقي نفسه للخروج من العمل، لكن اللطف الإلهي في اللحظات الأخيرة منعه، حين ظهر في أن الرجل الجديد يحمل مرضًا يحول بينه وبين التوظيف.

أما الداعي إلى الله الصادق المخلص فلا إشكال عنده من الأقوى منه، فهو يقدمه وإن كان أقوى سمعة منه، أو علماً، ولكن ما أقل الإخلاص!

حدثني شيخنا الشيخ عبد المجيد بيانوني حفظه الله، قال: سمعت شيخي الشيخ أحمد عز الدين بيانوني (ت: ١٣٩٥ هـ) رحمه الله يقول: ما مئلنا في العمل الإسلامي وحمل خدمة الإسلام إلا كمثل رجل طلب منه أن يحمل صخرة كبيرة، لكنه غير قادر على حملها، فجاء من يحمل معه، أيسعده مجيء هذا المساعد أم يسوؤه؟

قلت: ولكن النفس البشرية تأبى - وأنا منها - أن يأتي العاطلون البطالون

ليسروا أعمال المجاهدين، فالله الله بمن يضم يده إلى يدك ليعينك على عملك، ولكن من الحزم في القيادة أن تُبعِّد يد السرّاق عن سرقة أعمالك.

المتَّخِلُونَ يُسَاعِدُونَ مراتٍ ثم يُترَكُونَ

في القيادة الدعوية كثيراً ما ينطلق أناس يساعدون الداعي، ويُظْهِرون الإخلاص له، وهنا وجب على الداعي مساعدتهم، وكثير منهم ينطفئ حماسه بعد مدة، فيجب الأخذ بأيديهم، ولو كَلَفَ الأمر أن يوقف الداعي سيره قليلاً ليأخذ بأيديهم، مرة، وثانية، وثالثة، ولكن لن تكون رابعةً وخامسةً وسادسةً وأكثر من غير خطّام ولا زمام، بل يجب أن يرفع عندها شعار الاعتذار اللطيف عن المتابعة والمجاراة، فليس من العقل أن يتوقف المتحمّس، ويُوقَفَ غيره معه، ولو حصلت لتبادل القائد والجندي موقعهما.

هذا وقد أفادني رجل خبير في الدعوة - أحسنه الله إليه - أنه حصل معهم مثل هذا كثير، فكان العلاج على النحو الآتي:

١- لا يتوقف القائد، لكن يخصّص له قريناً من الجنود لتبقى شعرة الصلة بينهم.

٢- لا تقطع الزيارة لهذا الجندي، ولكن القائد هو من يعيّن الزائر، ولا يكون بحال من الأحوال من قبّل الجنود الجدد.

٣- يَسْتَعْمِلُ في علاج الجندي تذكيره بالماضي ومنتجاته، ويطلبون منه الحديث عن منجزاته القديمة، فهي أدّى للرجوع، والبرء من العلة.

٤- يستنفر القائد الجندي ليدعوا لأخيهم، فهو غالٍ لا يُقرّط به.

وعند ترك المخالف عن الركب ومتابعة السير سُيَّرُهُمُ الداعي بأنه متقلب، يقطف ثمرات الناس ويتركهم، ولكن الله يعلم المفسد من المصلح، فدع من شاء أن يشغله نفسه بك، واستغسل بالله تعالى.

المنقابون عليه

لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَحْبَبُوكَ.

في طريق الدعوة أشواك مؤذية، منهم أناس يترَبَّون مع فئة من الناس، وقد انتسبوا إليهم حيث لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وبعد مدة فَتَقَتْ أمـعـاـهـم ونشـرـتْ عـظـامـهـمـ منـ تـلـكـ الجـمـاعـةـ أوـ شـيـخـهـمـ، لـكـنـ العـقـلـ لمـ يـنـضـجـ، مع إصـابـةـ القـلـبـ بـقـصـرـ النـظـرـ، فـيـ هـذـاـ الجـسـدـ عـافـيـةـ وـعـلـةـ، وـنـضـجـ معـ تـشـوـهـ، وفي هـذـهـ الـحـالـةـ يـنـشـقـ الـفـرـدـ عـنـ الشـيـخـ أوـ الجـمـاعـةـ، وـيـنـقـلـبـ عـلـيـهـمـ، وـيـقـلـبـ مـعـهـ ظـهـرـ الـمـجـنـ، وـمـنـ عـلـامـاتـ هـؤـلـاءـ، وـمـنـ أـوـصـافـهـمـ الـقـىـ تـكـثـرـ فـيـهـمـ:

- ينسبون الخير كله إلى نبوغهم.

- يصرحون بأسوأ ما عند أولياء نعمتهم، ويشيرون أحطّ الأخطاء.

- ينبعون أسراراً مقطوعة من ملابساتها.

- يحذرون كل عدو بما يهتم به من أخطاء الجماعة، فمن كانت تهمه مسألة البدعة حدثوه عن تلوث الشيخ بها، ومن كانت تهمه مسألة الأموال حدثوه بذلك، وكذلك مشكلات النساء، ومشكلات الإدارة، وعدم العدالة، وهكذا توزع التهم على حسب السامع واهتمامه.

- يُصوّرون خروجهم لله ولرسوله ﷺ، ويختبئون من كل مرض خلف

حكم شرعى مسلم به.

– أتعس المستمعين من يصغي ليصطاد الزلل، أمّا صاحب الفائدة فهو مَنْ يخلص ويُسكت ليأخذ من معين الآخر عَرْفًا إلى معينه، ويستفيد من علوم الآخرين، والأحسنُ منه مَنْ يأخذ ويعطي، ويناقشُ ويجاور، فهو يفيد ويستفيد، ويصحح لغيره، ويقوم أفكار نفسه.

خطأ القائد بألف

لا شيء بعد توفيق الله وعناته يُنْجح عمل القائد وذوي الأتباع كحسن اختيار الأصلح في القيادة والمواقف، وقوّة الملاحظة، وأهم نقطة أنبأه عليها هنا: أن القائد كثيراً ما يستطيع أن يُقْنِع المقودين تحته بوجهة نظره، ولكن السؤال: هل وُفق للخير حقيقة؟

فما رأيت أحداً تشدّد أو تساهل إلا واستدلّ بنصّ من الكتاب أو السنة أو قول لصحابي، أو فتوى لإمام، وعند التنظير يقال: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ»، ولكن عند تَبَيَّنِ الموقف يبحث عنْ مؤيدٍ موقفه.

الفرق كبير بين مَنْ تَبَيَّنِ الموقف وبحث له عنْ مؤيد، ومنْ بحث عن حلٌّ لمشكلة، فجمع الأدلة والبراهين والحوادث المُمَاثِلَة، ثم خرج بخلاصة واجتهادٍ بأفضل موقف وحُكْمٍ يوافق حالته.

فما كُلُّ موقف صدر من الصحابة رضي الله عنهم أو الأئمة يقتدى به، فهناك المواقف التي كانت لها ملابساتٌ ولم تذكر، وهناك المواقف التي كانت في صدر إسلام المسلم، وهناك المواقف التي كانت منه في قوْقَعَتِه، فلما خرج

واختلط بالناس تغّير، وهناك مواقف ممّن شذ عن باقي إخوانه وجمهوره العلماء، فمن تبنّى هذا الرأي وجد بغيته، ومن انتقى من كلامهم ما يوافق عمله رأى ما يرّوي غليله، كمن انتقى من كلام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ) رحمه الله: «محمد بن إسحاق دجال من الدجاجلة»^(١)، وقول ابن أبي ذئب (ت: ١٥٩ هـ تقريباً) في الإمام مالك بن أنس: «يُستَتاب وَإِلَا ضُرِبَتْ عَنْقُهُ»^(٢)، ولكن علماء الحرج والتعديل نصّوا على أنه لا يؤخذ كلام إمام منفرداً عن كلام باقي الأئمة.

توجيه المركب الدعوي

الخطاب الدعوي قسمان:

- ١- زمان الأمان والأمان.
- ٢- زمان الفتن والقلائل.

فلا بد من التفريق بين الحالين، من تقديم بعض الدروس، وتأخير بعضها، والسماح ببعض الدعوة، والإحجام عن بعضها، وهذا كله بيد القيادة الدعوية، فهم أولو البصيرة.

البعد النفسي لدى العامة

إن من أخطاء التربية الجسيمة عدم التركيز على البعد النفسي عندما

(١) انظرها في ترجمة محمد بن إسحاق في «تهذيب الكمال»: ٤١٥؛ ٤٤.

(٢) انظر: «تهذيب الكمال»: ٦٣٨؛ ٥٥.

يلقى النقد في أحضان العوام، وما شرع النقد إلا ليتداوله العلماء ذوى التخصص، ثم يعطى العامة القدر الذي يحتاجونه فحسب، ولكن النقد غير المتزن إذا دخل آذان العوام هدم الكثير في نفوسهم.

وصلت إلى نتيجة: النقد إما لأمر ذاع وشاع، وهذا يتداوله العلماء، ويُعطى للعامة بقدر فيه حذر كبير، وإما لأمر مستور فهذا دفنه أولى، وما أشبهه هذا بالمولود الذي ولد ميتاً، وإن كرام الميت دفنه.

والرّبّام هنا بيد القيادة الدّعوية، فلا يثيرّون أمراً يفسد على العامة دينهم ويرسلونه على عواهنه.

للقيادة أمراض كثيرة

ولو نظرت إلى أهم أمراض القياديين لرأيتها ثنتين:

١- ضعف المبادرة

٢- قلة التنسيق

أما ضعف المبادرة فله أسباب كثيرة متشعبّة، ولكن من أهم أسبابه: انقياد الداعي إلى توجيهات العامة، وما جعل الداعي في موضع القيادة لينفذ آراءَ منْ وراءِه من المقتدين، والعامّة بحاجةٍ لمن يقودُهم لا لمن ينفّذ أوامرهم، وهم في أوقات الشدائِد أحوجُ للداعي من أوقات الرّخاء، ومع ذلك يطيش صوابُ الكثير عند الشدة، ويتوجّهون للداعي مشيرين إليه أن اعتزل إن لم توافقنا فيما نرى، ولا وري ما جعل القائد قائداً ليعتنز وقت الشدة، بل حاجة الناس إليه في الفتنة والشدائِد أكبر من حاجتهم إليه في البُحْبُوحَة.

وأما ضعف التنسيق: فأسبابه كثيرة، لعل أوجهها يرجع إلى إعجاب كل ذي رأي برأيه، هذا إذا كان معترفاً بصنوه، وإلا فكيف ينسق المرء مع من لا يعترف به؟

هذا وللقيادة الشباب أمراض تكثر فيهم عدا الآفتين، وإن أهمها وأولاهَا كلاماً: تَوَهُم الشاب أنه أقدر من الكبار بكل شيء، لأنه تَجَحَّ في شيء، فيتَوَهَّم الفلاح في كل ما أوتي.

عوداً إلى ذكر القائد الذي يتعامل مع أمثاله: فرحم الله الشيخ سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩ هـ) الذي أشار بأصابع كفه الأربع من الخنصر إلى السبابية، وقال لإخوانه: كونوا كهذا الرَّقم، إنه ليس أربعة! ولكنَّه ألف ومئة وأحد عشر، يعني: أن الأخ إذا وقف بجانب أخيه واعترف به أصبح ١١، فإذا انضم إليهما ثالث أصبحوا: ١١١، وهكذا دواليك^(١).

(١) يقول الشيخ سعيد النورسي رحمه الله: «نحن إذن بحاجة ماسة بل مضطرون إلى الاتحاد والتساند التام، وإلى الفوز بسر الإخلاص الذي يعني قوة معنوية بمقدار ألف ومائة وأحد عشر «١١١» ناتجة من أربعة أفراد. نعم، إن لم تتحدد ثلث ألفات فستبقى قيمتها ثلاثة عشر، أما إذا اتحدت وتساندت بسر العددية، فإنها تكسب قيمة مائة وأحد عشر «١١١»، وكذا الحال في أربع أرباعات عندما تكتب كل «٤» منفردة عن البقية فإن مجموعها «١٦» أما إذا اتحدت هذه الأرقام واتفقت بسر الأخوة ووحدة الهدف والمهمة الواحدة على سطر واحد فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربع مائة وأربع وأربعين «٤٤٤» وقوتها». انظر كتاب: «اللمعات»: اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الثاني، ص ٤٤٤.

تحكم الجمهور بالقيادة

أشبّه بعض المُغيّرين لمسار الدعوة بالعايث الذي يجلس جانب سائق السيارة، ويميل بين الفينة والأخرى نحو السائق ويحرف مسار السيارة إلى ما لا يريد السائق، فمن استجاب لهذا المُتَظَّلِّ وأذعن ولم يقاومه غير طريقه، ومن زجره ونهاه، وحجزه عن مراده استطاع أن يمضي نحو هدفه.

جلس أحد المفتين الكبار رحمه الله في مسجد عقب صلاة الجمعة يفتّي الناس بأسئلتهم، وذلك بطلب من خطيب المسجد، وكان في المسجد رجل ثريٌ فاحش الثراء، عنده مصرف ربوى، وجعل الناس يقدمون الأسئلة والشيخ يجيب، حتى سأله أحد المصلين سؤالاً في معاملة مالية، وببدأ الشيخ بالإجابة وبيان أنه ربا، وأنه محاربة لله، ففرّ صاحب المصرف الربوي من مكانه، وقاطع الشيخ بسؤال عن صفاء القلب، وإختبات الروح، ونظافة المساجد، وأهمية الابتسامة.

ولست أتّهم هذا الشيخ الجليل بالسذاجة، لا والله، بل هو أمعي مُتَوَّقد الذكاء، ولعل هذا الموقف بالذات قد مشى دون أن يلتقطه الشيخ، ولكن جرأة ذاك المقاطع غلبت توقّد الشيخ، حتى حسّبه سائلاً يريد التفقه في الدين.

تشييع الطيبة والسداجة في بعض الدعاء، حيث ينبري إليه أحد المصلين ليوجّه دعوته، ويصرّفه عما أراد، ويحول حدّيّته عن وجْهَتِه الصحيحة، وهو هرَبٌ من حالة التَّقْصِ التي يعيشها، وإرضاءً للانفصام الذي يعانيه، فهو يعاور الربا مثلاً، ويحب أن يسمع فتوى من يقول: إنه جائز، أما وقد حرمها،

فلا أقل من أن يسكت الدعاة عن تحريمها، وأن يتكلموا بأهمية النظافة، والابتسامة، ولين الجانب.

جلست إلى درس الأسئلة والأجوبة عقب صلاة الجمعة، إذا برجل كبير السن، وبجانبه ولده الشاب، يصبح من آخر المسجد سائلاً: إذا كانت والدة الزوج تكرم زوجة ابنها، وترفعها، وثريحها، وتتفق عليها، وتهدي إليها أفال المدايا، فهل الواجب أن تقابل بالحسنى أم بالإهانة؟

لقد صاغ السؤال بصيغة لا تقبل إلا جواباً واحداً، إلا وهو: «من أَتَى
إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَفِئُوهُ»، لكنني غلب على ظني أن هذا الأللَّه الخصم هو وزوجه أصحاب الفتنة، وأن الشاب الحيي - الذي لم يستطع أن ينبع بنته شفَّة، ولم يقدر أن يمكِّن عينه من عيني - هو المظلوم وزوجه.

فاجأَتْ السائل: أنت تدعى أن زوجك جيدة المعاملة، ولكن لا بد أن نسمع كلام المرأة في حماتها، لأن تزكيتي أني جيد معك لا تكون من نفسي إلى، بل منك إلى، ولا بد للطرف الآخر أن يتكلم ويدلي بشهادته، فأنت وزوجك في صف، وابنك وزوجه في الصف الآخر.

ثم اكتشفتُ أن فِرَاسَتِي - وهي محض فضل الله تعالى علي - كانت في مكانها التام، ولكن الوقاحة مع الظلم والافتراء قد شجَّعت الرجل أن يصرَّ بالسؤال أمام الناس، وهو يعلم أن ابنه لن يكذبَه، وصاغ السؤال بطريقة لا تقبل إلا الإفتاء بما يريد.

ومن طلاب العدل من يشتته شهوةً، حتى إذا طُبِّقَ عليه كان من الحمر المستنفرة، فَرَرْتُ من قَسْوَة، فأي طلب للعدالة يريد؟ كأنه تخيل العدالة أن

يشارك الملوك قصورهم من غير تعب، وأن يحظى بالبساتين هبة، وما عَرَفَ أن من العدل أن يُعاقب ويُعاتب ويُجلس على كرسي القصاص، لرد ما ظلم به الناس.

وهنا يأتي الدواء لهذا الجرح، وهو فِطْنَةُ الداعي، حيث يقدّمُ للناس ما يحتاجون، لا ما يطلبون.

ما يحتاجه الجمهور لا ما يطلبهجمهور

- يُعشق بعض الناس الخطبَ التي تُنَقَّدُ الإسلام بتكلفَةٍ صفرية، ليس فيه تعبٌ ولا مشقةٌ عبادةً ولا نصبٌ، ولا بذلٌ ماليٌ ولا تضحيَّة، إنما هي تحريك للشفاه فحسب، فينفرونَ من قول: تصدّقوا يا عباد الله، وأصلحوا ذاتَ بينكم، وصلوا مَنْ قطعُوكُمْ، واحذرُوا الربا، ولكنهم يحبُّون الحديث عن التبسم في وجه الأخ المسلم، وأحاديثِ دخول الجنة لمن كان في قلبه مثقال حبة خردلٍ من إيمان، ولكنَّ الإسلام فيه هذا وذاك، ولا يجوز الإيمان والعمل ببعض الكتاب، وتركُ بعضِه.

- يطلب الآباء الكلام عن بر الوالدين، ولا يحبُّون الكلام عن العدل مع الأبناء.

- الأحاديث التي تمدح النساء، وتبيّن أنهن شقائق الرجال، وأن البنت سبب دخول أبيها الجنة، وأنها وأنها.. تجد القبول عند النساء، وتسارع بعضهن لنشر الحديث ومشاركته عبر وسائل التواصل، لكنك قلَّما تجد امرأة تشاركُ حديثًا فيه حقَّ الرجل على المرأة.

– الناس بجملتهم يحبون الأحاديث الغرائب، والتي تشد الأنظار، وتتوتر أعصاب السامع لها، ويبقى مشدوداً العقل إليها، يريد أن يصل إلى الخاتمة، كما يميلون إلى أحاديث ليس فيها عناء: فيحبون سماع: كان النبي ﷺ يقبل بعض نسائه ويسلي^(١)، ويعشقون شرح الآية: ﴿وَأَبْيَغَ فِيمَا مَاتَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحَسِنْ كَمَا أَحَسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، ويركزون على حديث: «وَإِنْ لِتَفْسِيكَ عَلَيْكَ حَقًا»، متဂاهلين الجملة التي قبلها تماماً: «إِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًا»^(٢) وحديث: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجْرَتَ بِهَا حَقٌّ مَا تَجْعَلُ فِي امْرَأَتِكَ»^(٣)، لأنها توافق الهوى، ولكنك إن قلت له: «قَامَ الشَّيْءُ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ»^(٤) أصابه السكت المفاجئ، ثم ينطق فيقول: وهل أنا مثل النبي ﷺ، ولعل الجواب الحكيم أن يقال له: لست كالنبي ﷺ، ولن تصل إلى مقامه، ولكنه قدوة لك، وعليك اتباعه، فلا أقل من صلاة ركعتين، والتصدق بأقل القليل، ولن أطلب منك أن تقوم حتى تنتفح أقدامك، ولا أن تتصدق بكل مالك وتطوي جائعاً، ولا أن تدخل بيتك ولا تجد الطعام فتقول:

(١) عن عروة، عن عائشة، أن النبي ﷺ قبل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة وآمِنَ يتوضأ، قال: قلْتُ: مَنْ هِيَ إِلَّا اُنْثِي، قَالَ: فَضَرِحَتْ. أخرجه الترمذى برقم: ٨٦، وقد ضعفه البخارى، كما في تعليق الترمذى عقب الحديث.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى برقم: ١٩٦٨.

(٣) أخرجه البخارى برقم: ١٢٩٦.

(٤) أخرجه البخارى برقم: ٤٨٣٦، ومسلم برقم: ٤٨٣١.

إني إِذَا صَائِمٌ^(١)

الخلاصة يا سادة: الداعي هو من يحدّد الواجب طرحة في الزمان والمكان، ويتكلّم بما يحتاجه الجمهور لا بما يطلبه الجمهور، وله أن ينفّذ إلى قلوبهم بما يطلبه الجمهور في طرف يسير لشد أنظارهم، ثم يرسل رسالة ما يحتاجه الجمهور، فتكون الفكرة الأولى مطيةً للأخرى.

مستوى خطاب الضعفاء

شاورت عدداً من الممارسين للدعوة إلى الله تعالى، من اعتز بطول خبرتهم، وسألتهم: عن الخطاب الدعوي لطبقة الضعفاء: هل يجب أن أخاطبهم بخطاب أرق من مستواهم كي أرق بهم، أو أخاطبهم على قدر عقولهم ومستواهم العلمي والفكري؟ وبعد المشورة وخلط الآراء وفرزها واستخلاص الحكمة رأيت: أن يبتدئ مع السامعين من حيث مستواهم، فيأخذ بأيديهم ويرق بهم شيئاً فشيئاً، وليس من الحكمة في شيء أن ينزل إلى مستوىهم من أول المرحلة إلى منتهاها، ولا أن يبدأ بهم من الخطاب العالي الراقي فربما تركه بعضهم لصعوبة خطابه.

(١) عَنْ عَائِشَةَ اُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا عَائِشَةَ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: «فَإِلَّيْ صَائِمٌ»، قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَهْدَيْتُ لَهَا هَدِيَّةً، أُوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْدَيْتُ لَهَا هَدِيَّةً أُوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، وَقَدْ حَبَّاْتُ لَكَ شَيْئاً، قَالَ: «مَا هُوَ؟»، قُلْتُ: حَيْسٌ، قَالَ: «هَاتِيهِ»، فَحِبَّتْ إِلَيْهِ، فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ: «فَذَكَرْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا». أَخْرَجَه

هذا من حيث الإجمال، وأما في الحالات الخاصة كأن كان ثابتاً في مكان واحد، في خطبة الجمعة مثلاً، غير منتقلٍ من مسجد إلى آخر: فكذلك يبتدئ من مستوى المخاطبين، ثم ما يلبث أن يتلف حوله عصابة، وينشئ الجمهور، حتى يبدأ بالصعود في خطابه درجة درجة، وممّا صار له مستمعون خواص، فله أن يبقى معهم في المستوى الأرفع، وإن انفض عنّه من رأى الصعوبة في خطابه، فلا حرج من ذهاب القليل مقابل السواد الأعظم.

وما أجدب تصرّفه إن كان في الدرس الواحد والخطبة الواحدة تنويعٌ في النزول إلى مستواهم، والصعود بهم، وشحذ هممهم، وإعمال عقولهم، وهذا يجلب الجمهور الأكبر، وتستفيد من خطابه جميع الشرائح، ولا تختص به الشريحة المثقفة فقط، ولا ينفض عنّه أحدٌ لصعوبة كلامه.

وعي القيادة في مصدر المعلومات

في الأمس توفيت الداعية المربية الكبيرة منيرة القبيسي (ت: ١٤٤٤ هـ) رحمها الله، وذلك عن عمر تجاوز التسعين عاماً، وهي المربية لجماعة كبيرة تسمى بـ «القبيسيات»، وسال اختلاف بين الكتاب في وسائل التواصل الاجتماعي كالسيل الحارف! والذي شد انتباхи محطات فكريّة بدھيّة، لا عجب أن يسقط فيها عوام الناس، ولكن العجب أن يغرق فيها بعض من ينتمي إلى العلم الشرعي.

الأول: يدّعى أن هذه الجماعة جماعة عميلة تدعمها جهات مشبوهة، فإن طالبته بالدليل دفع إليك تقرير قناة مرئيّة عدوّة، يرأسها رجل غير مسلم، والله أعلم بمن يعمل فيها.

الثاني: يحکم على كل أفراد الجماعة بالعَمَالَةِ، من خلال ثبوتِ نفاقِ شِرْذِمَةٍ من أفرادِ الجماعة.

الثالث: لا يفُرقُ بين آمنٍ في سِرْبِهِ، معافٌ في إقامته، وجالِسٍ بين فَكَيْ كَمَاشَةِ عَدُوٍّ، فما يُبَاح لعُمَارِ بن يَاسِرٍ أن يقوله وهو تحت صخر العذاب، لا يجُوز لجعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ في الْحَبَشَةِ عَلَيْهِم رَضْوَانُ اللَّهِ جَمِيعًا.

الرابع: يقول: انظروا إلى هذا الجمع الكبير وكلهن من القبيسيات، في هذا الفيديو مع الظالم فلان؟ والمنافق فلان.

يا سيدى: من أين حكمت على هذه الجموع أن كلهم من هذه الجماعة؟ أما مَدَّ ذهنك إلى متر واحد لتقول: عدوٌ أراد الواقعة بيني وبين أخواتي، فأتأتى بعضهن ووضعهن في المقدمة ليظهرن بالتصوير، وجعل وراءهن الجموع الغفيرة ليخدعني؟

وإني لأعتقد أن هؤلاء لم يفهموا قول الحق في عالياته: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] والقراءة الأخرى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(١).

أيأخذ المسلم ترجمة عائشة الصديقة رضي الله عنها من تمثيلية قدرة، وممثلة ساقطة، وكاتب كاذب؟

يمكن أن تحاسب العوام على الإنصاف الفكري، والتفكير الموضوعي، ما دام قد سقط في وحل العدو بعض المخلصين المغفلين من أبناء مسيرتك العلمية؟

(١) وهي قراءة: حمزه، والكسائي، وخلف العاشر.

ولمَا قلت لأحدهم: أتأخذ ترجمة إخوانك من تقرير عدوك؟ أجابني:
 «الحكمة ضالة المؤمن»! أيشك من لديه مزعة عقل يفگ بطريقة صحيحة:
 أن أخذه لأنباء رسول الله ﷺ من أي جهل ليس حكمة ليلتقطها، إنما هي
 قدف وكذب وزور يتحاشى!

هيئات أن يكون مصدر أخبار أمي من عدواتها، فكيف أصدق كلام
 الحاقد في الصادقين من إخواني، وكيف أعادي أخا وأغير حكمي عليه منْ
 أجل ما يشاع عنه على لسان العدو الماكرون! أما المؤمن فلا يقول عن المؤمنين
 إلا قول الله تعالى: ﴿أَوْلَئِكَ مُبَرِّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].





سلوك الداعي





أحسن ما ورثه الشيوخ

لو قيل لي ما أحسن ما ورثته من شيوخك؟ لأجبتك من غير تردد: المنهج القائل: رأيي صحيح، ورأي غيري صحيح.

- إذا كان الإسلام يطلب اللين بيد الأخ عند الاصطفاف إلى الصلاة، أليس اللين مع أخيك مطلوبًا أكثر في سائر الحياة، فرحاً وترحًا، سفراً وحضرًا، ولقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، وقد أرسلاهما إلى اليمن معاً: «وَتَظَاهَرُوا وَلَا تُخْتَلِفَا»^(١).

والله لا أذكر أنني سمعت من غير الحنفي - من شيوخي الذين علموني - من يقول: إن الحنفية مبتدعة في كذا، أو قيلت من الحنفية عن الشافعية، لقد ورثنا شيوخنا أن الحق يتعدد، وأسوأ ما يمارسه بعض المتصدرين للدعوة اليوم قولهم: الصحيح كذا، والراجح كذا، ويعرض له رأي فقهي فيجيب مباشرة: هذا غير ثابت، ويضرب صفحًا بكل ما أُوتِي من قوة في نسف رأي مخالفه.

هذا الكبُر المنهجي^(٢) من أخطر ما يُمارس لدى مرید الدعوة، ولو كان على الحق، لقال أنا على حق، ومذهب غيري أيضًا على حق، ما دام الأمر دائرًا بين أسرة أهل السنة والجماعة.

فإن قيل لي: هل تنفي صحة المقوله: «رأيي صحيح يتحمل الخطأ، ورأي

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

(٢) وسمعت الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله يسميه بـ«الاستعلاء المنهجي».

غيري خطأ يحتمل الصحة؟

أقول: بل هي صحيحة في نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى المذاهب الأخرى، إذ إن اجتهاده أو تقليده لمذهب أوصله إلى قول، فهو الراجح لديه، ويُحتمل أنه خطأ، ورأي غيره في نظره خطأ، ولكنه يحتمل الصحة، ولكن الفرق كبيرٌ بين هذا، ونظرة الضلال للمخالف، أو السخرية به، كما نهج بعض صغار العقل والعلم.

النَّمُوُّ السُّرطانِيُّ

والكلام الانف كله عن الاختلاف في الفروع، ولست متعرضاً لأصول العقيدة، ولا ممِيِّعاً للثوابت، ولا حاكياً عن قطعيات الدين.

كما أَنَّى لا أرى إثبات شواد المسائل الفقهية، وشذوذات بعض العلماء، إنما كلامي في المذاهب والأراء المعتمدة، ثم الآراء الضعيفة التي يحتاج إليها الفتى لإنقاذ دين المرء من أوحال الحرام.

ولكن أقواماً من الدعاة المرموقين والمتصدرين في وقتنا ضخموا الفروع الفقهية ضخامة سلطانية، بحيث سحبوا بعض الفروع فضمُوها إلى الأصول، وألحقوا بعض الجزئيات الصغيرة بالأصول الكلية، وصوّروا المخالف فيه كأنه متَّفقٌ عليه، فيذكرون في كتب العقيدة بعض الأحكام الفقهية، واشتَدَّ قولهم، وعلا صوْتهم في مسائل تشَنَّجوا فيها، حتى أوهموا السامِعَ أن المسألة مما اتفق عليها السلف والخلف، وهي فيصلُ الحقَّ من الضلال، والحدُّ العازل بين أهلِ السنة والزائفة قلوبُهم.

يرفع أحدهم صوته: كلا، إن سنة الجمعة القبلية لبدعة قبيحة.

ويصبح ثان: الذكر الجماعي بدعي، وكذا الجهر به، ولا يؤجر صاحبه، بل يحاسب، وهو جاهل أو مُتجاهل مؤلفات العلماء وفتاويهم في المسألة^(١).

وثالث يقول: الدُّفُّ غير مشروع في ديننا للرجال.

ورابع أدرج مسألة التوسل بالنبي ﷺ والصالحين في كتب العقيدة.

وخامس يصوّر مسألة حلق أو ترك شعر الوجنتين قوله^(٢) فوّلًا فيصلًا.

وسادس يُصَيِّر مسألة إنكار شد الرحال إلى خندق مَنْ لا يحب
النبي .

وَضِدُّه بالغ في إنكار مسألة شد الرحال إلى زيارة المصطفى ﷺ، ووضعها في كتب الاعتقاد.

ومثله من غَيْر مسألة الحَلِف بغير الله فجعلها مسألة عقدية متفقاً على كفر مَنْ حلف بغير الله، من غير تفصيل معروف، محله في كتب الفقه، والحديث ثابت في حَلِف النَّبِي ﷺ بقوله: «أَفْلَحَ وَأَبْيَهِ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبْيَهِ إِنْ صَدَقَ»^(٢)، وروي أنه لما سأله الرجل: أَمَّا تَكُونُ الدَّكَّاَةُ إِلَّا في

(١) للحافظ السيوطى فتواتان في كتابه: «الحاوى للفتاوى» ٢: ١٣٦ وما بعدها، وأفردها بالتأليف العلامة الشيخ أبو الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى (ت: ١٣٠٤ هـ)، رسالة لطيفة سماها: «سباحة الفكر في الجهر بالذكر»، وحققتها العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ)، رحمهم الله جميعاً.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١١.

الْخُلْقِ أَوِ الْبَيْنَةِ؟ قَالَ: «وَأَبِيكَ لَوْ طَعَنْتَ فِي فَحِذْهَا لَأَجْرَأَكَ»^(١).

وقال أحدهم: لو أَلْفَت كِتَابًا في العقيدة لَحِّرَّمَتْ فِيهِ حَلْقُ الْلَّحِيَّةِ،
وأُوجِبَتِ التَّقَابُ.

وهكذا تَسْتَمِرُ المعركة.

تَبَّا للْعُقُولُ الضَّيْقَةُ، أَلِيسَ الدُّفُّ مَشْرُوِّعًا فِي مَذَاهِبِ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ؟^(٢)
أَلِيَّسَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْجَمَعَةِ مَسْنُونَةً عِنْدَ السَّادَةِ الشَّافِعِيَّةِ وَالْخَنْفِيَّةِ^(٣)،
وَلَهُمْ نَصُوصٌ وَأَدَلةٌ اسْتَدَلُوا بِهَا؟ وَجَمَعَ أَدَلَّهَا الْحَافِظُ ابْنُ الْمَلْقَنَ (ت: ٨٠٤ هـ)
رَحْمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَةِ خَاصَّةٍ اسْمَهَا: «سَنَةُ الْجَمَعَةِ الْقَبْلِيَّةِ».

أَلْمَ يَكُنُ الذِّكْرُ الْجَمَاعِيُّ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ؟

فَمَا بَالَ هَذِهِ الْعُقُولُ تَحْكُمُ فِي اِتِّجَاهٍ دُونَ آخَرَ؟ وَتَحْمِلُ الْأَمَّةَ جَمِيعَهُ عَلَى
مَذَهَبٍ وَاحِدٍ؟

كَمْ ضَاقَ صَدْرِيْ وَأَنَا أَقْرَأُ فِي مَقْدِمَةِ كِتَابٍ: «دُفُّ الْأَوْهَامِ عَنْ مَسَأَةِ
الْقِرَاءَةِ خَلْفِ الْإِمَامِ»، لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْغَفَارِ عَيْنَ السُّودِ (ت: ١٣٤٩ هـ)

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» بِرَقْمِ: ١٨٩٤٧، دُونَ ذِكْرِ الْقَسْمِ، ثُمَّ عَطَّفَ عَلَيْهَا الْقَسْمَ عَقبَهَا
مِبَاشِرَةٍ بِرَقْمِ: ١٨٩٤٨، قَدْ يُقَالُ لِي: إِنَّمَا أَشَرْتُ إِلَى ضَعْفِ الْحَدِيثِ بِقَوْلِكَ: رَوِيَ، فَلِمَ تَذَكَّرُهُ
إِذْن؟ أَقُولُ: لَسْتُ أَسْتَدِلُ بِهِ عَلَى حَكْمٍ فَقِيَّ، وَلَكِنْ إِشَارَتِيُّ: لَوْ أَنَّ شَرْكَ مُتَفَقَّعٍ عَلَيْهِ، فَهُلْ
يَسْتَجِيزُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنْ يَرْوِيَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي مَسْنَدِهِ، مَعَ نَسْبَةِ الْقَوْلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ! وَإِنْ كَانَ
عَدْتُ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَهَذَا مِنْ بَابِ زِيَادَةِ التَّأكِيدِ لَا غَيْرَ.

(٢) انْظُرْ: «الْمُوسَوعَةُ الْفَقِيهِيَّةُ الْكُوَيْتِيَّةُ» ٤٥: ٤٧٨.

رحمه الله، وهو يتحدث عن سبب تأليف الكتاب، فذكر: أن رجلاً شافعيًّا المذهب حكم بـكفر السادة الحنفية، وذلك لأنهم لا يقرؤون الفاتحة خلف الإمام، وبناء على هذا الأمر فصلاتهم باطلة، وينتتج عنها أنهم لا يصلون، وبين المرء والكفر ترك الصلاة، فهم كفار!

قاتل الله سوء الفهم ما أتعبه!

أنت مخطوطة فريدة، وغيرك كذلك

عند وصف الكتاب القديم المخطوط بخط اليد يقال أحياناً: «هذه مخطوطة فريدة». ويعنون: لها تميّزاً عن غيرها، فهي إما وحيدة لا أخت لها، أو لها مزايا عن غيرها.

وقد ميّز الله تعالى الناس ببصمة خاصة في الأنامل، وبصمة في العين، وأخرى في الصوت، وما هو جميل في إنسان قد يكون عيباً في آخر.

خطب شاب الجمعة وكان قد تدرّب على الخطابة في إحدى المدارس الشرعية في مدينة حلب، وكان أستاذ الخطابة يحثُّ الطلبة على الاستفادة من أسلوب خطيب مؤثّر سماه لهم، فأراد الشاب أن يطبّق نصيحة معلّمه لينهلَ من بحر خطابة ذاك الشيخ، لكنه تقمّص شخصيته، وأسلوبه، بل حروفه بذاتها.

خرج في أول لقاء له بالمصلين، والمسجد مسجدٌ صغير في قريتهم الصغيرة، لم يحضر فيه من المصلين غيرُ صّفٍ واحد، فنادى في المصلين أن رصوا الصفوف ليتسع المكان لإخوانكم الواقفين في آخر المسجد، ثم كان من

بداية الخطبة أن قال: ومع الخطبة الخامسة والخمسين بعد المئة الرابعة.

كم أفسد تَقْمُصُ الشخصية الأعمى من النتائج، وكم أضحك من ثكالي.

الاستفادة من الأسلوب أمر رائع، ولكن لـكَ شخصيَّته وطريقُته في التربية والتعليم والإشارات والمحروف والأمثلة، وقد تكون في شخص مَزِيَّة، فإن تقلَّدها غيره أصبحت مَذَمَّةً وسُخْرِيةً.

والعقلُ من عرف نفسه أنه مخطوطة فريدة، وليس لها أي نسخة في العالم، وله أن يستفيد من أسلوب غيره بصورة عامة.

وما أبدعَ التصويرَ الذي صَوَّرَه لي أستاذِي في الأدب والشعر والفكر، الدكتور أحمد البراء الأميري (ت: ١٤٤٥ هـ) رحمه الله، قال لي: تلمنت على علماء من العالم الإسلامي كثيرين، وكان منهم الشيوخ الأجلاء: مصطفى السباعي (ت: ١٣٨٤ هـ)، وأبو الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩ هـ)، وعبد الرحمن زين العابدين (ت: ١٤١١ هـ)، ووالدي عمر بهاء الدين الأميري (ت: ١٤١٢ هـ)، وعبد الفتاح أبو غدة : (ت: ١٤١٧ هـ)، ومصطفى الزرقا (ت: ١٤٢٠ هـ)، وأبو الحسن الندوبي (ت: ١٤٦٠ هـ)، وغيرُهم كثيرٌ وافر، رحمهم الله جميعاً، ثم خرجت بلوحةٍ متنوّعةٍ خاصة بي، جمعتها من كلّ هؤلاء، وما كنتُ نسخةً عن أحدٍ بعينه.

إي والله، هكذا العمل الصحيح، ومن الطبيعي ألا يعجبك تقمص الشخصية، والتقليلُ الأعمى، كالذي أُعْجِبُ بشيخه الفذ المتألق، فقلَّده في

ضِحْكَتَهُ، وَحَدِيثَهُ، وَسُكُونَهُ، وَعَبَثَهُ فِي حَيَّتِهِ، وَطَرِيقَةِ إِغْمَاضِ عَيْنِيهِ فِي أَثْنَاءِ
الْحَدِيثِ أَحْيَانًا.

خطيبُ أَبْكَى وَآخِرُ أَضْحَاءِ

يُحَكَّى أَنَّ أَحَدَ عُلَمَاءِ حَلْبِ الْأَقْدَمِينَ جَمَعَ عَلَى الْمِنْبَرِ خُطْبَأً بَعْدَ جُمُعِ
السَّنَةِ، مَعَ مَوَاسِمِهَا، فَإِذَا صَعَدَ الْمِنْبَرُ غَرَّةَ الشَّهْرِ الْمُحَرَّمِ، كَانَتِ الْخُطْبَةُ عَنِ
الشَّهْرِ الْمُحَرَّمِ، وَفِي الْأَسْبَعِ الْأَوَّلِ مِنْهُ عَنِ عَاشُورَاءِ، وَفِي الثَّانِي لَهُ مَوْضِعُهُ،
وَهَكُذا، تَمُّرُّ الْأَسْبَعُونَ وَالْأَشْهُرُ، وَلَا يَخْرُجُ إِلَى الْمِنْبَرِ فِي مَنَاسِبٍ إِلَّا كَانَتِ الْخُطْبَةُ
مَهْيَأً لَهَا، وَفِي ثَنَاءِ يَاهَا الْأَسْبَعُونَ الْأَوَّلُ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْعَشْرُ الثَّانِي، وَالْعَشْرُ
الْأَخِيرُ، ثُمَّ خُطْبَةُ الْعِيدِ، وَهَكُذا فِيمَا قَبْلُ وَبَعْدِهِ.

وَمِنَ الطَّرِيفِ أَنَّ الشَّيْخَ إِذَا انْتَهَى مِنَ الْخُطْبَةِ قَلَبَ وَجْهَهَا، ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى
طَرْفِ الْمِنْبَرِ، وَهَكُذا حَتَّى نَهَايَةِ الْعَامِ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ طِبْقَةَ الْخُطْبَةِ بِتَمَامِهَا،
وَيَقْلِبُهَا قَلْبَةً وَاحِدَةً، فَتَصْبِحُ أَقْدَمُ خُطْبَةٍ - وَهِيَ أَوَّلُ الْمُحَرَّمِ - أَوَّلَ شَيْءٍ.

وَالْعَجِيبُ الْغَرِيبُ أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ كَانَ قَدْ رُزِقَ الإِخْلَاصَ فِيمَا يَبْدُو، وَلَهُ
قَبْولٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَسْمَعُ الْخُطْبَةَ الْمُكَرَّرَةَ الْمُعْرُوفَةَ الْمَحْفُوظَةَ
إِلَّا وَيَبْكِيُ، وَلَا تَكَادُ تَدْخُلُ الْمَسْجَدَ وَقْتَ الْخُطْبَةِ إِلَّا رَأَيْتَ الْبَكَاءَ وَالْعَوْيَلَ
مُرْتَفِعًا فِي جَنَابَاتِهِ، وَهَذَا قَدْ غَطَّى رَأْسَهُ، وَذَاكَ لَهُ خَنِينٌ.

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ، فَخَرَجَ إِلَى الْمِنْبَرِ رَجُلٌ لَيْسَ بِأَهْلٍ
لِلْخُطْبَةِ، وَلَا هُوَ مَوْضِعُ قَبْولٍ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا أَعْرُفُ دَخَائِلَ سَرِيرَتِهِ،
وَلَكِنَّ: «مَا أَسْرَرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ

وفَتَّاتِ لسانه^(١)، فاستلم الخطبة متقمّصاً شخصية الشيخ الراحل، الذي يُبَيِّنُ النَّاسُ بمجرد سماع حروفه، بله من أول نظرة إلى طلعته، تقمّص شخصية الشيخ بالوقوف، ثم نفح على الخطبة القديمة - كما كان الشيخ قبله يفعل - ليزيح عنها الغبار المترانّم منذ أمد، وشرع في الخطبة، فلما انتهى كان معظم المصلين يكظمون ضحكتهم لكثرتها ما صدر عنه من هنّات، ولبعد الخطبة عن حال الخطيب.

علق الشيخ محمد الحجار الحلبي ثم المدّني (ت: ١٤٦٨ هـ) رحمه الله على هذه القصة فقال: «الأَلْفُ هِيَ الْأَلْفُ، لَكِنَّ الْأَنفَاسَ تَخْتَلِفُ»، يقصد: الحروف التي وردت في الخطبة هي نفسها تكرّرت على كلا اللسانين، ولكن روح العالم كانت لها مشاركة في قبول الناس أو ردّ الكلام.

الجمع بين الانتماء واليقظة وضربيته

وهكذا تبين كيف ينتهي الداعي إلى شيوخه الذين ربوا وأثروا في تكوينه العلمي، وتأصيل شخصيته، ولكن بيقظة ومحاولة جمع لمحاسن الكل، حتى يصل إلى شخصيّة مُجَمَّعَةٍ المحاسن، مع ترك ما لا يُوافِقُ عليه، وما هو ثوب خاص بصاحبها لا يُقَلِّدُ فيه.

لكن لهذا الحال من حرية التفكير والاعتقاد ضرورة، وهي أن الجامدين من الأتباع سيتهمونك بالميوعة، وأنك لست من تابع الشيخ الأساس بصدقٍ،

(١) من أقوال ذي الحياة، صهر حبيبي ﷺ، سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح، ١: ١٩٤.

وقد تَتَّهَم بالذنبة، لأنَّهم يرونَكَ توافقَ الشَّيخَ في أمورٍ وتخالفُه في أخرى، وتفكِيرُهم لا يعرفُ هذه الحال إلا أنها تذبذب.

ولكنَ الفَطَنَ يعلمُ: أنَ تطويرَ الطَّالبِ أفكارَه وتعديله عَمَّا ورِثَهُ من شيوخه حالةً صحية ضرورية، وأنَ المرض يكمن في حالتين:

١- التقليد الأعمى.

٢- الارتداد بشراسة وسوء أدب عما تَرَبَّى عليه، كمثل الذي تبرأ من تربية أبيه.

فَكَنْ داعِيًّا يجمعُ الرَّحِيقَ من كلِ الشَّيوخِ، ليخرجَ منه شرابٌ مختلفٌ
أَوْلَاهُ فِيهِ هدَايَةٌ لِلنَّاسِ، لَا يشَبَّهُ عسلُ دعوته عسْلًا آخرَ، ولن يغْنِي فردٌ عن صديقهِ، والعلماءُ كالْأَزْهَارِ، لَكُلِّ زَهْرَةٍ لَوْنٌ وَرِيحٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ الْآخَرِ.

النفاق للعوام وأمثالهم

ومن الناس مَنْ عقِيدَتْهُ وتعلَّمَهُ يتبعانِ منفعتَهُ الشخصيَّة، ولو تحولَتِ
الفائدةُ من جِهَةٍ إلى أخرى لتحولَ المُعْتَقَدُ، ولو تغيَّرتِ العُصبةُ المستَمِعَةُ لهُ،
أو المسجدُ ورُوَادُهُ، أو البلدُ وأهلهُ لتغيَّرَ جذرًا.

لقد حَدَّرَ العلماءُ كثيَرًا من سوءِ نفاقِ العالمِ للحاكمِ، وذلك لشروعِ
هذا الأمرُ في الزَّمنِ الأولِ، ولكنَّي في زَمْنٍ أَصْبَحَ من الواجبِ علىَّ أَنْ أَقولَ:
نفاقُ الضعيفِ للأقوى، أو نفاقُ ذي الحاجةِ لِمَنْ يَحْتَاجُهُ، وأَخْصُ بالذكرِ بعضُ
أَنواعِ النفاقِ.

النوع الأول: نفاق الداعي للعامة!

النوع الثاني: النفاق لمن يتقاضى منهم الأجر، كلجنة المسجد.

النوع الثالث: النفاق للمسؤولين والوزراء والحكام.

النوع الرابع: النفاق لمن يظنُ لهم شأنًا في القابل، كأبناء الوزراء والملوك والمسؤولين.

وكل هذه الأنواع لا تحتاج إلى كبير شرح، باستثناء النوع الأول، فإن طرَّحه غريبٌ، وقد نصَّ العلماء على كبيرة نفاق العالم للحاكم فأصابوا، ولكنْ قد يظنُ أن نفاق العالم هو للسلطان فقط، لا وألف لا، فإنَّ أنواع النفاق كثيرة قد يصعب حصرُها، منها نفاق العالم لقبيلته، أو لعصبته، ومنْ أسفَ أنواع النفاق لدى الدعاة أن يكون للمستمعين إليهم.

أجل، هناك بعض التزلفِ من قبل الداعي إلى الجالسين على درسه، والملازمين لخطبه، فهو أدرى بما يعجبهم، فلا يخطب إلا ما يوافقون عليه، ولو خرج عن الخط المرضيِّ أئمَّةً هلك، فمن أسبابِ الحفاظ على مكانه ومكانته ألا يقول في قضية ظلم: لا تشهدني، فإني لا أشهد على جُورٍ^(١)، ولا

(١) فيه إشارة إلى الحديث الصحيح: عَنِ الْتَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ أُمَّةً بَيْتَ رَوَاحَةَ سَلَّتْ أَبَاهُ بَعْضَ الْمُؤْهِبَةِ مِنْ مَالِهِ لِابْنِهَا، فَالْتَّوَى بِهَا سَنَةً ثُمَّ بَدَا لَهُ، فَقَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشَهِّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا وَهَبْتَ لِابْنِي، فَأَخَذَ أَبِي بَيْهِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ عُلَامٌ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّهَادَ بَيْتَ رَوَاحَةَ أَعْجَبَهَا أَنْ أُشَهِّدَكَ عَلَى الذِّي وَهَبْتَ لِابْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا بَشِيرُ الْكَلَّ وَلَكَ سَوَى هَذَا)! قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «أَكُلُّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا»؟ قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَا تُشَهِّدْنِي إِذَا فَلَيْ لَا أَشَهُدُ عَلَى جُورٍ». الحديث أخرجه البخاري برقم: ٦٥٠، ومسلم برقم: ١٦٣٣، وهذا لفظه.

يقول لإمام صلي في الناس وأساء: أفتنت أنت يا فلان^(١)، ولا يفتي إلا بما يوافق هواهم، ولا يخطب إلا بالموضوعات الرائقة لهم، وما يُحْبِز رضاهم، ولو لم يرضوا لغير من سلوكه حتى ينال إعجابهم ورضاهم، فيخطب ما يحركهم ويافق هواهم، ويخطب بالقدر الذي يسمحون فيه، ولا يطيل أكثر، ولو اضطره الأمر أن يقطع الخطبة.

أَقْدَمَ فَاحْتَرَقَ، ثُمَّ تَقدَّمَ فَاخْتَرَقَ

وما أجملها من طرفة حصلت مع بعض إخواني، وهي أنه كان يخطب في قصرٍ خاص لرجل ثريٌ وجيه ذي منصب، ويصلِي في هذا المسجد منْ حضر من المرافقين والخدم وسُكَّان القصر ومن يلُوذُ به، وخظر ببال صديقي أن يخطب في إحدى الجموع عن الموت، وكانت عيناً ذاك الوجيه تدور وقت الخطبة كأنه مجنونٌ، ويظهر على وجهه غليان دماغه، وحرارة دمه، وما إن نزل من المنبر حتى استلمه ذاك الخائف يقول له منبئاً ومحدراً، ومعلماً ومنذراً: إياك إياك مِنْ مثل هذه الخطوة الطائشة، ومنْ قال لك نحن بحاجة للحديث عن الموت! أليس الأولى بك أن تحدثنا عن نعيم الجنة وما أعده الله تعالى من المكرمات؟ أليس في الجنات حور عين كأنهن بيضاء مكنون؟ حدثنا عنهن فإننا أحوج ما نكون لمعرفة أخبارهن، ألم يأن للمشايخ أن يتعلموا ما نحتاجه؟ إننا بحاجة للحديث عن طعام أهل الجنة، وإكرام أهل الجنة، والخلود في الجنة، وجميع أخبار الجنة.

(١) فيه إشارة إلى الحديث الصحيح الذي سأله ص: ٥٨٩.

عرف صديقي من صريح عبارته ما يرغبه فيه، لا ما يحتاج إليه، فلَفَّ الحديث عن غير الجنة ورماه، وضرب صَفْحًا عن أحاديث العذاب، وسَبَحَ بهم سنين يُحدثهم عما لا يغيِّر في حياتهم قِيدًا نُمْلَة، ولا يُصَحِّحُ من سلوكهم شعرة.

ومثلها قل في كل موقف يُرضي به العالم العامة، فمن العوام من أصحاب بعض المدارس مَنْ يحبون الكلام عن البدعة، والتحذير من البدعة، ورمي الناس وتصنيفهم بحسب ما يظهر منهم من أعمال، في الوقت الذي تجد آخرين يحبون الحديث عن محبة النبي ﷺ، وغيرهم لا يرضي بغير الكلام عن المخترعات وما تواافق به مع الأخبار النبوية، وهكذا يتتنوعون.

ومن هنا تعلم أنَّ أَنفُسَ المدعوين إجمالاً تميل إلى الخطاب الذي فيه تبشير، وتنفر من عكسه، فهم يعجبون بالحديث عن الحور العين، ويكرهون الكلام عن النار، وعن وصف عذاب الله تعالى، ويفرحون بكيل مدحهم، ووصفهم بخير أمة أخرجت للناس، ولو لا أنها آية في القرآن لأنكروا تمام الخطاب: **﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ﴾** [آل عمران: ١١٠] وما حيلة الداعي إلا الموازنة في إلقاء الخطاب، حتى تصل رسالة الله تعالى دون تشويه ولا بثُر ولا تحريف، ويحافظ على السامعين من أن ينفروا أو يتركوا التدين من سماع الكلم الذي لا تحبه نفوسهم.

إنه النفاق للعوام، وبئس الإمامُ من يتحركُ بأوامر مقتديه، فلا يركع حتى يشير إليه المصلون أن اركع، ولا يرفع إلا بإشارة، فمن لم يكن أهلاً

للستقلال عن أوامر الدَّهْمَاءِ فلينقض يديه من عَنَاءِ الدُّعَوةِ، فإن الدُّعَوةَ لا ترضي أن تجلس مكان الصَّغَارِ، ولا تدخل ظلماتِ الشَّهَوَاتِ.

فلا يغررك مُكَاوِهِهِمْ وَتَصْدِيَتِهِمْ^(١)

النفس البشرية تحب من يمدحها ويثنى عليها، ويتحاطف الداعي أمران: الأول: إبلاغ الدُّعَوةِ على النهج الذي يرضي الله، والآخر: كسب قلوب العامة، فإذا تحدث بما لا يحبون نفروا، ولكني أقول له: كن على المنهج الإلهي في تبليغ الدُّعَوةِ، فإن أعجبهم حسنها فسبحان من سخَّر قلوبَهُمْ، وإن لم يكن كذلك، فلا تحرُّف بُوصلةَ عملك، ولا يغُرُّك كثرةُ الْمُصَفَّقِينَ لحديثك، فليس النجاح مبنياً على العدد، ولكن انظر إلى نوع القادح أو المادح، فلا يُهُمُّك من الذي مدح، إنما يُهُمُّك من الذي مَدَح!

- قد يسمع الداعي الرصين النقد من جهلة العوام فتبتئس نفسه، أو يسمع المدح من محب شَعُوفٍ فَتَرَكَنْ، وكلاهما مرضان، فلا المدح بناءً على القرب نافع، ولا الذم من جاهل مؤثر.

سبَّاحُ المَحِيطَاتِ أَخْفَقُ فِي بِرْكَةٍ

لا عجبَ أن ترى سباق الدراجات الهوائية الماهر غير قادر على قيادة دراجة في حارة صغيرة، فإن أحبت الإلقاء منه فهيئ له المكان المناسب، وإياك أن تتواهم قدرته على المكان الصغير، قياساً على المكان الأكبر.

ومن قال: إن شيخ العشيرة القادر على إصلاح ذات البين للكبار عنده

(١) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق باليد. انظر: «كتاب العين» للفراهيدي، مادة: مَكَوَّ.

أسلوب التحبيب والإصلاح بين الطفلين المتخصصين؟ ومن ذا الذي توهם قدرة مصلح السيارات الكبيرة والآليات الضخمة على إصلاح عطل صغير في سيارة خفيفة؟

عجب أمر من يعطي الحكم بدهية زائدةً في أن الطيب الجراح الماهر أقدر على ختان الطفل الصغير من مختص الختان، إذا كان هذا الأمر في أمور حياتية يعتقد الإنسان أنها معقدة، فكيف بأمور تبلغ شرع الله تعالى؟

أيصالح المفكر الكبير لتدريس الطلاب الصغار؟ كان أحد شيوخي من أهل الصفاء العالي، وكان يدرسنا - نحن الطلبة - مادة الشمائل المحمدية المباركة في المرحلة الإعدادية والثانوية، وكان الطلبة ينتظرون درسه بفارغ الصبر خلال الأسبوع، فخلف منْ بعدينا خلف من الطلبة بعد أن كبرت سنُّ الشيخ قليلاً، وتبينت وجهات النظر بين الطلبة والمدرس على أثر الانفتاح الهائل السريع في الاختراقات، وفي أثناء الدرس، أو بعد أن يلقىَهُ الشيخ: يرفع الطالب يده، ويظئنُ المعلمُ المحققُ في سماء الرُّوح أن السؤال حول شمائل المصطفى ﷺ، أو أسباب رؤية المصطفى ﷺ في المنام، - كما اعتاد هذا على مر سنوات طوال - يُصْعِقُ الشِّيخ بطالب يقول للمدرس: ما حكم تقبيل الفتاة؟ وغيره لديه سيل من الأسئلة التي تدور في تلك الأزقة!

تم تعين شيخ القراء في حلب مدرساً لمادة التجويد لطلبة الثانوية وقتئذ، فظلّمَ الشِّيخ وظلّمَ الطلبة، فما أُعْطِيَ الشِّيخ حَقّهُ، ولا أفاد الطلبة من علم الشِّيخ، لأنَّ التَّبَاعِينَ الذهنيَّ شدِيدُ بينهما، أمّا وجد ذاك المديرُ غيرَ الشِّيخ لهذا المكان؟ ظنَّ أنه توهَّمَ حُسْنَ الصنْعِ، ولكنَّ الشَّابَ القريبَ من أُسْتَانِ

الطلبة أقدُرُ على ضبطهم، وحسن التفهيم لهم.

المهارة في الدعوة هو انتقاء الأصلح للمكان والزمان والمتلقيين، وليس بالضرورة أن يكون الأعلم أو الأكبر أو الأخبر أو الأكثر تميزاً على الإطلاق.

لَكُنْ عَوْنَ الَّهِ اسْتَنْقَدْهُ

لا بُدَّ أن أعرض صرخة إيمانية تأتي كالغيث من الله تعالى إلى المجنِّي عليه، بمعنى: أن يغسل الله تعالى الشبهة من رأس العامي، وتخطر له بعض الإجابات التي قد لا يستحضرها عالم قوي.

حدثني شيخي الجليل الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٦٩ هـ) رحمه الله: أن رجلاً وضع حذاءه في أرض الحرم المكي، ووضع فوقه المصحف! فرأه رجل عامي سهل الميران، حبَّ الله تعالى، معظُم لشعائره، وهاله هذا المنظر المهين وكأنَّه قد قَصَمَ ظهره، وفتَّ كَبِده، فاعتراض على القارئ واستنكر، فأجابه القارئ ببرودة: أنا وضع المصحف فوق الحذاء وليس تحته! هل عندك دليل على عدم جواز هذا الفعل؟

دنا الرجل ورفع المصحف بيده اليمنى، وتناول الحذاء بيده اليسرى ليضعه على رأس القارئ، وقد فعلها! صرخ القارئ بدونوعي: وماذا تفعل يا مجنون؟ تضع الحذاء على رأسي؟ يا للْحَمَاقَةِ وَالرَّعْوَةِ! ابتسم الغيور ورد له السؤال نفسه: وهل عندك دليل على عدم جواز وضع الحذاء القدر على رأسك؟

إن هذا الذي طالب بالدليل لضحيةٍ من ضحايا أنصاف الشيوخ، الذين

خدعوه بأنه أهل للنَّظَرِ في الأدلة، ولكن وابْلَ عوْنَ اللَّهِ تَعَالَى هَطَّلَ عَلَى العَامِيِّ الْآخِرِ، وَلَقَنَهُ حَجَّتَهُ سَحَّا لَا سَطْرًا.

الاتهام المعلَّب لمن يسأل خارج المألف

وما بالغت عندما وصفته بالمعلَّب، إنها علب تُهَمِّ، مصقوفة على رفوف متولي كِبْرِ الاتهام، المتربع على عرش غرور الطاعة، يرى نفسه وصيًّا على دين الله، محاسِبًا لكل متكلِّم، مفوَضًا بحساب العباد، وقسَّمَهُم إلى فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير، لديه بضاعةٌ فيها الحكم على الناس ضمن عُلَيْهِ مغلقة، فمنهم المستحقُ للعقاب وهم السواد الذي سَدَّ ما بين الخافقين، وقليلٌ مِنْ يَسْتَحْقُّ رَتْبَةَ الشَّرْفِ، وعلبةٌ قد كُتِبَ عَلَيْهَا براءةٌ مِنَ النَّارِ وبراءةٌ مِنَ النَّفَاقِ - وهي له وخلاصة جماعته -

وتحذيري الآن مَصْبُوبٌ على الاتهام المعلَّب لكل سائل خارج المألف، فمن حق السائلين أن يسألوا عن أي أمر مكرر معروف، ولكن جام الغضب سيصب دفعة حارقة إن فاه أحد بسؤال خارج المألف، وأقرب الشَّيْءِ تهمةً: من أين تأتي بهذه الأفكار؟ من الذي يلقنُك السُّمُوم؟ أتحبُّ اللهَ وينظرُ بيالك الشُّكُّ وتحاجِلُكَ الظُّنُون؟

فحلال أن يسأل السائل ما أركانُ الوضوء، ومثله إن قال: ما مبطلات الصلاة؟ أما أن تَعْرِض له الشبهة التي ألقاها له أدعياء الفكر التنويري - بل التظليلي - من تناقض بين القرآن والسنة، فهذا ما يدل لدى المسؤول على أيدٍ تعبث في فكر السائل!

نعم نعم: أقوالها بكل صراحة، إن دخيلاً عابراً يعبث في فكره، فأين
جهودك أيها المريّ لتنزيل الشبهة من رأسه؟

وهذا كله يرتبط بسبب آخر، إن لم أقل هو عائد إليه من طريق ثان،
عبرت عنه بقولي: «الأمن النفسي والفكري في الحوار».

يا أيها المعلم: السؤال مسموح به وغير ممحظور، ولو كان لدى السائل
شيئاً بالله تعالى، وإلا فكيف تزول الشبهة، وإلى من يلجأ صاحب الشبهة؟

أسلوب الموافقة المفضي إلى المخالفة

والهدم أمر هين، لكنَّ البناء هو الصعب، فمن شاء فليقارن بين كسر
الزجاج وصنعه، أو صنع سيارة وتحطيمها، فمن ذا الذي لا يحسن زرع
الشبهات في الناس، أكان هذا صعباً؟ إيداع الشك سريع من يسير، ولكن
ما أصعب قلعه!

إن اللَّيَاقَةُ لِأَمْرِ ظَاهِرِهِ السُّهُولَةُ، وحقيقته عند الأزمات صعبة، وأصعبها
إمرار الكلام في حارة ضيقَة من المخالفات، من غير خدش جُذْرَانَ الْأُخْوَةِ
يمنةً ولا يسراً، فأين المحسن والمتبَّي لـه؟

ومن الوعي أن يحافظ العالم والداعي على جليسه، فطالما جالستُ وسمعت
مَنْ طَرَحَ مَسَأَلَةً خطأً، فرد عليه أحد الحاضرين بنبرة عالية، وصوت جهوري:
«لا، لا، ليس كذلك»، وهذه الحروف على قلتها قد تبني أكبر سور حاجزٍ بين
المرء وأخيه، وبمقدورِ هذا أن يصحّح لأخيه بطريقة الموافقة، التي هي عين
المخالفة.

وأضرب على ذلك أمثلة:

كنت في مجلس عزاء، وفي الحاضرين من يظن نفسه أنه عليم في فقه الدين والفتوى، وقد طرح رجل سؤالاً: أي كُتب الشافعية متوسط الحجم ليسهل تناوله، فلا أريد مختصاراً، ولا أريد مطولاً.

انبرى ذاك المغدور - وفي المجلس عدد من العلماء - وبادر بالإجابة قائلاً: برأي: هو كتاب: «المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي (ت: ٤٧٦ هـ)، فليس هو ك: «متن سفينة النجاة» لسالم الحضرمي (ت: ١٦٧١ هـ)، ولا هو ك: «المجموع» للإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) - رحم الله الجميع -

وهذه إجابة غاية في الخطأ، إذ إن كتاب أبي إسحاق لا يصلح لعامي يريد أن يتفقه في الدين، ولعل أحسن جواب عقب ذاك الجواب الخطأ أن يقال لصاحب الإجابة: نعم من حيث الحجم يعد «المهذب» بين الكتابين، ولكن سيجد أخي فلان صعوبةً في عبارته، إذ إن عبارته تصلح للفقهاء، وليس للمثقف الذي يبحث عن الفقه، ثم يلتفت إلى السائل ويقول: لعل أصلح كتاب لك هو «فتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب» للعلامة ابن قاسم الغزي (ت: ٩١٨ هـ) مثلاً.

طلب ضيف من مُضيّفه مِقْرَاضاً ليقرض أظافيره، فرد عليه صاحب البيت: إنها أدوات استعمال شخصية، ولا ينبغي تعدد المستعملين لها.

تغيّر وجه الضيف، ولو كنت مكان الأخ، لدخلت إلى البيت وسعيت قليلاً في غير مكان المِقْرَاض المأْلُوف، ثم خرجت واعتذررت إليه أنني لم

أجدها، ثم أحضر مقارضاً جديداً من أقرب بقالةٍ ليستعمله، ويحفظه لنفسه، وما هو بشيء له كبير ثمن.

كنت في مجلس وجرى مثال أدبي في نوع من أنواع الجنس، ونفي أحد المجالسين أن يكون هذا النوع موجوداً في الشعر القديم أو عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فرد عليه أحد المجالسين بنبرة شديدة: لا لا، هو في القرآن الكريم، وأتي بالآية.

وكان الأليق أن يرد: أي نوع قصدت؟ لأن الجناس مذكور في القرآن كما في عِلْمِكُم، وذلك في قوله تعالى كذا، وقوله كذا، ولكن ما الذي قصدتم؟

خلاصة القول: إنك قادر على التغيير والإصلاح بلغة ناعمة غير مصادمة، ومثل هذا الأسلوب الذي ظاهره الموافقة، وحقيقة عين المخالفة يجبر كسر القلوب، ويسقط بناء الحاجز عن قبول الحق.

عقلية الاحترافية في غير موضعها

لا شك أن حب الكمال حالة صحيحة وليس خطأ، ولكن إذا كان في مكانه اللائق، فلا أرضى في أطروحة الدكتوراه إلا أن يذكر الحديث مضبوطاً مخرجاً، معزواً إلى أصله، مع ذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث، ولكن هذه المعايير يجب قطعها وجوباً عندما يلقي الداعية كلمة في عزاء أو فرح، فربما يقتصر على قوله: جاء في الحديث الشريف: كذا وكذا.

سيقال لي: إن هذا لأمر بدهي، ولا يحتاج إلى نص ولا إيضاح، فضلاً عن التعديد والتأصيل، أقول: أجل: المثال الذي ذكرته هو موضع اتفاق في هذه الصورة، ولكنني أجده بعض الخطباء من يقف ليعظ العامة، وهو الدكتور العالم

المدقق في الحديث، فيخرج الحديث ويدرك طرقه وأراء العلماء فيه، وما يمكن أن يرد على السمع من تسؤال، ومن رد الحديث وما شبهته، وماذا أجاب المثبت للحديث المُعَلَّم له.

وهذه التفاصيل بهذا الشكل هي إخفاق دعوي عجيب. فالغالب أنه لا يُهم العامي الذي أوردت له الحديث أن يعرف إلا أمراً واحداً: ألا وهو: هل الحديث ثابت أو زائف.

فلو عزوت حديثاً فقلت: روى أبو داود الطيالسي (ت: ٤٠٤ هـ)، ثم استدركت فقلت: عفواً، بل روى أبو داود السجستاني (ت: ٢٧٥ هـ)، فما الفرق بينهما عند العامي وغير المتخصص في الحديث؟ ألا توافقني على أن المهم للعامي هو: معرفة ثبوت الحديث أو عدمه؟ إذن فرگز عليها، واترك ما سواها، ولا يفهم من كلامي عدم التصحيح إن عزى خطأ، لأنني قصدت تنبيه الداعي على ذكر ما يفيد العامي دون ما سواه، فربما صار الزائد مصدر تشويش له.

وقل مثل هذا في الفقه، والأصول، وغيرها، كما حصل لأحد المتكلمين في مناسبة، عندما قال: «رحم الله عللاً إذ عمل كذا». ومن الذي سمع باسم علّال الفاسي (ت: ١٣٩٤ هـ) رحمة الله من العوام - ولا سيما أهل المشرق - حتى يفطن ويعرف أنه المقصود هنا؟

ومثله الآخر الذي قال: «وهذا غير ما في التلويع على التوضيح»، وكأن في العوام من عرف أن في كتب أصول الفقه كتاباً اسمه كذلك. فإن ترجح للداعي عزو قول لقائله فله ذلك، بشرط التبيان المزيل

للإشكال، فلو قال مثلاً: رحم الله علامة المغرب الشيخ علال الفاسي إذ قال كذا.. وكانت العبارة واضحة.

والقطن العامي يقول: لا يهمني أبداً أن أعرف من الطبيب والصيدلي مرگبات الدواء وآراء الكبار في آثاره الجانبية، واختلافاتهم، وإنما المهم أن أعرف هل أتناوله أو لا.

ومن مُعوقات هذه العقلية أن صاحبها يكون قليل الإنتاج، ضئيل المحصلة، غالباً ما تكون منتجاته - إن كُملت - دقيقة مُحكمة، وقد تتحقق بسبب الاحترافية الزائدة في غير موضعها، وكثير منها مات قبل الولادة.

أعرف نجاراً ماهراً في صنعته دقيقاً، لو طلب منه طفل صغير أن يعطيه قطعة خشب صغيرة لعمل على تنميقها زمناً طويلاً، ومثله كثير من علمائنا الذي مات ودفن معه في القبر ألف مشروع علمي، وكلها كانت في ذهنه، ولم ينجز واحداً منها.

لذلك من حنكة الداعي أن يسلك عدة مسالك في حياته، فليست المؤلفات على حد سواء، وليس اللقاءات مثل بعضها، بل تختلف باختلاف الحال، والزمان، والمكان، والمستمعين، فهي كالقبعات التي تلبس كل واحدة في مناسبتها اللائقة.

قبعات الداعي إلى الله

تتعدد صفات الداعي ومهامه في الدعوة إلى الله تعالى، فمنها: مدرس المدرسة، والمدرس في الكليات، والمناقش، والخطيب، والمؤلف، والإذاعي، والمتكلّم على التلفاز، والمدرب على الدعوة، والمربي في المسجد.

فمن أكبر عيوب الداعي أن يبقى على شخصية واحدة في أماكن مختلفة،
فبعضها يصلح لمكان لا يصلح لغيره، مثلاً:

يجلس مع أقرانه العلماء ويشرح لهم كأنه في صف يدرس الأطفال
ويبسّط لهم العبارة، وتحرك يداه بإشارات وعدّ.

يجلس في غرفة مغلقة مع آخرين، أو في غرفة التصوير وهو يخطب
بأسلوب الخطابة الجماهيرية.

أو يعطّي العامة في المسجد فيتكلم بلغة أكاديمية، كمن قال: أخرج مسلم
في كتاب «التمييز»، من حديث شرييك بن عبد الله، وهو مما أعلمه الحفاظ،
والثابت من حديث فلان، وليس فلان كفلان حفظاً وإتقاناً، أو كالذي سرح
للعامة: هل التبرك بالقرآن لذاته؟ أم لأمر معنوي؟ وما هذه التفاصيل بمفيدة
إلا لذوي التخصص، فما بال بعض الناس يُلقونها على العوام؟

وقد يجمع الداعي الواحد عدة مهام، ولكن يستحيل أن يكون الإمام
في كلّها، فلن يكون الكاتب المُبْدِع، والمحاضر المُجَدِّد، وقائد الجماعة،
والمؤلف المبتكر، والمنظر الكبير، والخطيب المُفَوَّه الذي لا يكرر، ويأتي
بالجديد، ويواكب العصر.

ولقد تشهى لهذا المقام عدد من الدعاة:

فأحدهم مثلاً: داعٍ على التلفاز له حضوره وله جمهوره، أراد أن يشارك في
مجال التأليف، فأعد فريقاً للعمل، وبدأ الفريق بالجمع، فأخذ كتاب فلان
برمته، وسرق من كتاب فلان، وقص من كتاب ذاك، ولصق من كتاب آخر،

ولما خرج الكتاب إلى الناس ظهر الشيخ الداعي المبجل بثوب اللصّ، السارق لجهود الناس، العاتي على إبداع غيره، وانفلاخ الأمر، وعسرت لمّة الموضوع، وكان أحد المسروقات كتابٌ آخر، فرفعت الشكوى للمحكمة، وقالت في مقابلة معها: إنني لا يهمني أن يسرق كتابي من حيث النفع في الدنيا والآخرة، ولكن الذي يهمني أن السمعة القبيحة ستتبعني ما عشت وبعد وفافي، وسيقال: إن فلانة سرقت كتابها من ذاك الداعي، فهو المشهور دوني، وهو المعروف وأنا مغمورة، فإن رضيت بالهم والغم والتعدّي، فإن الهم لن يتركني، وسيبقى ملصقاً بي، وما زادني حزناً على بؤسِي أنني قدمتُ الكتاب لذات الشيخ المبجل كي يقرّره لي، فسرقه برمته وطبعه باسمه!

ويبدو لي أن بعض الفريق لم يقدّر خطورة خروج العمل باسم ذاك الشيخ، وأن هذا النتاج العلمي سيؤثر في سمعة الشيخ سلباً أو إيجاباً، ولا أدرى حجم مشاركة ذاك الداعي في العمل، فإن كان لا يدري عن المؤلفات التي تكتب باسمه فتلك مصيبة، وإن كان يدري السرقات العلمية فالمصيبة أعظم.

إن منا منفرين وهم يريدون الخير

كان أحد الغيورين على دين الله ينفرّ العباد من الالتزام، وولي أمر جماعة من المسلمين مدة فكره الكثير منهم تلك الجماعة، وبدأت تضخم نفسه في عينه يوماً بعد يوم، حتى أصبح يرى نفسه كأنه حامي الحمى، والحارسُ الوحيد الدؤوب، والعينُ الساهرة.

ومثله أحد أصدقائي على مجموعة من مجموعات التواصل الاجتماعي، وعدد رواد المجموعة بالمتات، فحيث يُوجَّه النقد انبرى صاحبى وكأن النقد قد وجه إلى عينه، أو متى سَطَرَ أحد سطراً من مدح، أجابه: واجبنا يا أخي! وكأن المدح قد أرسل إليه خاصة!

النية الحسنة تشفع في بعض الزوايا، ويلتمس العذر لصاحبها من جانب، ولكن هيئات أن يُقرَّ على فعله بتمامه، فما تَشَفَّعَ سيدنا أسامة رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْهُ في حَدٌّ من حدود الله تعالى إلا بِنِيَّةٍ صحيحة، وظَاهِرًا شفاعةً حسنة، ومع هذا لم يقرَّ المصطفى ﷺ على فعله^(١)، ولم يُشكِّكْ في إيمانه، إنما اعترض على جانب واحد من الأمر، وهو جانب الخطأ، فَمُرِيدُ الْخَيْرِ يُصَحِّحُ لَهُ وَيُعَذِّلُ مِنْ فَعْلِهِ، وإن كانت النية صلاحًا.

لقد نَفَرَ نَفَرٌ منا من دين الإسلام وهو من ذوي السرائر الصافية، والنوايا الكريمة.

- رجل لا يجلس في مجلس إلا ويغتصبُ أوقات الحاضرين باستلام الحديث من أول الاجتماع إلى آخر لحظة، وليس عنده غير كِيل المديح

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْهَا أَنَّ قُرْشَاً أَهْمَمُهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْرُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالَ: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَمَهُ أَسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَكْشَفُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَلُّوا إِذَا سَرَقُ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرْكُوْهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الصَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». أخرجه البخاري برقم: ٣٤٧٥، ومسلم برقم: ١٦٩٠.

لشيخه وأقواله وعائلته وزياراته، حتى كره الناس شيخه عن بُعد، وتجنبوا لقاء التلميذ المُحِبُ للخير، وما نية التلميذ إلا دلاله الناس على باب لمَس عظيم نفعه ورأى فيه الهدى.

- مفت لا يفتي الناس إلا بمذهبه الذي يتبعه الله به، وينسف أقوال الأئمة الآخرين بسخرية وتصغير وتحقير، وهو يرى أنه يدل الناس على خير أuanه الله عليه.

- شباب مملؤون بالطاقة والحيوية، التزموا عند شيخ مُحدِّدٍ فما ملأ أعينهم، ولا سد فراغهم الروحي، تدرؤن لم؟ لأنه لا جديد عنده في الحديث، فالإسلام عنده عبارة عن ثمانى مسائل، وكلما سأله الطلبة عن أمر غيره، هرب من الجديد باتجاه مواضع اهتمامه، فمثلاً: سأله أحد الطلبة عن نصرة الحبيب ﷺ في الإساءة التي وجهت إليه في المرة الأخيرة، فقال له: ما رسمه أعداؤنا إلا من تركنا لديينا، ولو أنك كنت من يحافظ على السنن الرواتب لما رسمه أعداؤه!

ولن أطيل في هذا الجانب، فما كل عمل أخلص فيه صاحبه هو صواب، إنما الواجب أن يكون العمل صحيحاً أيضاً، كما جاء في الحديث الصحيح: عن جابر بن عبد الله، أن معاداً بن جبل رضي الله عنهما، كان يصلّي مع النبي ﷺ ثم يأتي قوماً فيصلّي بهم الصلاة، فقرأ لهم البقرة قال: فتتجوز رجل فصلّ صلاة حفيفة، فبلغ ذلك معاداً، فقال: إنه مُنافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواصينا، وإن معاداً صلّينا البارحة فقرأ البقرة فتتجوز، فرَعَمَ أني مُنافق، فقال النبي ﷺ: «يا معاد،

أَفَتَأْنُ أَنْتَ ثَلَاثًا، اقْرَا 《وَالشَّمِسِ وَضَحَّكَهَا》，وَ《سَبَّحَ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى》 وَنَحْوَهَا^(١).

غيور ساكت خير من أحمق لسن

حدثني الثقة من سكّان مدينة الحبيب ﷺ فقال: عندنا في المدينة رجل مهندس حضر في المسجد النبوي مدة خمس وثلاثين سنة دروس الشيخ، وأصبح يرى نفسه العالم النحري، بل فوق العلماء، ويدنّدن حول هذا المعنى بشدة، مع الازدراء ونظر الانحطاط للآخرين من العلماء حقاً، والحط على الناس بأنهم يقدّسون أصحاب العمامات، وما إلى ذلك من أخبار لا تسرُ.

وهو رجل شديد التعامل مع الناس، يحدّره البر والفاجر، وينفر من لقائه البعيد فضلاً عن القريب، حضر مجلساً فيه رجل رياضيٌّ مفتول العضلات لكنه مُدَخّنٌ، والمجلس يحوي أكابر القوم، فأُسْلَلَ المدْخُن ونزل إلى أسفل العمارّة، وشرب الدخان دون أن يشعر أحد ورجه، ويبدو أن صاحبنا الشرس - وما هو بصاحبنا والله - قد شعر بهذا، فنظر إلى الشاب الحبيّ المدخن، وقال: أنا لا أسمح لمدخن أن يدخل بيتي، وبما أنه ينظر في وجهه أجابه الشاب الرياضي: إذن سيخسر مجالستك كثيرون أمثالِي.

اسودَ وجه المنكر للدخان، وهجم على الشاب بأقبح ما عنده من كلام، وكان من جملة ما قال له: أنت تسخر مني؟ أجابه الشاب: معاذ الله، ولكنك لا تستقبل المدخن، ونحن مدخنون، فإذاً سنخسر مجالستك.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١٠٦، ومسلم برقم: ٤٦٦.

تابع الأَكْلَدُ الْخِصْمُ كلامه: وَاللَّهُ إِنِّي لَقَادِرُ أَنْ أَحْمِلَكُ مِنْ هَنَا وَأَنْ أَرْمِيكُ مِنْ هَذِهِ النَّافِذَةِ، فَلَا تَغْرِيَنِكَ نَفْسُكَ، وَلَا تَرْهُ بِكُونِكَ رِياضِيًّا.

قلت له: ليته أنكر بقلبه وما تعداده، فإن سكوته خير من كلامه، ومثل هذا الخشن لن يسأله الله تعالى يوم القيمة، ولن يلجمه بلجام من نار إذ لم يدع، لأنه لم تكتمل لديه أركان الدعوة، بل فَقَدَ أَعْظَمَ رَكْنَ فِيهَا وَهُوَ الْحِكْمَةُ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِإِلَيْنِي هِيَ أَحَسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ﴾ [النحل: ١٦٥].

باب كُنْتَ سبَبَ كَسْرِهِ

إن أيّ باب دعوي يحتاج إليه، ولا يُفتح على يدي الدعاة والعلماء بضوابطِهم الشرعية فإنه سيكسر كسرًا، ويحطم دون رجعة.

- كان الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله يقول لطلابه: بقي العلماء دهورًا طويلة ينادون: «أغلق باب الاجتهاد» حتى كُسر الباب كسرًا، بل خلعت نوافذ الاجتهاد، وتهدم حيطانه، وقلعوا أرضه، وأنزلوا سقفه، حتى صار خرابًا بعد عمران، ولو أن العارفين الرصينين من الفقهاء اشتغلوا بمستجدات الحوادث، وما أطلقوا على الاجتهاد بانغلاق بابه: لكان الردة أخفّ من ردة كسر أبواب الاجتهاد.

- عرض الإفتاء على أحد شيوخنا الأتقياء، حتى كاد أن يُسحب إليه بالسلسل، والشيخ يأبى ذلك تورًّغاً، حتى جاء المتطلع للمنصب، فنسق أمره

مع الجهات الأمنية واستلم، فأصبح ذاك الشيخ التقى يمسح دمعه باليمني، ويضرب فخذه باليسرى، ويقول: يا رب: لم سلّطت علينا هذا الفاجر ليغتني الناس!

أليس شيخنا هو من فتح المجال له بتراجعه المستمر، و اختياره الحالة السلبية بورع في غير مكانه!

- درس معي المرحلة الإعدادية والثانوية صديق من الطلاب، وتعرف إلى شباب لهم أفكار تخالف ما يدرسه على شيوخه في المدرسة، وما إن تلقى أول شبهة حتى تأبظها، وأوى إلى ركن شيوخه الشديد، يسألهم ما الجواب على هذه الشبهة، لكنه تلقى أسوأ الردود، وصفع من أساتذته بأقصى اللهجات، فلَفَّ السؤال وسحبه، وبرأ نفسه أن يكون له أي اعتقاد من هذا الانحراف، خوفاً من بطش المدرسة له وطردها له.

ثم دارت الكرة ثانية، فعرض عليه أصدقاؤه فكرة تخالف ما اعتاد عليه أبناء مدرسته، فعرض الأمر على أحد مدرسيه فرأى الرد كأخيه السابق، ثم ثلاثة ورابعة، حتى كادت التهمة أن تلتصق به أنه من أبناء الفكر المنحرف الفلايني، فمثَّل على من حوله أنه بريء من أي فكر مخالف، حتى تخرج في المدرسة، وكأنه مريض نشط من العناية المركزية، أو كأنه طائر تكسّرت قضبان قفصه، خرج يثق بمن يلقي عليه الكلام من غير تحقق، تدرُّون لم؟ لأنَّه أصبحت لديه قناعة كاملة أن مدرسيه ليس لديهم حجة، وهم أتباع هوى، أما الطرف المغذّي له فهو صاحب رسالة ودليل، ولا ينفك عن الكتاب والسنة قوله وحالاً، ثم انفلت الحبل لديه فلا تسل عن بُعد شروده، ولا سوء

تفكريه، وحكمه على أولياء نعمته، حتى إنه لم يقف إلا داخل أبواب التكفير والتضليل والتبديع لكل من حوله، لقد كان الذي لم يستوعبه سبب انحرافه وانحرافه.

– معلم رأى في يد التلميذ ورقة وقد رسم فيها صورة فتاة، فبدلًا من أن يعزز قيمة الفن والرسم في عينيه، ثم يوجه هذه الموهبة التوجيه الصحيح، انهال عليه بالتهم، ثم دله على طريق الانحراف بقوله: اخرج من الدرس يا خسيس، مكانك عند أصحاب السينمات لترسم لهم الرسمات، فموقعك عندهم هناك لا في طلب العلم! إني وري: هو من دله على السوء، وكان سبب كسر الباب.

– سمع عصبة من الشباب أفكارًا خبيثة من جماعة، فجاؤوا إلى أحد العلماء يناقشوته، فغضب واشتدّ غضبه، وعلا صوته، وانتفخت أوداجه، وقال: أنت تحملون المنهج القرآني، أنتم قرآنيون، وكررها، وفي البداية استفسروا: من هؤلاء القرآنيون؟ وتبئروا من أي تنظيم أو جماعة، وظنّ أنها رسخت في أذهانهم، وذهبوا يبحثون عن القرآنيين، لقد كان العالم سبب دلالتهم على مصدر الانحراف الذي يوافق ما يبحثون عنه.

جرائم دعوية

قد يُعتبر على المحبوبين طرح هذا الموضوع بهذه العبارات، ويقولون: كم تكلمت في الدعوة عن اللطف واللين؟ ولكن وقعت هنا بتعبير شديد.

أقول: إن اعتقادي الجازم أنها جرائم دعوية، وتحفييفي لها نوع من الإساءة الدعوية، وطليبي اللطف من الناس هو في المقام الذي لا يقتضي إلا

اللطف، ومعاذ الله أن أفتني بالكلمة اللينة بدل إقامة حد الزاني المحسن، ولكنني طلبت الكلمة الناعمة في موضع أعتقد أن الناس أغفلظوا، وزادوا ومالوا، وصالوا وجالوا في صحراء بذاءة اللسان.

تعال لأطرح عليك بعض الجرائم الدعوية:

١- داع غير بصير يسأل من قبل العامة عن الأشاعرة، فينزل فيهم أقبح الألقاب والصفات ويخرجهم من دائرة السنة والجماعة، حتى أتاني شاب حدث السن، يسألني بكمال الأدب واللطف: هل الشيخ الفلافي من الأشاعرة؟ كي أحذره ولا آخذ عنه، وهل منهم فلان؟ وكيف تترضى عن النووي (ت: ٦٧٦ هـ) وتترحم عليه ويقولون ثبت أنه أشعري؟ ثم يسألني الشاب عن بدهيات في أحكام الاغتسال لا يحسنها ولا يعرفها!

٢- داع متعرّ مشهور بدلاً من أن يدل الناس على الله دلهم على أخطاء الصحابة، وجمعها في صحن واحد، ثم قدّمها لهم وبعد كل حرف يقول: احذروا الشيوخ الذين يضحكون على عقولكم، ويُخْفِفُونَ عنكم هذه الأمور، وما درى - عامله الله بعده - أن من الحكمة أن أخفي على الشاب العاّق لوالديه، الضعيف الإيمان خلاف أبيه وأمه الذي مضى، ولن يقرّبه من الحق ذرّة، بل سيشغله في الانتصار لأحد الطرفين على الآخر.

٣- كاتب سفيه - وعنه من يقرأ له - همّه أن يقدم النقد لعوامّ الأمة ، فلا يترك التعليم الشرعي، ولا الخطباء، ولا العلماء، ولا الصلحاء، ولا الآباء وتربيتهم، ولا الأمهاتِ وتعبيهنَّ، ينقد الكل من أجل النقد فحسب، فيسمع الشاب العامي هذا الكلام، فيظن أن لديه علمًا لم يسبقه إليه سابق، ويقول لك

العامي بكل براءة: إن لديه جديداً من القول، وتجديداً في الفكر، هيئات هيئات، بل لديه شبهاً يُبُثُّها، وتشكيك في مصادرك ينشره، فقد استطاع أن يفتئ في الأمة أكثر من فتك الغادة الحسنة المتبرجة، لأن تلك فتنت شاباً عرف نفسه أنه زَلَّ أمام شهوة، وهذا فتن ساذجاً نَفَرَ من الدين عن اعتقاد، وكفر بالعلماء تقرباً إلى الله تعالى، فهيهات أن يكون أتي حسناً.

٤- رجل أحمق يعطي الأدلة ويحملها للعوام كي يتسلّحوا بها، ويغريهم أنهم أهل للاجتهد في الدين، وكل عامي من أتباعه يمسك بعالم الفقه ليحرجه - على حسب اعتقاده - بقول: هل لديك دليل على كذا، وهو يقصد: هل عندك نص على كذا؟ ولكنه لا يفرق بين الدليل والنص، والله المستعان.

٥- شباب كثيرون، يعلّقون اليوم على وسائل التواصل الاجتماعي للعالم وأهل العلم في مسائل ورثوها كالدَّمْعَةِ، مثلًا: «اتق الله يا شيخ، كلامك باطل، والحكم كذا»، وهو لا يدرى أركان الصلاة، وبعد قليل يريد أن يجري عقد زواجه، فيلنجأ إلى الشيخ نفسه ليعقد له زواجه، أيظن هذا المغرور أن الشيخ أعلم منه في كل المسائل إلا التي ورثها من شيوخه فهو أعلم بها منه؟ من الذي ورَّثَهُ هذا الغرور المنهجي؟ والورَّام الاعتقادي؟ من الذي ورَّطَهُ بأنه أهل ليحكم على أهل العلم في هذه المسائل؟

٦- ولطالما حدثك عن وَحْدَةِ الأُمَّةِ، وأظهر الحَرْقَةَ على تبعثرها، وليس مستعدًا أن يتزحزح من مكانه عقدة إصبع واحدة، عن أيّ وحدة تتكلم؟ لقد عرفتُ الآن أنَّ الْوَحْدَةَ التي يبكي عليها وينشدها ويتبجّح بها صباح مساء هي اتباع الناس له في كل ما ذهب إليه، ويرى أنَّ الأُمَّةَ لو اتَّبعْتهُ بأجمعها

لتتوحدَتْ أفكارها! عزيزي: أنت لا تصلح أن تقود محل خضراوات بهذه العقلية، لأن اجتماع الأمة يكون ببقاء كل واحد فيما آل إليه اجتهاده في فهم النص، وإعذاره، مع كامل الاعتقاد أنه مجتهدٌ مأجور.

٧- بطاقات تنشر صباح مساءً، وعليها أحاديث من الصحيحين وغيرهما، لو كتب عقب الحديث: «رواه مسلم» - مثلاً - لكفى الله القارئ البحث، ولكنها كتب عليها: «صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب»، دون إشارة إلى اسم الإمام مسلم.

وكذا لو كتب عليها: رواه ابن حبان، وصححه الألباني لما كان عندي مانع، ولكن أن يُعزى الحديث للألباني ويطمسَ اسمُ المخرج الأصلي، إنها لكبيرة!

ونحن لا نرضى أن يُعزى النص المقتبس إلى مُقتبسه دون الإشارة إلى صاحب النص الأصلي، أفترضي هذا العمل في كتب أسلافنا، وبتراث الأمة عن سلفها الصالح، والعزوه إلى معاصر؟

٨- داعٌ متّقدّع سمعته بأذني يقول: الفيصل بيننا وبين أهل البدع أن نقول لهم: هل فعل هذا رسول الله ﷺ، فإن قالوا: نعم، قلنا: هاتوا الدليل، وإن قالوا: لا، فقد سقطوا. قلت: أولاً يعلم هذا القائل أن في الشرع أموراً سكت عنها رسول الله ﷺ؟ ما خطر بياله قطّ أن النبي ﷺ لم يفعل كل شيء؟ فلم يؤلف ﷺ في الفقه، ولم ينبع العلوم إلى فقهه، وأصوله، وعقيدته، وتفسيره، وحديثه، وسيرة وغيرها، ولم يوزع نسخاً مكتوبةً من القرآن، ولا أسس الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم! ولا جمع الناس على ختم القرآن

في التراویح، أما علم أن الأمور لا تؤخذ بهذه البلاهة، ففي أصول الفقه ما يخرج قیاساً، ويلحن الخطاب، وفحوى الخطاب، وأمور تمنع سداً للذریعة، وأمور تسمح أو تمنع تحقيقاً للمقاصد، وأمور لاجماع الأمة، وأمور مستندها تناقل السلف وعملهم بها، وأمور ترك لعمل الراوي بخلاف روایته.

سؤال لك: إذا كان المؤشر عندك يشير إلى ضلال أكثر من انتسب، أو حضر عند هؤلاء المتصدرين للكلام، ألسن ترى أعمالهم جرائم دعوية؟ عندما ترى الإضلal والهدم في كلامهم أكبر من البناء، ألا تصنف نقدهم وكلامهم ضمن الجرائم الدعوية؟

على أنني لا أحكم على نيات العباد، ولا مآلاتهم في جنة أو نار، بل إن كلامي محض تمحیص في الأساليب الدعوية، ليصل بها المستفيد أعلى قمة، يتحاشى أخطاء الذين سبقوه، ويبني على أمجادهم صرحة.

«اللَّهُمَّ اجعْلُنَا هَذَا مَهْتَدِينَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضَلِّينَ، سَلَّماً لِأَوْلِيَائِكَ، حَرَبًا عَلَى أَعْدَائِكَ، نَحْنُ بِحُبِّكَ مِنْ أَحَبَّكَ، وَنَعَادِي بَعْدَ اتِّكَ مِنْ خَالِفَكَ».

هكذا حفظنا الدعاء من أفواه الشيوخ، ولكنني أرى بعض القوم اليوم سلماً للأعداء، وحرباً على الأولياء.

فن صناعة العاهات

لصناعات العاهات طرق كثيرة، ولكن أهم طريق في نظري على الإطلاق: هو إعطاء الإنسان أكبر من حجمه، حتى يُنْفَخ بالغرور، ويُقْنِعه الحجم المزيف أنه حقيقي.

أعرف شيئاً من أكابر العلماء، وله أبناء وأحفاد ليسوا على الحد الأدنى من المطلوب، لكن تلاميذ الشيخ الكبير أحبو نسله بناء على حبّهم شيخهم، وعظموهم كما يُعظّمُ السادة الكبار، وصَرُّوهم في المجالس والمحافل والاحتفالات، حتى إن أكثرهم ليجلس مع الناس ويأتي بالمناسبة - ولو بدون مناسبة - ليعلم الحاضرين أنه حفيد فلان، لتبدأ جلسة التبجيل والاحترام.

ومن أعظم ما أذكره من تضليل الآباء أن أستاذًا ومدرساً لأحد أحفاد ذاك العالم قدّم طالبه في كلمة بلفظ: سيدني وشيني وتابع رأسى فلان، ابن العلم والجهد والكبير والعالم فلان، حفيد الإمام الأكبر فلان، ولا والله لا الحفيد ولا الابن يستحقان حرفين من هذه الألقاب، اللهمَّ نعم! الجُدُّ أهْلُ لها وأولي.

ولكَ أن تصوّرَ حالَ المرض الذي فشا بالحبيب بعد ذكره هكذا وتقديمه في بداية الكلمة من كلام أستاذه، وقد اخنى له عند دخوله، ووقف وقفه التذلل بين يدي صحابي من أهل بدر الكرام، وأخذ يده يحاول أن يُقبّلها، ثم مسح له على كتفه، ولم يجلس حتى جلس الحبيب بكل كبراء وتعال.

وكان أحد الأحفاد الصغار في فصله الدراسي يتعالى على الطلبة، ويضرب هذا، ويحتقر ذاك، ويؤذي هذا بلسانه، فإذا رفع أمره للمدرسين من قبل أحد الطلبة لفגד صبره على الظلم كانت الإجابة: إنه حبيب منْ تعرفون، بل منْ أبد الألفاظ وأكثرها فتّاً في أخلاق الحبيب المسكين قولُ أحد المدرّسين: «إنه سيدنا، وحبيب سيدنا»!

لقد ورث نسلُ الشيخ مكانة الجَدِّ وما ورثوا علمَه ولا حكمته ولا سنته،

فصاروا عاهات تمشي على الأرض، وأعطوا مثالاً سلبياً عن العلماء الربانيين، بل بعض الناس عادى جدّهم لتوهّمِه أنَّ الجَدَّ مصابٌ بتلك الأمراض، وأنَّ الأحفاد صورةٌ مطابقةٌ لحال الجَد.

وكأنَّ الله تعالى أراد أن يمحو هذا المعنى من صدور المؤمنين فوضع لهم البوصلة الراسدة لهم، فقال: ﴿يَأَيُّهَا أَنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَبَلَّلْنَاكُمْ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَنْقَنْتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا والله، ليس حفييد الطبيب طبيباً، ولا سبط المحامي محامياً، فكيف يكون ابن العالم كأبيه أو جده إن لم يقل: هأنذا، ويقدّم خيراً كما كانوا يقدّمون، حتى يكون مستحقاً للتعظيم، أو اللقب، أو المكانة!

الشعور بالأهمية والتميز

من أتعس أنواع الغرور ظن الإنسان نفسه أنه محور مكان أو زمان أو فتوى أو عمل، أو بقعة الضوء الأساس، ويسرُّ به خياله ليدور في فلك نفسه. قال لي أحد شيوخي وهو يملي علي آداباً كثيرة لتهذيب النفس في هذه الحياة، والتحذير من مرض شديد، لا تكون مثل فلان - ولم يسمه لي -، قلت: ما صفتة؟ قال: يشعر بالأهمية دائماً، ويرى نفسه أن واجب الناس أن تعظمه، والناس لا يلتفتون إليه، ولا يحملونه من أرضه!

وعاش حياته وهو يمرح في فضاء من الوَهْم، يظن نفسه المهم في حياة الناس، وأن عليهم أن يرفعوه، ويعظموه، وهو يستحق ذلك، وما التفت إليه أحد في علم ولا تميّز.

تخرج كلمات من طرف لسانه تشعرك أنه عبقرى الزمان، وكبير بني الإنسان.

وكان يحذّث أحد جلسايه الدين تفوقوا عليه علمًا وذوقًا وأدبًا وتهذيباً وفكراً ونضجاً، إلا أنه من أقرانه في السن: والله يا ولدي - يخاطب قرينه بلفظ الولد - لا آنف أبداً أن أجالسك، بل زرع بي من التواضع كم هائل، بحيث لو أعطيتك من وقتى هذا ساعة في بناء شخصيتك ما أسرفت، ولا قصر!

والنعم والله! ما أكبرك أيها الأصيل!

تخاطب قرينه بلفظ: ولدي، وتشعر أنك المربى الصالح، وأنك كريم بميئحة الوقت، وأنك المصلح وهو الفاسد، والمتصدق وهو المتسلّل!

إن كنت قد تكلمت قبل قليل عن فن صناعة العاهات، فها هي ذي العاهات بذاتها تمشي على الأرض وتتكلّم!

وما أكبر خسaran شخص: رأى نفسه المهم والأهم والأرفع على الأقران، فلم يمنحوه هذه المنزلة فأحبط ومرض.



الدُّعَوةُ مَعَ الْمَعَارِضِ





مقدمة

العيش مع المُتَحَدِّي كالمشي في حقل ملؤه الألغام، وهو صعب شاق، لأنك لا تعرف كل لُغَمٍ أين دفن، لكن الألغام في درب الدعوة يمكن المشي بينها غالباً، كما سأفصله الآن إن شاء الله.

وكلامي هنا عن المعارضين وليس عن المخالفين، أما الذي يختلف معك ولو في أصول الدين فهو اختلاف من غير عداء، وهو ليس كالمعارض، الذي يناصب العداء، ويظهر العداوة، وكل الصنفين على درجات، وليسوا درجة واحدة.

كما على الداعي اليقظ أن يفرز المعارضين، - كما يفرز العاصين - قسمين:

- عاص بسبب شهوة

- عاص عن اعتقاد

وعاصي الاعتقاد قسمان:

- مستفيد من اعتقاده، وهذا برأه ضعيف الأمل.

- غير مستفيد: وهذا أرجى أن يهتدى.

وقس عليها المُعارض:

القسم الأول: مُعارض بسبب خارجي: مثلاً: بسبب المتابعة لعشيرته، أو أنه موظف في جهة تعاديك، أو أمثالها.



القسم الثاني: معارض عن قناعة واعتقاد.

وكل منهما إما:

١- مستفيد من معارضته.

٢- غير مستفيد من معارضته.

في الخطاب الدعوي للرد على المخالف أو المعارض

يُفَرَّق بين ثلاثة أصناف:

١- الرؤوس، وهؤلاء خطابهم يختلف عن الصنفين الآخرين.

٢- ومن أصيب بلوثة من الرؤوس.

٣- والتلاميذ والطلاب الذين لم يلْوُثوا، وهؤلاء خطابهم خطاب التحسين.

ولا يصلح خطاب أحد منهم مكان الآخر.

من صفات أعداء الإصلاح

وفي البيئة التي تحتوي على المعارضين أعداء الإصلاح والتجديد لا بد أن تجد أموراً أربعة:

- إساءة ظن بالمصلح، إنكار تغيير المؤلف، قذف الداعي بسوء، التهديد، واقرءوا هذه الآيات:

- الأولى: إساءة الظن بالمصلح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ



عَلَيْكُمْ [المؤمنون: ٢٤]

- الثاني: إنكار تغيير المأولف: ﴿مَا سَمِعْنَا يَهْدَا فِي هَذَا فِي أَبَابِيلِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

- الثالث: قذف الداعي بسوء: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِي إِلَى جَنَّةٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

- الرابع: التهديد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِبَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

معارض فكر ومعارض بطش

في البدء أفرق بين معارضين اثنين:
أحدهما معارض فكر، وهذا غاية أمره أن يرد الفكرة بفكرة، وأن يُجَاهِيهُ الكلام بكلام.

والثاني: معارض قتال، وهذا يَقْلُلُ عنده منطق الفكر، ولا يدري أن عند تعارض قوة المنطق ومنطق القوة فإن منطق القوة يغلب مؤقتاً، ثم تكون العاقبة لقوة المنطق، والعاقبة لمن ثبتت الحجة في قوله، والمقنع نفاذ للقلوب، أما المتسلط فمُجْبِرٌ على الطاعة، حتى إذا قويَ الضعيف أمامه، أو خارت قُوَّةُ القويِّ رأيت المعادلة قد انقلبَتْ، وتبادل الفريقان مكانهما، وأصبحَ الضعيف قويًا، وحَدَّثَ عن الانتقام بكل وجهه بلا حرج.

فن الخطاب في الشدائيد

- فن الخطاب في الشدائيد: هو اتخاذ خطاب محكم: ينبيء عن المعتقد



الداخلي، وليس بين الداخل والخارج لدى المتكلم انفصام، ولو تجسس المتجسس وسجل للمتكلم جلسة لما حظي بسقطة، وذلك في أكثر الأوقات، وأغلب الكلام، ولا بأس بالإغلاق والقفل على بعض الأفكار والمعتقدات وعدم إظهارها إلا أمام خاصة، أو الاحتفاظ بها عن الناس كلهم.

- فن الخطاب: هو انتقاءً لألفاظ تتوافق مع داخلك، ولا تخالف من يتحدّاك أو يتتجسس على زَلِك.

- وهذا الفن ينفع كثيراً في أجواء القبضة الأمنية الظالمه، حيث يتخذ الداعي لنفسه كلاماً يعبرّ عما في داخله، يرضاه عدوه الأبعد، - ومن باب الأولى: عدوه القريب - ويتحقق غاية الدعوة، ويشكل هذا الكلام في العموم الغالب نسبة: ٨٠ %، حيث إن أكثر الحكومات، وأعني الظلمة لا يخالف ولا يتحسّس من أكثر تعاليم الإسلام، وتهُمُّه القطعة الخاصة بالمناصِب والكراسي والحكْم وتَأْلِيب الشعوب والتعاطف مع المظلومين.

- ولو أن للإنسان كلاماً خاصاً لم يُفْسِه أمام أحد، لكن هذا من فن الخطاب، حيث لم يتكلم بما يعود عليه بالضرر.

- ومن رائع فن الخطاب أن تُكْتَمَ بعض الأسرار عن الناس، يُسَرُّ بها إلى بعض من يحفظها، وينفَذُ المطلوب عند اللازم، كما أسرَ النبِي ﷺ بعض الأسرار لسيدهنا حذيفة بن اليمان رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْهُ^(١) لأسباب عميقه المدى تتعلق

(١) جاء في صحيح البخاري عن أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِعَلْقَمَةَ: «أَوَلَيْسَ فِيْكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ غَيْرُهُ». أخرجه البخاري برقم: ٣٧٤٦. وقال أبو هريرة =

بالدعوة، وكذا أسرَ للسيدة الجليلة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بعض مخطوطاته التي لم يستطع توفيرها^(١)، وذلك بسبب الذين أسلموا حديثاً، ولا تحتمل عقوبهم هذا الحدث الكبير.

- ورث أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن حبيبه هذه الخصلة، فكان لا يحدث بكل ما سمعه من رسول الله ﷺ، وذلك لأن العطل في أفهم الناس، وعقوبهم لا تصر على سماع كل شيء، فقد قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ، فَمَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَمَمَّا الْأَخْرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ»^(٢).

= خيثمة بن أبي سيرة - وكان من أهل الكوفة - : «أَلَيْسَ فِيْكُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ مُجَابُ الدَّعْوَةِ، وَإِنْ مَسْعُودٌ صَاحِبُ ظُهُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَعْلِيهِ، وَحُذِيفَةُ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَمَّارُ الَّذِي أَجَارَ اللَّهَ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَسَلَمَانُ صَاحِبُ الْكِتَابَيْنِ». أخرجه الترمذى برقم: ٣٧٧٦. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدَّيْتُ عَهْدِ بِجَاهِلِيَّةِ، لَأَمْرَثَ بَالْبَيْتِ قَهْدَمَ، فَأَذْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرَجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ». أخرجه البخارى برقم: ١٥٨٦، ومسلم برقم: ١٣٣٣.

(٢) أخرجه البخارى برقم: ١٤٠، وعندما شرح الحافظ ابن الملقن (ت: ٨٠٤ هـ) رحمة الله هذا الحديث في «التوسيع لشرح الجامع الصحيح» ٣: ٦٠٧ قال: «قيل: هو أشراط الساعة، وفساد الدين، وتضييع الحقوق، وتغيير الأحوال، لقوله ﷺ: «يُكَوِّنُ فَسَادُ الدِّينِ عَلَى يَدِ أَعْيُلَمَةٍ مِنْ قُرْيَشٍ»، وكان أبو هريرة يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم، لكنه خشي على نفسه ولم يصرح». والحديث المذكور أخرجه البخارى برقم: ٧٠٥٨ بلفظ: «هَلَكَةُ أُمَّتِي عَلَى يَدِي غَلْمَةٍ مِنْ قُرْيَشٍ». ويقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ: بَيْنِ فُلَانٍ، وَبَيْنِ فُلَانٍ، لَفَعَلْتُ». =

لا تتجاوز السرعة المحددة

- في كل دولة من الدول سرعة محددة للدعوة، فلا يسمح بتجاوزها أبداً، ولو أن الدعاة اجتمعوا على بكرتهم وتكلموا في العلن لاستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بثمانين بالمئة مما يقولونه في السر، فلا مخالفة في هذا القدر ولا عقاب ولا عذاب، فلم التطلع إلى الجزء الصغير المدمر لحياة الداعي وروح الدعوة؟ اللَّهُمَّ إِلَّا بَعْضَ الدُّعَاةِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِبَاقِي الْمِائَةِ.

- من التَّهَوُّرِ أن يهجم الداعي العادي إلى ٢٠ % المحظورة، ويرفع وتيرة الخطاب فيها، ويركز عليها، سواءً أهَجَّرَ ٨٠ % المسموح بها، أم لم يهجرها، وتشرِّبُ أعناق بعض الدعاة إلى القدر المحظور، فلا يعجبه المسموح من السرعة الدعوية في بلده فيتجاوز إلى المائة، ويكون مصيره باقي حياته السجن والعذاب، وكثيرٌ من الأنفس تميل إلى تقديس هذا النوع.

- أجل، إن الذي يُدَعِّي عواطف كثير من الناس، ويُشَدِّدُهُمْ نحو الداعي، ويَشَدَّهُ أبصارَهُمْ سماعُهم لخطبة أو درس من قسم العشرين المحذورة، ثم تناول الألواء الداعية، فيسحب إلى الحبس، أو يسلخ جلده، عندها يصرخ أولئك: إنه البطل المغوار، والجريء الذي هانت نفسه عليه في الله تعالى.

= وانظر: «المحدث الفاصل» للرامهرمي ١: ٥٥٥، برقم: ٦٧٠، «حلية الأولياء» ١: ٣٨١ لأبي نعيم، فقد جاء عندهما بلفظ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَمْسَةَ جُرْبٍ، فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا جَرَابِينَ، وَلَوْ أَخْرَجْتُ الثَّالِثَ لَرَجَمْتُهُ بِالْحُجَّارَةِ».



- وبوجهة نظري: إنه الانتحار المنهي عنه، وأخشى أن يكون انتحاراً أسوأ من فعل الذي تحسّى سُمّاً بيده، أو تردد من شاهق جبل، تدري لماذا؟ لأن ذاك خسارة لنفسه في أغلب الأحيان، وطالب العلم الذي أمضى السنين من حياته في طلب العلم، ليس إلا وقاً للأمة، وقد أصبح فقده خسارة للأمة.

- رحم الله الشيخ سعيد حوى (ت: ١٤٠٩ هـ) الذي كان يقول: «تعالوا لنتكلم فيما لا نخاسب عليه».

على أنني أعتقد أن هذه النسبَ تقريبية، ويعود تقدير الموقف إلى الداعي نفسه، فيجتهد ويلجأ إلى الله تعالى أن يوفقه إلى صالح الأعمال، فقد تكون الحكمة ألا يهمل السرعة المغفورة عنها ما زاد على السرعة المحددة، فمن العادة أن توضع لوحة السرعة ٨٠، ولا يمسك الرادار إلا في ١٠٠، فيكون استغلال المساحة من ٨١ إلى ٩٩ أمراً مهماً.

- يجب على الخائف ألا يسكت عن قول الحق، فإن خشي على نفسه أن يقول للظالم: يا ظالم، فليأخذ بيده ويترفق به، ويتكلّم بتمام راحته عن عدالة الإسلام، ويسمعه صوراً من عدالة النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، أما أن يهجر خطاب النهي عن المنكر ولو بصورة مُبَطَّنة فلا وألف لا.

المشي بين الألغام ممكناً

- في كل دولة لديها لُغُمٌ واحد في آخر الطريق ينادون عليك بأرفع صوتهم إياك أن تقترب، ولكن قبل أن تصل إليه قد وضعوا ألغاماً كثيرة غير مهمة، ولو أن أحدها انفجر فإنه لا يقطع عنقًا، ولا يُبْتُّ رجلاً، ولا يُجهز على

جسد، فيجب على الداعي أن يعرف أين يضع رجله إذا داس الأرض، ومتى يضع، وكيف يضع.

- عند كل إشارة مرور يوجد خط من تعداده فهو مخالف، ولئن وجدت المصورات عند الإشارة الحمراء، فإنها ستتصور من يتجاوزُ هذا الخطَّ قطعاً، ولكنْ توجد خطوطٌ عدَّةٌ قبل هذا الخطَّ ، بعضها مجرٌ للمشاة، وبعضها ما بعد وما قبل المرء، وواحد يفصل المرء عن الطريق العادي، وتعدى هذه الخطوط لن يقع بالسائق عقوبة تجاوز الإشارة، وأستطيع أن أسميتها بالخطوطِ الممنوعةِ الوهميَّةِ، أو المتساهلِ في منعها.

- ومثلها لمعان الضوء البرتقالي، فإنه لا مخالفة عند تجاوز الإشارة والضوء برتقالي، وكلها من باب الاحتياط، ولكن الممنوع حقيقة، والذي فيه أشد العقوبات هو تجاوز الخط الآخر، والإنارة مشتعلة باللون الأحمر.

- ومثلها إشارات كثيرة تحذرك من الرادار، وتخبرك أن أمامك راداراً وكلها وهمية إلا واحدة، وهي التي بعدها رadar حقيقي.

- ومثل هذه العلامات - وأكثر عدداً منها - يضع كل نظام من الأنظمة في صفحة وطنه، وكل واحد يوهم أن المخالفات كلها تقتل الحياة، والواقع أن أحدها هو القاتل فقط، وما قبله عبارة عن شدَّ أذن، وإيهام وإرهاب للواقفين ألا يقتربوا.

المقدام اللمعي اليقظ

من الدعاة - وهم الأكثرون - من يمتنع عن أكثر الممارسات الدعوية المسمومة، ولا يُؤدي صاحبها، ولكن شدة الخوف أحالت بينه وبين المصيِّ



قدماً، فيترك الطريق الذي ليس فيه أي تحذير كإماماة المسجد، وكلمة التراويح العامة، التي فيها حث على أذكار اليوم والليلة، وفضيلة التسبيح، وكلمات لو قالها المؤمن فإن الله ينفعه ويرفعه في الدارين.

ومن الدعاة - وما أقْلَمُ - من يسلك الطريق المحدّر منه، ويتباهي إلى جميع اللافتات، ولا يهملها، ويدرك بجُدْرِه اللافتة الحقيقية من الوهمية، ويعرف مكان الرادار الحقيقى الذى يُسْخُقُ حياته، ويُسْخُلُ جسده، فيمُرُ على التحذيرات من السحاب اللطيف، من غير ضوضاء، ويراه الناس كيف يعبر اللافتات والتحذيرات.

وينقسم الناس فيه أقساماً:

- ١- فمنهم من يتَّهمه بالخنواع والانبطاح، أو العمالة، وأنَّه الطُّعم المتَّبرَع به لاصطياد الأغرار، وهؤلاء الظانون ظنَّ السُّوء قلة قليلة.
- ٢- والغالبية يرونـه متهوراً، إذ لا يخفى عليهم صدق الصادق، فهم يخالفونـه في منهجـه، ويريدونـ منه سلوكـ طريقـ جماهـيرـ الدـعـاـةـ، فيـ الكلـامـ عنـ جـوانـبـ مـسـمـوـحةـ منـ الدـيـنـ، كالـكلـامـ عـنـ الأـذـكارـ، وـفـضـلـ التـسـبـيـحـ، وـأـعـوذـ بـالـلـهـ أـنـ يـسـخـرـ مـنـ تـلـكـ الـجـوانـبـ.

- ٣- والقلة القليلة من يعرفونـ ثباتـهـ وـحـكمـتـهـ وـبـعـدـ نـظـرـهـ، وهـؤـلـاءـ الـحـدـاقـ قـلـةـ أـيـضاـ، يـشـجـعـونـهـ عـلـىـ الـعـلـمـ، وـيـرـونـهـ بـطـلاـ بـلـ يـؤـيدـ.

وعوداً إلى موضوع التذكير والوعظ بالأذكار والأوراد: إذ إن بعض الناس يسخرُ من يذَّكِّر بالأدعية، أو سائر العبادات التي لا يعاديها أحد، وهذا



الساخر على خطر عظيم، لأنها سخرية من بعض أجزاء الدين، ولو فتح عينيه جيداً لرأى أن نقمته ليست على ذات الكلام، بل هو موافق، ويقرُّ ويعترف بوجوب الكلام في الرقائق والأذكار، ولكنه ناقم على من رَكَّزَ عليها، وأهمل الحديث الأهم عن جوانب من الطغيان عمَّت فخلَّفت وراءها إِحْنَا وَمَحَنَا ومَظَالِمٍ وظُلْمَاتٍ بعضها فوق بعض، يتبعه الأخُ في الطريق ولا يرى أخاه.

من خلال العرض الآنف يعلم أن الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قد انطبق على كثير من تفاصيل الحياة، وهو قوله: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْأُبْرِيلِ الْيَائِةَ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١)، لقد رأينا أن الرواحل في كل مناحي الحياة، ومنها الدعاء، فالذين يدعون إلى الله مئة، قِلَّةٌ منهم قليلة تُبَيَّنُ الحَقَّ بِحَقِّهِ وحَدَّرِ وَبِتَمَامِهِ، والغالب يقتصر على جوانب من الحق، وقلة أخرى متھورون، لا يُؤْتَرُون إلا نادراً، ويتربكون وراءهم السُّمعَةُ الْحَسَنَةُ في البسطاء، وهم يعيشون أكثر أعمارهم في تضييق، وقد تكون في السجون.

فالمشي في حقل ألغام الدعوة ممکن، وفيه صعوبة، ولكن يحتوي على الإنجاز، وهو مسارٌ قَلَّ مَن يسير فيه، ولا يسلكه إلا الأبطال، وما أَقْلَلَهُمْ وَاللهُ.

التحايل على الظلم لإشعال النور

وما أروع طرق التَّحَايُلِ على الظلم للوصول إلى الله تعالى! فقد مررت بعض حَقَبٍ يُخْتَنُ فيها الداعي، وتُنْصَب له المجانيق إن فتح فمه بحرف في الدعوة إلى الله، فكان من طرق بعض الدعاة أن لا يظهر بمظهر دعوي، ولكنه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩٨، ومسلم برقم: ٥٤٧.



يلبس كما يلبس السُّوقَة، ويأخذُ موادَ التدريس في الثانويات العامة، من نحو وصرف وغيرها من العلوم وقد يكون بعضها في تخصص بعيد كمادة اللغة الأجنبية، والرياضيات، ويبتُّ دعوته من خلاها.

وهذا حال كل داعٍ قد رضي أن يكتب عليه: «وقف لله تعالى لا يباع ولا يوهب، ولا يستأجر ولا يرهن»^(١)، فلئن تفتن الناس وتحايلوا في طرق الوصول إلى النار، وبثّ دعوتهم الضالة، لنحن أولى بهذا التفتن وأهله للوصول إلى الله، لنقول لرب العالمين: فبعزتك لنهدِّيَنَّ الناس أجمعين.

عامل المعارض بخيط من حرير

إن خيط الحرير لين الملمس، ولكن من سحبه على يده بسرعة جرها، وهكذا يجب أن يكون الداعي مع المعارضين الشرسين، لا يظهر منه غضب، ولا صَحْب، ومعاذ الله أن يكون منه الأسوأ والأرذل كالسباب والقذف، ولكنه يجرُّ من الثُّعومة، وقد يبتَر إصبعَ مَنْ شد عليه.

وكان شيخنا العلامة المفتى الشيخ إبراهيم بن محمد سلقيني (ت: ١٤٣٦ هـ) رحمه الله بهذه الصفة، لين الجانب، ولكن لا يسكت على ضَيْمٍ، ولو ديس باسط الإسلام من قبل عدو لرأيت هذا الحرير بتر الذي أمامه بعمومته. من أروع ما أحفظ قصة الشيخ عبد العزيز البشري الأزهري (ت: ١٣٦٩ هـ)

(١) صاحب كلمة: «طالب العلم مكتوب عليه: وقف لله تعالى» هو فضيلة الداعي إلى الله الشيخ أبو النصر بيانوني رحمه الله، سمعها منه شيخنا الشيخ عبد المجيد بيانوني حفظه الله، وحدثني بها.

رحمه الله، وقد كان في دعوة طعام تغص بالحاضرين، والمجلس فيه أخلاط من الناس، والسيط النائع المائع إبانها هو الشيوعية، فاستلم الشيخ المجلس وسيطر عليه من أوله إلى آخره بغزارة علمه وقوة حديثه، والتفت أنظار الحاضرين حوله، والشيخ يلقي بالنكت على الشيوعيين، والكل يضحك من شغاف قلبه لطرافة القصص وعدوبتها، فأكلوا وانتهوا من العشاء، وقام الشيخ ليغسل يديه، فإذا بشيوعي كان يحترق بينهم، ولم يدر أحد عنه خبراً، أراد أن ينتقم من الشيخ، بعد خروجه خارج الغرفة، وقد علق الشيخ جبته على الجدار، أخذ الشيوعي قلم سبورة - طباشير - ورسم رأس حمار على جهة الشيخ، فرأه أحد الحاضرين وأوقفه مستنكراً: فأجابه الشيوعي: أمازح الشيخ لأرى ردة فعله، فما إن دخل الشيخ ورأى رسم صورة رأس الحمار على جبته إلا وصاح بصوت جهوري يظهر عليه الجد، وحقيقة الهرزل والمداعبة: من الذي نشف وجهه بجبي؟ لا أسمح له أبداً! فماج المجلس بالضحك ضحكاً شديداً، ومال بعضهم على بعض، وردد السحر على الساحر، وما برح الشيخ من مكانه حتى أخذ بالثار.

ولما عُين الشيخ قاضياً، حضر الأعيان لتهنئته بالمنصب الجديد، وكان من بين المهنيين أحد الضباط برتبة فريق، فأراد الغمز بالشيخ، فسألته: يا مولانا: صحيح أن النبي ﷺ قال: «قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة»^(١)؟ فقال له:

(١) عَنْ بُرِيَّةَ بْنِ الْحَصَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْقُضَايَا تَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحُقْقِ، فَعَلِمَ ذَاكَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ -



ما الذي يُهمك من هذا، يهمك أن الله تعالى قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولا شك أن الشيخ لا يقصد بتلاوة الآية من كان برتبة فريق، إنما هو نوع من البلاغة، كما لو قلت لطالب مدرسة، **يُهمُّني أن تكون طالب آخر، وأن تنجح في امتحان الله تعالى.**

أنت كالمزارع

- المزارع يحمل بيده حفنة من قمح، وينثرها في أرضه، فما كل حبة تنبت ولا تنتج، فمنها من يأكلها النمل، ومنها التي تتعرّف، وفيها ما لا تغمر في التراب أصلًا، ومنها ما تنبت ولا يتم نتاجها، والأكثر يعلو بسنابله، ومنها حبات تنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة.

- يرى بعض العاطلين قارئاً يدرس القرآن الكريم لجمهور من الطلبة، فيمْتَعِضُ ويقول له: لو خَرَجْتَ لنا تاليًا واحدًا كابن مسعود لكتفي، ولكان خيرًا من مئات التاليين للقرآن، الذين لا يجاوز الذكر الحكيم حناجرَهم.

ثم يسود وجهه، وتضجر نفسه من تدريس الحديث النبوى، وقراءة كتب السنة، ويُنفَسُ عن ضيقه بقوله: لو دَرَسْتُم الشّباب خلقًا واحدًا من أخلاق النبوة لكان خيرًا من هذه القراءة.

= **الثَّالِثُ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضِي قَصَّى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ.** أخرجه الترمذى برقم: ١٣٦٦، وإنسانه مقبول.

يا سيدي: إن المعصوم ﷺ قد عَرَفَ قانون الاستجابة، وقانون الإبداع، وزبدة الناتج بسطر واحد، فقال: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْأُبْلِيلِ الْمِائَةُ، لَا تَكُادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

- ما من عاقل إلا ويعمل مع كل من يتوافر له العمل معه، وهو لا يدرى في أي دعوته البركة، ومن سيستجيب له، ثم على يد مَنْ سيكون تغيير وجه الدعوة، فكم أقسم المدرسوں أن فلاناً من الطلبة إِصْبَعٌ فاسد في جسد التعليم، يجب أن يبتز من المدرسة لكثرة فساده في أقرانه، ثم ترى النتيجة أن يجعل الله تعالى الإبداع على يديه، والخير الوفير من عمله، ويتميز من كان مقصرًا، وينقلب إلى المبدع الوحيد.

- التاجر يشارك في معرض يدفع فيه الآلاف، ولا يبيع فيه ما يغطي مصروف مشاركته، لأنه على أمل كبير بعيد، وهو: أن تأتيه صفقة واحدة تسد له ربع سنة بتمامها.

- والمَدْرَسَة تخرج مئات الطلبة، ومن يثابر قِلَّة، ومن يبدع أَقْلَ، ومن ينبغي أفراد أو نفر قليل، هيئات أن يعرف المدرس مَنْ ذاك الفرد العلم الذي يقلب وجه التاريخ بتمامه.

- أما لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة! لقد صَدَرَ الدعوة للعالم بأجمعه، فاستجاب له مئة ألف ويزيدون، وتميَّز منهم آلالاف، وأبدع المئات، ولكن المبشرين بالجنة بأسمائهم عشرات، فلِمَ لم يقل النبي ﷺ: سأعمل أبا بكر

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩٨، ومسلم برقم: ٥٤٧.



واحدًا ويكتفي، أو لم يقل: سأعمل كل أصحابي نسخة عن أبي بكر؟ ولعل خير جواب لمن أصبح وقًّا مسبلاً للاعتراض الدائم، والنقد المستمر، وتخطئة أعمال العاملين أن يقال له: خذ وظيفة وأرنا حلها: نريد منك إنجاب ولد واحد يكون صلاح الدين الأيوبي للزمن القادم؟ وتدريس طفل واحدٍ من أطفالنا لتجعله داهية السياسة الآتية. وانتقد الشاب الذي تريد، واجعله كابن عباس في فهم القرآن.

ولكن اليقين في هذا المتخصص للنقد الدائم أنه لا يحسن العمل، وهو إمام في طول اللسان، وتسخيف أعمال غيره، ومن العبث أن تطالب الثثار بالعمل، فلو أحسن العمل لأحسن الكف عن تخطئة المنجز، وأحسن إعداد الناس، لأنه يعيش صباح مساء في العقبات والتحديات، فعرف قيمة الإنجاز.

من فن التعامل مع الجاسوس

- اكتشف بعض طلاب جماعة دعوية شخصاً مندساً بينهم، باطنه جاسوس أثيم، وظاهره متهدج قائم بـكاء بين إخوانه، طار الإخوة إلى شيخهم ليشكوه، ووضعوا أمامه خبراً ظنوه أغلى من حسان العرائس، لكنَّ الشيخ صدمَهم بجوابه: «أعرفه»، وهو مندوب لجماعته لدينا منذ خمس عشرة سنة! صاحوا وطاش صوابهم: كيف هذا؟ ولم لم تقضحه؟ قال: هل تريدون أن يأتي إلينا من لا نعرفه؟ نحن نصدُّر لعدونا ما نريد من معلومات عن طريق هذا، أما فضيحته فستُذهب عنا هذا الخير الكبير.

إنَّ العمق في فهم حقيقة الدعوة، وطرق بثها في عسير الرمان، وفي ظلال القبضة المُحكمة.



لن يروي ماء الملح عطشان أبداً

رجل يعيش في دولة تعادي الإسلام، وتقف مع المرأة مهما كانت كاذبة أو متسلطة، وتنصرها ولو كانت ظالمة فاجرة، استفتاني في صديق له ظلم امرأته بضربها ضرباً غير مبرح، وقد اشتكت المرأة للشرطة هناك، فأفتيته أنَّ الشكوى غير جائز! تعجب السامع من كلامي، وقال: ألسن المقرَّ بظلم الرجل؟ ألم تحرق وتغضب آنفَ نصراً للمرأة المظلومة؟ ألم تكن صادقاً في موقفك؟

أجبته: كنت وما زلت على موقفِي، ولكنني أصبحت الآن أمام ظلم جديد، فالشرطة في هذا البلد لن تأخذ حق المرأة ولن تنصرها كما ينبغي، إنما سيكون الأمر نصرة للمبدأ الظالم، الذي ينصر المرأة على أي حالة كانت، ومهما ظلمت أو تعدَّت، وستكون النَّقْمة ضد الإسلام، رفعاً لشعارِ غير الإسلام، وسيُناجِر بال موقف، ويسجل برهاناً على ظلم المسلمين أزواجاً.

وهل تدرِّي يا عزيزي كيف ينصرون هذه المرأة؟ سيطلقونها من زوجها الحالي، ثم يتركون لها عنان الحياة، لتذوقَ كُلَّ أنواع الظلم والإهانة والعبث والتحرش وضياع الأنوثة في العمل الشاقِّ في الحياة، بعد أن كانت أمّا وزوجة تأتِيها لقمةُ عيشها وكسوتها وسائرُ نفقتها إلى حجرها.

وما أشبه موقفِي الحديث بأخِيهِ القديم، لما تعددَ مدرسُ القرآن وضرب طفلاً من طلابه في معهد القرآن الكريم، ضربه بالعصا بسطوة لا ثُبُرَ، ولو عاقرَ الطفل الكبارَ: من شربَ خمر، وسرقة، وعقوقَ للوالدين، ولكن لما وصلَ الأمر إلى الشكوى على مدرس القرآن لجهات عاتية، وعرفتَ أنهم

سيقضون بإغلاق المسجد، وقفْتُ بوجه المشتكِي، وقلت له: إن الجهة غير المسلمة التي تريد أن ترفع إليها مَظْلَمَتَكَ لن تنصر الطفل لإنصاف الحق، ولا لتحقيق العدالة، وإنما سيمارس الأمر على أن الإسلام ظالم، وستُصدَرُ الجريمة على أن مسلماً مارس العنف، وأن معلمي القرآن يزرعون الإرهاب في الطفل عن طريق ممارسته عليهم، فَيَشِبُّ الطفَلُ وهو ناقم على المجتمع مُتَشَرِّبُ لـكُلِّ أَنْوَاعِ الانتقام، وأنَّا من المسلمين أَنفُسِهِمْ قد نفروا من ضغوط دينهم، ورفعوا أمرهم إلى أولئك الممثلين - بتمثيل كاذب - لـإحقاق الحق، وسيقف المعادي للإسلام موقفَ الأب العادل الحازم لـإيقاف الظلم بين الأبناء، ليأخذ حقَّ المظلوم من أخيه الجائر.

أيرضى الله تعالى ورسوله ﷺ هذا الموقف!

وحاشا وكلا أن أرضي باستمرار الظلم على أي نفس بشرية ممن ذكرت، ولن يهدأ لي بال، وبئس المرء من لا يُعمل عقله ولسانه لـإيقاف هذا الظلم المبين، ولكنني أُنْكِرُ أن يتسبب هذا الظلم بظلم أتعس وأبعد وأسوأ، كأن تحمي الشرطة المرأة في وِكْرِ نسوة، وباسم الدفاع عن حقوقهن تُسَاقُ النساء خطوات سريعة للعمل في أرذل الأماكن، حتى تفتح عينيها فتجد نفسها كل يوم بين يدي رجل غير الذي قبله، وانقلبَتْ من امرأة كان يمارس عليها ظلمُ رجل بضربِها في الأشهر السنتَيْن مرَّةً، إلى امرأة تضربُ أنوثتها في كل لحظة، وتحرق إنسانيَّتها، وتتصبُّحُ ألعوبةً بيد شرارِ الخلق، وتتصبُّحُ عاهرةً بعد أن كانت زوجةً وأمًا.



الفارس لا يهتك ستر أهله

سرقت مُدرِّسة الرياضيات في مدرسة شرعية خاصة بالبنات مبلغًا من المال، ورفعت المديرة أمرها لمدير أوقاف ذاك البلد، وهو رجل حكيم بعيد النظر، فما كان منه إلا أن درس الموضوع، من عدة نواح، ومنعه من التصريح بأمور، منها:

- ١- دخول عناصر الأمن إلى مدرسة خاصة بطلبات العلم الشرعي، وما سبق أن دخلوها.
- ٢- خطورة سحب المدرسات إلى فروع الأمن للتحقيق في الموضوع.
- ٣- ظهور السمعة الخائنة على مُدرِّسات مدرسة العلم الشرعي، وتناقل الناس الخبر.

سأل مدير الأوقاف المديرة عن قدر المبلغ المسروق، فأعلمه به، فأتى بمبلغ آخر مكان الذي فُقدَ، ودفعه إليها، وطلب منها أن تدعى أن خطأ طرأ على الحسابات، ثم تم تصحيحه، وطوى الخبر عند هذا الحد، ولكنه لم يطِ العقوبة عن السارقة، إنما ضيقَ عليها حتى تركت التدريس وهربت.

ومثلها في العلاج لما اختلس أحد جيران المسجد بعض السُّجَاد الأعجمي الذي يتغالي الناس بشمنه، سرقه وباعه، فأرسل إليه مدير الأوقاف، واستفهم منه، لكنه أنكر، ثم اعترف، واعتذر بأنه ما فجرَ إلا مِنْ ضيق يده، وليس لديه ما ينفقه لولادة امرأة، فأتى مدير الأوقاف بالمرأة التي اشتريت السجاد منه، والطريف أنها قد اشترته بقرابة ربع ثمنه، وذلك لجهل هذا

المسكين بثمن تلك التحفة الغالية، فأقرت بشراء السجاد، ولكنها تأبى أن ترد البيع، وذلك بعد أن أوصلوا لها كامل الصورة وأن السجاد مسروق من المسجد، فأصررت على عدم الرد، فقال لها مدير الأوقاف: إذن سأرفع يدي عن الدفاع عنكم، وسيرفع أهل المسجد الشكاة إلى فروع الأمن، وكما تعلمين أن السارق والمُنْفِق للسلعة المسروقة شريكان لمشروع واحد في نظر الأمن، فخافت المرأة، ورددت السجاد، لكن السارق تصرف بالملبغ، فأقى مدير الأوقاف بثمن السجاد من طرفه، ورده إلى المرأة المشترية، وغسلوا السجاد، وظهرت الصورة أمام المصلين وأهل الحي أن حملة النظافة كانت سبب فقدان السجاد تلك الأيام القليلة.

إنها الحكمة التي اقتضت أن تعالج الأمور من غير نثر للعجاج، وتذعير الناس، ونشر للفاحشة المفترأة، وإنما هو ستر المذنب بشوب حتى لا يراه أحد، كما قال النبي ﷺ لصاحبه هزاع، الذي أشار على ما عز بالاعتراف بالزنا: «يا هزاع، لو سترته بِرِدَائِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ»^(١).

وأخيراً أقول:

لقد اتضح لكم للبيئة المعارضة من عناء، ولكن ربما يغفل الناس عن أمر: هو أن العيش مع المعارضة تُورث الإبداع، وتعلّم التحايل على الشدائـد، ومن أصغر الأمثلة: أن الطفل الذي ينشأ في بيـة الشدائـد يتعلم مقاومـة مصاعـب الحياة، وكيفـية الحصول على رغيف الخبـز، وانظر إلى عظمـاء العالم

(١) أخرجه أـحمد في المسند برقم: ٩١٨٩٠، وقال محققـو المسـند عنـ الحديث وإـسنادـه: «صـحـيحـ لـغـيـرـهـ، وـهـذـاـ إـسـنـادـ حـسـنـ».

ستجد فيهم الكثرة من الأيتام، وذلك بسبب فقدان التراخي والفتور، الذي يصيب من لديه أب يحمل همّه، ويصرف عليه الأموال، ولا يكلّفه شيئاً من أعباء الحياة، ولن أطيل في ذكر الفرق بين من كان اعتماده على الأب، ومن كان اعتماده على الرب.

والأفضل من هذا الداعي الذي يجاهد ويحارب في سبيل إيصال المعلومة، بل كيف التدرج في التصعيد مع المقاوم والمحارب.

الإبداع في الرد على المعارض

وهو اتخاذ الداعي قاموساً شاملًا، بل غير متناه في الرد على المعارض، بحيث يضع الكلمة اللينة في مرحلتها، ويستبدل بها غيرها عند اللزوم.

فمرة يقول له قوله ليناً لعله يتذكر أو يخشي، ومرة يخاطبه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُكَ
يَنْفِرُونَ مُتَّبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]

ومرة يقبل على أبيه ويخاطبه: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٦]، ومرة يعلنها للمعرضين صراحة: ﴿وَأَعْتَرِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

وآخر يعلن العداء إعلاناً: ﴿قَالَ أَفَرَئِي شُمُّ مَا كُثُرْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٧٥
 وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ٧٦ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

المهم هو اتساع لغة القاموس لدى الداعي، فليس لديه التبشير فحسب، كما ليس لديه التذكرة فقط، ولا الكلام الحسن وحده، ولا الشديد دائمًا، وفي هذا يكمن الإبداع الذي يسعى إليه دائمًا، ألا وهو تحيير المعارض أمامه،

وإجباره على لغة حسنة، وضبط للفاظه، وحساب الحساب لجواب كل كلام.

وسأعلنها صراحة: ما أكثر ما سمعت في المجالس متهدلاً يذكر سماحة النبي ﷺ، ويدرك لينه ﷺ، دون ذكر الخلق الآخر، فلا يذكر أنه أول وأحسن وأعظم من استجاب لله تعالى في أمره: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهُوا
وَالْمُتَّقِينَ وَأَغْلَطُ عَيْنَهُمْ وَمَا وَرَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** [التوبه: ٧٣].

وأنه إذا عفا فهو القائد، وإن انتقم لله فهو المعتز به، فهو ينتقم لله كما أراد الله، وليس هو نبي الرحمة فحسب، بل نبي المرحمة والملحمة، وهو رحيم بالمؤمنين، شديد على الكفار، هكذا وصفه ربـه: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** [الفتح: ٦٩] فلم التركيز على جانب تهواه النفس دون آخر، وأين التسليم لما جاء عن الله تعالى؟

فما بال بعض المعاصرـين خجولاً حبيـاً من الغرب وأفكارـه، كلـما أراد أن يتكلـم عن الإسلام تـكلـم عن الرحـمة فحسبـ، من غير إبداعـ واتساعـ لقاموسـهـ ولا يجدـ آيةـ أو حدـيثـاـ يـتعارضـ معـ العـدوـ إـلـاـ لـوـيـ عـنـقـ النـصـ،ـ أوـ نـفـيـ صـحةـ الحـديثـ،ـ أوـ أـخـفـيـ طـرفـ الـحـادـثـ،ـ أوـ شـرـحـ بـماـ لـاـ يـتعـارـضـ معـ الغـربـ،ـ فإنـ أـعـيـاهـ الـأـمـرـ عـلـقـ عـلـىـ الـاحـتمـالـ وـالـتـوـقـفـ وـالـظـنـ.

الاستسلام للعدو المحاصر خور وتحقيق لمخططه

رحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي (ت: ١٣٥١ هـ) إذ قال:

وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالثَّمَنِيِّ وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابًا
وَمَا اسْتَعْصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالُ إِذَا الإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابًا

حدثني رجل لم يُتِمْ سِنِّي جامعته الأربع بسبب مادتين فقط، قال: كان من أساليب نظام القمع في بلده وال الحرب على الدين أنهم يضعون مادة الامتحان قبل أذان المغرب، إلى ما بعد العشاء، وهذا مقصود للتضييق على الشاب المتدلين، الذي يُجْرِيُهُ على ترك الصلاة، أو اعتزال الدراسة.

قال: أتيت شيخي فسألته متَحِيرًا: لقد عارضوا بين وقت الصلاة والامتحان، **أَخْرِجُ الصلاة عن وقتها، أم أَتَرَكُ الامتحان؟**

أجاب الشيخ ببعض كلمات: «**اترك الأقل أهمية في نظرك، وحقق الأهم**».

لم يجد الشاب المؤمن بُدًّا من ترك الامتحان من أجل الصلاة، وممضت السنة وتعطل تخرجه في الجامعة بسبب بعض المواد التي تعارضت مع الصلاة، ثم تغيرت الأوضاع في بلده، حتى اضطر إلى الخروج قاصدًا بلدًا عربيًا آخر، ولم تَتَسَعْ الفرصة له لإكمال الدراسة الجامعية في مهجره، بل مضى الزمن، وتجاوزه، وأصبح طاغيًّا هرماً، يُرجِع شريط الذكريات، ويُسأَل نفسه: لم حصل معي هكذا؟ لم بَنَى أصدقائي وأحبابي مستقبلي الدراسي، ثم جعلوا يأكلون ويشربون براحة بعد عناء دراسة، إلا أنا فكنت أُنقلب بالأعمال المهنية الشاقة لكسب لقمة العيش.

ثم اطلع على مسألة الجمع بين الصالاتين في الحضر، فقال وعيشه تدميانت: **أَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَمْرِ فَسْحةٌ لِإنْقاذِ حِيَاةِي وَمُسْتَقْبِلِي بِهَذِهِ الرِّخصَةِ؟**^(١)

(١) روى مسلم في صحيحه برقم: (٧٠٥)، من طريق أبي الزبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظَّهَرَ وَالعَصْرَ جَمِيعًا بِالْمَدِينَةِ، فِي عَيْرٍ =



ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة

لدي أسئلة تهُز العقل هَرَزاً: أليس في هذا الإسلام العظيم رخصة لإبطال عمل المعارضين وأهل الربيع، وتحقيق مشروع أهل الإيمان؟

أيرضى لي الشعُر أن يَحْصُرَني عدوِي بين خيارين أحلاهما مرًّا، وأصفاهما سقْمً، ولم يَتَح لي هذا الشعُر العظيم رخصة أَتَرَّخُصُ بها؟

أيمكن أن يجعل الإسلام للمسلم مخرجاً عند الإكراه أن ينال من الدين بكلمات يمررها على شفتيه، مع ثبات القلب على الإيمان، ولا يجعل له المخرج فيما هو أقل من الكفر؟

أيجوز للعالم والمفتي أن يتحقق مشروع العدو بسؤال يحاصر المؤمن الشغوف بالإيمان، بحيث يريه إما أن يُحَقِّقَ ما أراده العدو، أو يخرج عن سور طاعة الله تعالى؟

أليس من تدمير العدو وثبت المؤمن أن يسعد المؤمن برخصة يَسْبَحُ بها في تقوى الله تعالى، وَتُهْزِمُ عدوه ملوّماً مدحوراً خائباً خاسراً من عمله؟

= حَوْفٍ، وَلَا سَعْرٍ» قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ: فَسَأَلْتُ سَعِيدًا، لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجُولَيْهِ عَنْ كَمَا سَأَلْتُنِي، فَقَالَ: «أَرَادَ أَنْ لَا يُخْرِجَ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِهِ».

وقد أطال الإمام النووي (ت: ٦٧٦ هـ) رحمه الله إطالة ماتعة في شرح الحديث، في تعليقاته على «صحيح مسلم» ٥: ٤١٩، وكان من آخر ما قال: «ذهب جماعة من الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر للحاجة، ملن لا يتخذه عادة، وهو قول ابن سيرين، وأشهد من أصحاب مالك، وحكاء الخطابي عن القفال، والشاشي الكبير من أصحاب الشافعي عن أبي إسحاق المَرْوَزِي، عن جماعة من أصحاب الحديث، واختاره ابن المنذر، ويؤيده ظاهر قول ابن عباس: «أراد أن لا يُخْرِجَ أَمَّتَهُ»، فلم يُعَلَّمْ بمرض ولا غيره، والله أعلم».

ألم يكن الأجدى أن يطير الشاب بفتوى الجمع بين الصالحين، وتحقيق مصلحته الدراسية، وشعوره برضاء الله تعالى وقد أدى فرضه ببرخصة معتبرة. وعندها يشعر العدو بالانهزام، حيث لا يرى أحداً من الطلبة المؤمنين قد تخلف عن الامتحانات، ويشعر بالخسران، وإخفاق المخطط، وزعزعة في داخله؟

لكن الجواب الذي يحضرني هنا: أنني أعتذر الشیخ الجلیل ظاناً بأنه لم يطلع على تلك الفتوى، ولكني لا أعتذر في ترك الاستعانتة بأصدقاء ومفتين مطلعین على فروع الفقه أكثر منه، لأنه لتلامذته راعٍ، ومسؤول عن رعيته.

خوف الداعي من النفاق للظالمين

حق للداعي أن يرتفع صوت إنذار الخطر لديه من النفاق وأسبابه وأربابه، وعلاجه هذا الابتعاد عن أي سبب من أسباب النفاق، أو موطن من مواطنه، أو فرد من خدامه، ولكن تلبیس إبليس يركب الداعي أحیاناً فيعتزل الدعوة بتمامها بذریعة خوف النفاق للظالمين.

وهذا كمن ترك الزواج خوفاً من الولد المعوق، أو خوفاً من الزوجة الخائنة، أو ما إلى ذلك.

إن النية موضعها القلب، فليُصَفِّ نِيَّتَه بإرادته الله تعالى، ول يكن دائم العناية بقلبه من أن يميل نحو النفاق، ولْيَتَّقِ الله، ولينطلق نحو الدعوة، فإن خشي على نفسه النفاق فليكن دائم المراجعات، وأكبر علاج وقائي من النفاق هو الانحراف في سلك عصبة من المؤمنين، الذي يخشون ربهم بالغيب، ويصَحِّحُون له المسار إن اعوجَ.



أما ترك الدعوة بهذه الحجة الواهية فهو محض تلبيس من إبليس.

على أنني لا أُنفي وجود حالاتٍ شاذةٍ، يغلب على ظن الداعي أنه لن يملك زمام نفسه، بل ستُنفلتُ من يديه وتهوي في النفاق، فلعلَّ لهذا عذرًا يعذره الله تعالى به.

البعد عما تتبناه السلطات السياسية وما تعاديه، إلا عن قناعة يقينية

تتغير المواقف السياسية تغييرًا من أقصى الشرق إلى آخر الغرب، وما أخف عقل الداعي إن خرج كالبيَّغاء يردد مواقف السلطة، ولم يَتَرَّبَ ولم تُؤَدِّبه الأيام والسُّنُون، فقد تتبعى الدولة دعم فرد أو جماعة أو قضية، ثم سرعان ما تنقلب فتلُّمُ أفراد الجماعة، وتتنصلُّ من نَبِيلِها، وتعتذرُ عن إحسانها.

الموقف تتغير، ولكن الرجال لا تتغيَّر إلا عن قناعة، ولا حرج إن كُذَّب السياسي والمسؤول، لكن خطاب العالم مدَّعَم بالكتاب والسنة، والآيات والأحاديث، فإذا ما دعَمَ توجُّهُ سلطاته في المرة الأولى، ثم نكص معها ودعم الموقف الآخر، وكل مرة استدل بآية أو حديث يدعم موقفه فإني أخشى ما أخشاه أن يكذَّبَ اللهُ ورسولُه، لا المسكينُ الم תלَّون الماشي في ركاب حُكَّامه وأسياده.

لذلك: ما كان ينبغي للداعي أن يتخد موقفاً سياسياً، إلا في حقٍّ باز كالشمس، ولم يُشَبِّهُ أيُّ لَبِسٍ.

الدعوة بالقواسم المشتركة في ظل هيمنة العدو

إن الأخلاق لتشترك جميع الأمم والشعوب والبشرية في قاسم مشترك كبير بينها، فما في البشرية أحد يحث على الإساءة للوالدين، ولا الجار، ولا الصديق، ولا فيها من يحث على الخيانة الزوجية، ولا البخل وإمساك المال في مسارِه الحق، فإذا ما كان في وقت اشتدت فيه الوطأة على المؤمنين أمكن الداعي أن يدعو بالقواسم المشتركة، وهذا من أَنْجَع الأدوية لمن يرغب ترك الدعوة بحجّة تكميم الأفواه، فيقال له: تكلم عن الإخلاص في العمل، وعدم تفلُّت الموظف من الخدمة المفروضة عليه، وتكلم عن سوء الغش، وفحش الرشوة، وجار السوء، وخيانة الخائن، وتضخيم ثمن السلع التجارية والمواد الأساسية، تكلم عن الإحسان إلى الناس، والعفو عن الظلم، وإشاعة التعاون، والسماحة مع أبناء البلد الواحد، ونشر الحب وأمثالها، فَجُلُّ هذه الأمور موضع اتفاق بين الحكام والشعوب وجميع الشرائع، وهي من صميم رسالة الإسلام.

ولو أنه أَفْرَد الكلام عن الوزير المزور، والبرلماني المُنْتَفع، ورئيس البلدية السارق، ووزير الإعلام الماجن الناشر للرذيلة وأضرابهم لأخرس الظالمن فَمَهُ، وكَمَمُوهُ، وَهَرَؤُوا جَسَدَهُ، وَقَشَرُوا جَلَدَهُ، وبات في شَرٌّ مكان ومكانة.

ولا أرى في حال من الأحوال ترك الحديث عن هذه الفظائع، ولكنني أتكلّم عن موازنة تَشْغُلُ مرید الاعتزال، وتمتنعه من الجلوس والفراغ، ولتلك الأحاديث رجالها المسئودون، وأبطالها الذي أوتوا من الحكمة في اقتناص المناسبات، وعندهم ما يجعلهم يتكلّمون بحكمة ولا يسكتون.



وهكذا تجد أن الكلام في القواسم المشتركة خير من السكوت والاعتزال
لن لا يحسن أو يستطيع الكلام عن العظائم.

طمأنة العدو بما تعتقد و هو يعتقد

يقول العلامة المفسر الشيخ محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٩ هـ)
رحمه الله: «إنني لا أريد أن أحكم بالإسلام، وإنما أريد أن أحكم
بـالإسلام».

من المهم جدًا لدى الداعي بعيد عن السياسة - وهم السواد الأعظم
والكثرة الكثيرة - أن يطمئن المسؤولين أنه لا يريد هرزاً عروشهم، ولا النيل
منهم، ولا تأليب الناس عليهم، وهذه الدعوى يصدقها الواقع أو يكذبها،
حيث إن المتطلع إلى الشهرة، ونيل إضفاء الجرأة عليه من قبل العامة ليجد
أن أسهل طريق له مهاجمة الحكماء، ويغلب على هؤلاء أحد صنفين من الناس:

منهم الذين يريدون أن يقال عنهم جرأة، وويل لهم من هذه النية.

ومنهم المتهورون الذين يدفعون حياتهم رخيصة دون ثمن يذكر.

وقليل منهم من ينقد باتزان، واعتدال، وغيره مع رحمة، وشفقة مع
الإصلاح.

أشرس المعارضين

شر أنواع المعارضين وأشرسهم وأسوأهم المعارضون المندسون في صفوف
الداعي، يظهرون أمام الناس أنهم منه، ويعملون على هدم ما يبنيه وتسريب
أسراره، ولقد أحصيت أنواع البلاء التي ابتلي بها الحبيب ﷺ فكانت كثيرة، منها:

- فَقُدُّ الصاحب: كحمزة رضي الله عنه.
 - فَقُدُّ المساند: كخدجية رضي الله عنها.
 - فَقُدُّ الناصر: كعمه أبي طالب.
 - فَقُدُّ الولد والسبط: كفقد ولده إبراهيم، وسبطه ابن زينب.
 - الأذى الجسدي بسحج الوجه وكسر الركبة.
 - التهجير من الدار الأساس.
 - السحر.
 - الضرب والإهانة والرمي بسلا الجوزر.
 - الكلام في عرضه.
 - وجود المنافقين في صفوف أصحابه رضي الله عنهم.
- فدرستُ شرها وأسوأها فكانت مصيبة المنافقين، ولو سئلت أهي أكبر شرًا من مصيبة الكلام في عرضه ﴿؟﴾ لقلت: نعم، لأن كل الكلام في عرضه ﴿؟﴾ أحد بلايا المنافقين الكثيرة.
- وانظر إلى كامل سيرة النبي ﷺ مع المنافقين، وهم الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا دسوا سموهم فيها، فإذا خرج في غزوة قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرّ﴾ [التوبة: ٨١].
- ولم يوفروا شتيمةً ولا وعْدًا بباطل إلا ودسَّ أحدهم كيده، كقول خبيثهم

الأكبر: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَا أَكْبَرُ مِنْهَا أَذَلُّ﴾ [المنافقون: ٨]. فهم الذي خرجوا معه ﷺ في غزوة أحد وكانت عدّة جيشه نحو ألف، فانسحبوا حتى رأى نفسه ما معه غير سبعمئة.

وبعد أن جمع النبي ﷺ أصحابه في مسجد واحد، بنوا مسجد الضرار لمسجده، ليشتتُوا عمله، لكن فضحهم الله تعالى في سورة التوبة. وقد كان النبي ﷺ كثير الاجتماع مع أصحابه في الصلوات، فكانوا يتخلرون عن صلاة العشاء والفجر، كي يستُوا سنة التخلف عن الصلاة وراء رسول الله ﷺ، ولكن هيهات أن يتحققوا ما طووه من خبائث النية. فكيف كان علاج النبي ﷺ لهم؟ وما هي أهم طرق التعامل مع المعارض عامة؟

قواعد التعامل مع المعارض

لعل أقوى مؤثر في التعامل مع المعارض الدفع بالتي هي أحسن، إنه الوعد الإلهي لنبيه المصطفى ﷺ أولاً، ثم هو لنا عامه، وهو أن الدفع بالتي هي أحسن يعطي نتيجة: ﴿فَإِذَا أَلَّذَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدُوُّهُ كَانَهُ وَلِئِنْ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولدى التجربة تجد أن أكثر ما يُبطل عمل الكاذبين هو الدفع بالتي هي أحسن، ولقد كان جُلّ علاج النبي ﷺ بالتفاوض، والدفع بالتي هي أحسن، وترك المواجهة.

وهذا له فائدة مُبَطَّنةً عجيبة، وهي أن أكثر العامة لا يقرؤون بين



الأسطر، وهذا يُشُّقُّ الصُّفَّ، بحسبِ ينقسمُ العَامَة - عَنْدَ الْمُصِيَّةِ - إِلَى أَقْسَامٍ:

- منهم المتعاطف مع الأضعف دون تخليل إن كان جانِيًّا متعدِّيًّا أو مظلومًا.

- ومنهم المحتمي بالأقوى دون تخليل أيضًا.

- ومنهم الذي يهجر المكان والجماعة أصلًا إن حصل أي اختلاف.

- ومنهم العاقل الذي يُعْمَلُ عَقْلَهُ، ويجهده، ويأخذ موضعه، وهذا نادر.

ومن الردود على المعارض الإعراض عنه، فلا أقوى أبدًا من ترك إقامة الحد على رأس المنافقين المتكلِّم في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والسؤال: كيف يقيم النبي ﷺ حَدَّ الْقَذْفِ على ثلاثة من الصحابة الذين نقلوا الخبر، ولم يقِمْ على رأس المنافقين الذي تولى كِبْرَ الْأَمْرِ؟

الجواب: في الأمر حِكْمَ كثيرة، لعل أهمها: أن التطهير جُعل للمؤمنين، أما غير المؤمنين فإن نال عقابه في الدنيا فلن يحاسب عليه في الآخرة، ومن ذلك أن قَيلَ النَّبِيُّ ﷺ اعتذارهم في غزوة تبوك، ولم ينلهم العقاب الذي وقع على الثلاثة الذين خُلُقُوا: كعب بن مالك، ومُرَارَة بن الرَّبِيع، وهلال بن أمية، ومثلهم الذين أخطئوا في الكلام يوم الإفك: مسطح بْنُ أَثَاثَة، حَمْنَة بنت جحش، وحسانُ بْنُ ثابت رضي الله عنهم.

ومنها: مراعاة الرأي العام، وعدم تأليب الناس، ففي نص الحديث، لما استأذن عمر رضي الله عنه المصطفى ﷺ أن يقطع عنق عبد الله بن أبي ابن سلول

المنافق أجا به ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

وما يدرى كثير من الناس أن الرد المباشر على العدو يكون أحياً أكبر عامل مقوٍ لعمل المعارض، أما الإعراض فإنه إضعاف، ولكن الدفع بالتي هي أحسن إبطال وإحباط.

فهذه أقوى قواعد التعامل مع المعارض، وما لجأ أحد إلى المجابهة دائمًا إلا خسر مواقف كثيرة، ولا لأن بين أيدي العدو دائمًا إلا أكل، ولكن التغافل ظاهراً واليقظة باطنًا أغلى سلاح يُلقي على العدو.

لكن لا تنس أن على الداعي إيصال رسالة للمدعو أنه غير مستفيد من دعوته إلا أجراً الآخرة، وما يتعلّق بها، كالمودة في القربي.

أما إن كنت أمام معارض، فزد عليها نقطتين:

١- لن أترك الدعوة ولن أقدم استقالة من العمل مع الله تعالى.

٢- ليس بين يدي خيار ثالث، هما اثنان: إما الدعوة أو الموت.

الرد الناعم السَّامُ

وتجد في بعض الموضع ردوداً أشد من الإعراض، وهي من الدفع بالتي هي أحسن، ألا وهو الرد المفهوم لكلا الطرفين، الذي ظاهره النعومة، وباطنه السُّمُّ الزُّعاف، فاسمع هذه الحادثة التي تحدثت عنها السيدة الجليلة عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقول: دَخَلَ رَهْطٌ مِّنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٠٥، ومسلم برقم: ٤٥٨٦.

السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةً، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَمْ تَسْمَعُ مَا قَالُوا ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُلْتُ: «وَعَلَيْكُمْ»^(١).

اعتزال الدعوة

قد يُشُقُّ الأمر على الداعي، ويُضيق عليه، فيختار اعتزال الدعوة، وينكفي على نفسه، ويتفرغ لأبنائه، ويلتمس عملاً من الأعمال الدنيوية، ويعلن ترك الدعوة.

وقد يعذر في هذا القرار واحد من الألف، ولكن الخطأ المبين أن يكون هذا القرار أول قرار يتخذه أبناء الدعوة، وهذا إن حصل فإنما يحصل من سوء فهم مشروعهم، وذلك عند من ظن أن الدعوة طريق مفروش بالياسمين، وتترقرق المياه على جوانبه، ويفوح منه عبق الأريج، فحيث تفاجأ بعكس هذا أعلن الانسحاب والإفلات.

يخطئ ثم يخطئ من يضع الاعتزال حلاً، ويستشهد بحديث: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسْعُكَ بَيْتُكَ، وَأَبْلِكَ عَلَى حَطِيبَتِكَ»^(٢)، أو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» [مريم: ٤٨].

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم: ٦٠٩٤، ومسلم برقم: ٩١٦٥.

(٢) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَادَةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسْعُكَ بَيْتُكَ، وَأَبْلِكَ عَلَى حَطِيبَتِكَ». أخرجه الترمذى برقم: ٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

أما حديث: «وَلَيُسْعِلَكَ يَتُوكَ»، فليس فيه اعتزال الدعوة، ولكن فيه تحبيب إملاء الفراغ بالعبادة، وأعرف من يشرح الحديث حال راويه وسلوكه بعد أن سمع الوصفة من النبي ﷺ، وهو السائل للنبي ﷺ المستفتى له، فقد جاء في ترجمة سيدنا عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أنه كان إماماً في الدعوة، حيث قال عنه الحافظ الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ) : «الإمام، المقرئ، أبو عبس المصري، صاحب النبي ﷺ، حدث عنه: أبو الحسن مرتضى اليزيدي، وجبير بن نفير، وسعيد بن المسيب، وأبو إدريس الحولاني، وعلي بن رباح، وأبو عمران أسلم التنجيسي، وعبد الرحمن بن شمسة، ومشرح بن هاعان، وأبو عشانة حي بن يؤمن، وأبو قبيل المعاوري، وسعيد المقبرى، وبعجة الجهنى، وخلق سواهم. وكان عالماً، مقرئاً، فصيحاً، فقيهاً، فرضياً، شاعراً، كبير الشأن، وهو كان البريد إلى عمر بفتح دمشق»^(١).

فبالله عليك: هل هذه الأوصاف من الفقه والتدريس وتحديث الطلاب والعمل مع عمال البلاد حال من وصف له النبي ﷺ وصفةً فهم منها الاعتزال عن الناس؟ معاذ الله أن يكون المعنى كذلك.

ثم إن العزلة حل رائعاً من صرّح له خصمه بالعداء، فيتخذ القرار باعتزال المقاتلين، ليترفع الداعي إلى غيرهم، وليس ليستقيل من الدعوة أصلًا، كاعتزال سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه.

ولا يستشهد أبداً بحديث: نأى النبي ﷺ عن الناس في غار حراء للتعبد،

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» ٤: ٦٧٤ باختصار.



لأنه لم يكن مُرسلاً أصلًا، ولا مكلّفاً بالدعوة، إنما هو متعبدٌ ناءٌ بنفسه عن البشر.

وكان شيخي الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٦ هـ) رحمه الله يردد مقولته معناها: «خالطوا الناس بأجسادكم، واعزلوا العاصين بقلوبكم».

وأختتم الباب ببعض قواعد التعامل مع المعارض:

- الدفع بالتي هي أحسن: قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِإِلَيْهِ أَحْسَنُ إِلَيْهِ أَحْسَنٌ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

- الجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوَعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِيلُهُمْ بِإِلَيْهِ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٩٥].

-أخذ العفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمِرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- لا حرج من التصريح بالتحدى إن كان بأسلوب لين، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

- إذا وصل المعارض إلى اللغو فأعرض عنه، قال تعالى في وصف الذين آتاهם الكتاب من قبل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا الْلَّغُوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

والإقبال على من أقبل على الدعوة، كحال عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه: ﴿ عَبْسَ وَتَوْلَى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَغْمَى ٢ وَمَا يُدْرِكَ لَعْلَهُ يَرَى ٣ أَوْ يَدْكُرُ فَنَفْعُهُ الْذِكْرَى ٤ أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى ٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٨ وَهُوَ يَخْشَى ٩ فَانْتَ عَمَّا تَلَهَّى ١٠ ﴾ [عبس: ١ - ١٠].

- شأن المعارضين الجداول بالباطل، فلا يستجرونك إليه، بل جادل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ كَذَّبُوكُلَّهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِصُوْبِهِ الْحَقَّ فَلَآخُذُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُهُمْ ﴾ [غافر: ٥].

- التغافل: ولقد كان من سيرته ﷺ أنه يتغافل أحياناً عن زلل الأقربين، فكيف مع المعارض قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَسْرَرَ النَّبِيًّا إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَغْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [التحريم: ٣]، وقد قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) رحمه الله: «النبي العاقل الفطن المتغافل»^(١).

- استعمل أسلوب التورية في الخطاب مع الخبيث، وهو الرد الذي ظاهره الحسن، وحقيقةه مقصودة من الملقي، ومفهومه لدى المتلقى، كما في إساءة اليهود للحبيب ﷺ بقبيل الكلام بدل السلام عليه.

- يخطئ من يصور طريق الدعوة طريق البشرة فقط، بل لا بد من التعرض إلى النّذارة، قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا ﴾

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٠: ٨٩.

وَنَذِيرًا》 [الأحزاب: ٤٥]، وقال: ﴿وَنَذِرُهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذَا الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ
كَظِيمٌ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيْسٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وقال تعالى في
عرض الكلام عن الذي آمن: ﴿يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ
الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَاتٍ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ
عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُرَزَّقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

- أول كلمة تتكلما مع مرضى المعارضة يهربون إلى تكذيبك، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ مُوسَىٰ وَهَمْنَانَ
وَفَرْعَوْنَ قَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]، فكن ج بلا لا يهُزه ريح.

- ديننا لا يأمر بالقتل من لا يريد اتباع الدين، بل له حريته في الاختيار،
ولكن لا يحق له اللعب بنا، بحيث يدخل في الإسلام وجه النهار، ويُكفر
آخره، أما المعارضون من الكافرين فأول براجحهم القتل، قال تعالى في وصف
حال قوم موسى لما جاءهم بالحق: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتُلُوا
أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْمِلُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَفَرِينَ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنٌ ذَرْنِي فَأَقْتُلُ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٥ - ٢٦].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكان الفراغ من آخر حرف عصر الثلاثاء ١٤٤٥/٠٤/٩ الموافق لـ

.٢٠٢٣/١٠/٢٤

ثم كانت آخر مراجعة للكتاب يوم الخميس ١٤٤٦/٠٣/٢٣ هـ، الموافق لـ ٢٠٢٤/٠٩/٢٥ م، وذلك في ولاية غازى عينتاب، في تركيا.



الدُّعَوةُ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
مع المعارض



صَفْوَةُ الْكِتَابِ

الفكرة	الصفحة
<p>يطيب لبعض الشباب المتعلّم لفن قيادة المركب حديثاً ألا يزحزح المقوّد يمنة ولا يسراً، فتراه يمشي في الطريق بأسلوب أهوج يتحدى بها الحفر ومباطن الطريق، وأشد منه سذاجة مع هوجاء من استعمل هذه العقلية في الدعوة، وهو يعلم أن جُل الحفر ما عملته يدا عدوه.</p>	٢٣
<p>ألا إن سلعة الدعوة غالبة، ألا إن الدعوة لا تصل إليها من طريق مريح مُعبَدٍ، فمن وفاها حقها من التعب والنضَبَ ووصل، ومن تفلَّت وآثار الراحة فإن الطرد منها هو المأوى.</p>	٢٤
<p>ومن الناس من تُعْجِبُهُ نفسه، ويقدّر كل ذرة يقدمها في الدعوة، ويرى عمله جبلاً تَنْوِعاً بحمله العباد، وأما غيره في نظره: فجعل الناس مُهَدِّم، والقليل من يبني مع الخطأ الكبير، والأقل من يقدح ويُكَدِّح ولكن في عمله خلل، أما نفسه فهو محور الصواب في الكون، والوزن الذي يقاس بعمله كل عمل.</p>	٢٤
<p>البعد جفاء، قاتل الله حجاب بعد ما أصْفَقَه.</p>	٢٥

الفكرة	الصفحة
<p>تَدْعِيُّ أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ مِنْ زَوْجِهَا الْكَلْمَةَ الصَّالِحةَ، وَلَا أَلْفَاظَ الْغَزْلِ، وَكُلَّمَا دَخَلَ الْبَيْتَ بَدَأَ التَّكَدُّدُ وَالتَّعْبُ، ثُمَّ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَتَعَقَّمَ فِي الْكَلَامِ فَتَكَتَّشَفَ أَنَّهَا السَّبُّ الَّذِي أَظْلَمَتْ بِهَا حَيَاتَهُ، فَبِمَجْرِدِ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ يَقْعُ في زِنْزَانَةِ عَذَابٍ، يَتَجَرَّعُ فِيهَا كَؤُوسُ الْمَرَارِ!</p>	٢٩
<p>إِرْجَاعُ الْأَسْبَابِ إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ خَطَأً مِنْ أَخْطَاءِ التَّفْكِيرِ، يُوصَلُ إِلَى نَتْيَاجَةٍ مُشَلَّوَةٍ.</p>	٣١
<p>مَا مِنْ طَبِيبٍ يَصْفِ الدَّوَاءَ بِنَاءً عَلَى نَظَرَةٍ سَطْحِيَّةٍ، أَوْ تَوْقِعَ مَبْنِيَّهُ عَلَى ظَنٍّ، مِنْ غَيْرِ فَحْصٍ، وَوَضْعِ الْيَدِ عَلَى الْعَلَةِ بِدَقَّةٍ إِلَّا سَقَطَتْ نَتْيَاجُهُ، وَأَخْفَقَ فِي عَلاَجِهِ، وَكُلَّمَا زَادَ فِي تَحْلِيلِ الْمَشَكَّلةِ زَادَ صَوَابَهُ فِي تَعْيِينِ الدَّوَاءِ، وَدَنَا مِنْهُ عَلاَجُ الْمَصَابِ.</p>	٣١
<p>إِذَا قَرَأْتَ أَوْ سَمِعْتَ مَوْقِفًا، فَحاوَلْتَ أَنْ تَقْفَ علىِ الْحَقِيقَةِ الْأُولَى مِنْ غَيْرِ بَهَاراتِ عَرْضٍ، وَلَا لَظَىِ التَّحْلِيلِ.</p>	٣٢
<p>حُفِّتَ الدُّعَوةُ بِالْمَكَارِهِ، وَمَعَهَا بَعْضُ الْلَّذَائِذِ، وَلَكِنَّ الْمَصِيرَ غَالٍِ، فَلَذَّةُ الرُّوحِ تَطْغَى عَلَى أَلْمِ الْجَسَدِ، فَالْجَسَدُ يَتَعَبُّ، وَالرُّوحُ لَا تَشْبَعُ.</p>	٣٦
<p>الداعِيُّ إِلَى اللَّهِ وَارِثُ نَبِيِّ بِكَامِلِ التَّرَكَةِ: بِالْعَزَّ،</p>	٣٧

الفكرة	الصفحة
والتكذيب، والابتلاء، والرفعة.	
الدعوة النّفاذة تكون في الشباب والصغار، فإن أردت نهضة دعوية فكرّس كل الجهود فيهم.	٣٧
إحکام الأسالیب الدعویة لا یعنی ضرورة النجاح، لأن الأمر یتعلق بالمتلقی أيضًا.	٣٧
الفتوی لباس يصلح لواحد ومن هو مثله لا أكثر.	٤١
إن فيروس الاعتراض هو أن يقول المعارض للعامي في كثير من قرباته أخطاء، ولو تبصرَّ هذا المعارض لجعل الاعتراض لمن خالف أمر الله فقط، أمّا ما كان في الأسالیب أو الآراء المتعددة فلا اعتراض، ولعلَّم أن ممارسة عبادة مرجوحة خير من ترك العبادة بالكلية.	٤٢
يقبل الشاب الحديث الالتزام على التدين، ويرى بعقله، ويندوّن قلبه حلاوة الأخوة في المسجد، فلا يلبث أن يتعرّض بصناع الضوضاء الدعویة، حيث يقطعون عليه ضوءُ أنس الدعوة بجدلٍ قيل وقال، فيكرة الالتزام بعد أن أحبهُ، ويصدّ عن المسجد بعد أن تعلق قلبه فيه، ويقول: هربنا من المخالفين على الدنيا لنصادف المخالفين على الدين؟	٤٣

الفكرة	الصفحة
<p>بعض مُدَعِّي الدعوة لا يهدأ له بالٌ حتى يعترض على كل شيء يراه في المدعو، ويصفه أنه خطأ، وأسمى هؤلاء بِعَوَائِق الدعوة، التي تعرقل سير السائر إلى الله تعالى، ولا تدلُّه على الله.</p>	٤٤
<p>أما يَجُدُّ الْحَرَجُ الشَّدِيدُ مِنْ يَسْبِحُ الْبِسَاطَ مِنْ تَحْتِ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ وَيَتَرَكُ الْمَرْءَ دُونَهَا؟ أَلَيْسَ الْمَوَاظِبَةَ طِيلَةُ الْعُمَرِ عَلَى قِرَاءَةِ سُورَةِ مُعِينَةٍ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ خَيْرًا مِنْ عَدْمِ الْقِرَاءَةِ؟ فَلَا يَجُوزُ سَحْبُ عِبَادَةٍ إِلَّا إِنْ اسْتَبَدَّ بِهَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا.</p>	٤٦
<p>أَيْقُلُ أَنْ يَرَى الشَّابُ فِي بَعْضِ دُخُولِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ يَعْتَرِضُ عَلَى مَوْضِعِ الْيَدَيْنِ عَلَى الصَّدْرِ، أَوْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، أَوْ الجَهْرِ جَمَاعَةً بِالْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ بَعْدِ الْفَرَائِضِ، أَوْ التَّكْبِيرِ الجَمَاعِيِّ يَوْمَ الْعِيدِ، أَوْ غَيْرِهَا، وَلَا يُحْرِقُ بِنَارِ الاعتراضِ مِنْ يَحْلِفُ كَاذِبًا قَرْبَ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَالْغَشَاشِ، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَصْلًا؟</p>	٤٨
<p>عجِيًّا لِأَنَّاسٍ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الاعتراضُ، وَظَنُوا أَنَّهُمْ كُلُّمَا زَادُوا مِنَ الاعتراضِ زَادُوا تَوْقِدًا وَأَلْمَعِيَّةً، وَمِنْ وَلَعِ بعضِ النَّاسِ فِي الاعتراضِ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَجِدُ أَمْرًا إِلَّا نَهَى عَنْهُ.</p>	٤٨

الفكرة	الصفحة
<p>علمتني الحياة أن الناس قسمان: مجتمع لا وقت لديه للعمل، وعامل لا وقت للجعاجعة عنده.</p>	٥٠
<p>لا التفات نحو المصابين بوسواس الاعتراض، فيعرض، ويتوهم أن الصورة لم تصل، فيعيد.</p>	٥١
<p>لا أنكر أبداً أن في المدارس الدعوية أخطاء، ولكن جمع أخطائهم في صحن واحد، وعدم سماع الابن من أبيه، والتلميذ من شيخه، والطالب من معلمه غير أخطاء المدارس الأخرى، سيسبب له النفرة منهن جميعاً، والاشمئزاز دون تفرقة، مع أن المدارس تلك تحتوي على خيرات حسان، ولا أقول إن خيرها لم يحمل الخبث لأنه قد بلغ القلّتين، إنما أصبح مجمع البحرين.</p>	٥٢
<p>أيُّ تربية سُوية ترجوها لولدك وتلميذك، وأيُّ تقبُّل للمخالف تخطبه ما دمت تغذيه بتجسيم زلات غيرك، وغض الطرف عن بلاياك.</p>	٥٣
<p>إن أحببتم الحديث عن التوازن الخطابي فإنه عرض جوانب المسألة بما يوصل الصورة صحيحة كما يريدها صاحبها، من غير زيادة ولا نقص يُشوهها.</p>	٥٤

الفكرة	الصفحة
<p>النفس تميل إلى الطفرات العالية جداً، ثم الهاابطة بحدّه، أشبهها بمرض السكري، الذي يرتفع إلى ٥٠٠، وربما هبط إلى ١٠٠، ولا تميل إلى التدرج والاعتدال.</p>	٥٦
<p>إن إدخال الشبهة إلى من ليس بهم بها، وليس قادرًا على تجاوزها لسقطةٍ، أما قطرة الشبهة في الأذن لمن يستطيع تجاوزها على سبيل التحذير والمحصنة فهي حالة سوية، وبهذه الطريقة تكون كاللّقاح، والفيروس المدروس ليُعطي للجسد مناعة، وليس وراء ذلك حبة خردل من صواب.</p>	٥٧
<p>لست منكراً أبداً أن طرح الشبهات واجبٌ بقدر يسير، حتى كأنه لقاحٌ طيبٌ وقائيٌ.</p>	٥٨
<p>أتعُس الناس دعوةً مَنْ يحمل فكرة، ويُجبر الناس عليها، دون تقدير للفروق: بين الصغير والكبير، والتائب والعابد، والصادق والجاهل أو الفاجر، والقريب والبعيد، والمضطهد والأمن، والغني والفقير، والمتسلط والمظلوم، والذكر والأنثى، والمرافق والمعمر.</p>	٦٢
<p>يَحْمِلُ الْأُمَّةَ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْآرَاءِ ضيقٌ فِي التفكير الفقهي، وصغارٌ في عقلية المفتى.</p>	٦٣

الفكرة	الصفحة
وأتعس الناس دعوةً مَنْ يحمل فكرة، ويُجبر الناس عليها، دون تقدير للفرق.	٦٣
إن الذي ينظر إلى الفتاوى بين يديه على أنها صيدلية، يعطي الأول دواء يخفي الحرارة، والآخر يعطيه الدواء العكس.	٧٠
لأن لدى الحبيب ﷺ صيدلية كبرى، يعطي من الأدوية لكل فرد ما يحتاج، فيما كل من آلمته عينه أخذ الدواء نفسه.	٧٢
القول الضعيف يُعمل به لإنقاذ المرء من العصيان والمخالفة، وإنما يستخدم القول الضعيف للحالة الضعيفة.	٧٣
كيف ينطلي على ذهن الداعي أن الوصفة الدعوية تختلف باختلاف المتلقى قرباً وبعداً، حداثة وقدماً، بلداً وآخر، زماناً وأخاه، فترى بعض الدعاة من يتمسك بعلاج واحد، و يجعله الترّيّاق لكل داء.	٧٤
والداعية المُطلبُ من يشخص المرض تشخيصاً دقيقاً، وإن احتاج لكتراً أسئلة للمريض حتى يصل إلى الشفاء.	٧٥
لا يزال علماء التربية يرگزون على أهمية التعليم، ويجعلونه نبض الحياة الراقية، وسبب رفعة الأمم.	٧٧
إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لسبب بقاء الدعوة،	٧٨

الفكرة	الصفحة
ولولا نفر من المؤمنين لاندرس الدين وانعدمت أكثر الأخلاق.	
إحياء السنة لا يكون بإشاعة الببلة، فمن أراد أن يحييها وجب عليه أن ينظر في مآلات الأمور، فإن صلحت كان بها، وإلا فترك السنة خير من إحداث فتنة.	٧٧
السكتوت عن السنة عظيم، وإنما لها هو الغاية المطلوبة، من غير أن يزيد الهمد على البناء، كمن أراد أن يطلي جدران بيته بالطلاء، فنزع أثاث البيت على بكرته.	٧٧
إن ذا البصيرة ليقتدي بالحبيب ﷺ بشأنه في الإصلاح وترك الفاضل عند تعارضه مع شرارة الضرر الأكبر.	٧٨
من الناس من يعشق تسويق الرأي وقتل أخيه، ومنهم من لا يروق له سماع غير هذا الصنف، والعقول السوية ترى الرأي وأخاه، وشبيهه، وقاربه، والأبعد، حتى ترى نقشه، ويعطون لكل واحد منزلته.	٧٨
- بعض رواد المدرسة التقليدية لا يرون غير أنفسهم، فهم بما لديهم مرجحون، ولا اختيار غيرهم منكرون، يذكرون المسألة الشرعية ويعطون الحكم فيها، ويضفون عليه	٧٩

الفكرة	الصفحة
أَلْقَابًا تصور للسامع أَنَّهُ الْحَقُّ الْوَحِيدُ، وَالْقَوْلُ السُّوِيُّ الْيَتَمِّ.	
الانقلاب الذي يحصل من غير اتزان قد يفوق الضرر المعادي وقد يساويه، لكنه ليس بخير قطعاً.	٨٠
وَالْعَاقِلُ الْمُتَزَنُ مَنْ يَسْتَمِرُ كُلُّ الْأَقْوَالِ، وَلَا يَوْفِرُ قَوْلًا إِلَّا وَلَهُ نَازِلَةٌ تَحْتَاجُهُ.	٨١
فِيَا لَلْتَّحْجِيرِ مَنْ يَقْدِمُ رَأِيًّا مُعْتَمِدًا، وَيَتَرَكُ أَخاهُ هَمَّلًا، بِلَ إنْ فَاعِلُ هَذَا لَيَسْتَحِقُ التَّأْدِيبَ وَالْمَنْعَ مِنَ الْفَتْوَىِ، أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ مِنْ رُوحِ الشَّرِيعَةِ وَجُودُ أَكْثَرٍ مِنْ قَوْلٍ.	٨٢
تَصْدِيرُ رَأِيٍّ وَاحِدٍ وَإِيهامُ الْعَامَةِ أَنَّ هَذَا الْوَحِيدُ حَكْمُ الْإِسْلَامِ احْتِكَارٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَلَّا يُخْتَلِفُ فِي الْفَرُوعِ لِجَعْلِ الشَّرْعِ كُلَّهُ كَالْمَسَائلِ غَيْرِ الْمُخْتَلِفِ فِيهَا.	٨٣
الْمَذَاهِبُ أَمَّا مَفْتِيُ الْعَقَائِيرِ عِنْدَ الْعَطَارِ، يَعْطِيُ هَذَا مَا يَنْسَبُهُ، وَذَاكَ مَا يَسْكُنُهُ.	٨٤
إِذَا اقْتَنَعْتَ بِرَأِيٍّ فَلَا حَرجٌ عَلَيْكَ أَنْ تَتَبَناهُ، وَلَكِنْ اتَّقِ اللَّهَ أَنْ تَقْتُلَ الْأَقْوَالَ الْأُخْرَى، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلَّا تَتَعَدَّ الْأَقْوَالُ لِحَسْمِ الْأَمْورِ كُلَّهَا وَجَعَلَهَا رَأِيًّا وَاحِدًا،	٨٥

الصفحة	الفكرة
	<p>كأصول العقيدة، ولكن يريد أن يخفف عنهم، وألا يقع الناس في الحرج والتحرّج، وهي صدقات تصدق الله بها على عباده، فلنقبل صدقته.</p>
٨٧	<p>ومُنِينَا في عصر فيه أناس جامدون، يحكمون على ألفاظ المجاز أنها شرك بالله تعالى، ويحملون المتكلّم على أسوأ احتمال، فالكلمة التي تحتمل الشرك والمجاز حكم على صاحبها بالشرك احتياطًا!</p>
٨٧	<p>الذي ما خُيِّرَ بين أمرتين إِلَّا اختار أَعْسَرَهُما ففي الغالب</p>
	<p>تعرف فتواه بالمنع قبل أن ينطق بها.</p>
٨٧	<p>وصل ببعضهم من سطحية فهم الشريعة، والبعد عن روحها أنه يطالب أو يتخيّل أن لكل مسألة في الدنيا نصًّا نبوياً</p>
	<p>صريحَ الفتيا.</p>
٨٩	<p>روي في الأثر: «لَا تَسْتَرِضُعُوا الْحُمْقَاءَ فَإِنَّ اللَّبَنَ يُورَثُ»، إذا كانت مصّات من الحليب تؤثر، فكيف برضاع العلم من الحمقى، وأنصار الم المتعلمين، وما أكثر من ساد قومه حتى غدا فيهم الأحمق المطاع!</p>
٩٥	<p>وكم أَرْهَبَ طريق الدعوة الفارغ الطويل أنسًا، توهموا أن</p>

الفكرة	الصفحة
السير فيه عسير ولن يصلوا، فسلكوا الطريق الذي يَعُجْ بأمثالهم، ولكنهم في النتيجة يَكْرُرُونَ الأعمال، وما تميَّزوا.	
الفائز من سد الشَّغْر المتروك، ولو تكلَّفَ المشيُّ أبعد، ولكن أسرع وأنجز، حتى صار كأنَّه شامة في الناس.	٩٥
فليكن شعارك: عملي في الدعوة: «تأييد الصحيح الواقع، وتأمين المطلوب النافع».	٩٥
الفطن القوي من يرممُ قديم المباني ويستثمرها، وينشئ ما يحتاج من المحاريب ويستخدمها.	٩٦
ويل للمبالغة الزائدة فإنها لم تدخل خلَّةً من خلال الدعوة إلَّا أفسدتها.	٩٦
ما أقلَّ أدَبَ من يبالغُ في دين الله تعالى! فَمَنْ أَمْرَ بالسُّنْنِ الرُّوَاتِبِ وصَوْرَ النَّاسِ أَنْهَا كالفريضة فقد أَسَاءَ، ومن حَطَّ خطأً تحطِيمًا أكثر مما يستحق سقط نقه من أعين السامعين.	٩٦
ولو أراد الله أن تكون صلاة الجمعة في المسجد فرضاً على الرجال كفرضية الصلوات الخمس لأنزل فيها قرآنًا صريح اللفظ يُتْلَى، ولما اختلف العلماء في ذلك، ولكن سعة	٩٦

الفكرة	الصفحة
الاختلاف أمر يريده الله تعالى.	
أحسن ما يعبر عنه في الإقرار والنقد هو الحجم الذي أراده الشارع الحكيم، فليس إنكار الموسيقى وإنكار الزنى، ومن سُوى في اللفظ واللهمجة عند الإنكار فقد خلط وأساء.	٩٦
تميل نفوس الناس نحو المبالغة، ولكنها في الجماعات ذات تأثير في إثبات الولاء والبراء للجماعة.	٩٩
لعل من المزايدة الخاسرة أن يزحف الحكم من كتب الأخلاق إلى الفقه، إلى فروع العقائد، ثم ما يلبث أن يستلم مَنْصِب الصدارة في العقائد.	١٠٠
أَخْرُجْ واجب الوقت، ولا تقدم عليه أَيَّ مِهمْ، وبعد إنجاز الأهم لكَ أن ترتُب الأولويات كما ترى.	١٠٦
وما أكثر الناس ولو حرصت بمِنْزِنِينْ، بل تميل الكفة لدى الشخص حق يجحح يمنة أو يسراً، فمنهم الذي يصدق كرامات مكذوبة، ويسلِّم لخزعبلات لا تدخل في عقل مجانون، ومنهم من يقيس المغيبات على عقله، ويجعل عقله الحكم على ما ورد من صحيح الأحاديث.	١١٦

الفكرة	الصفحة
إن إعمال نقد العقل في أمور المغيبات الشائبة قد يؤدي بصاحبها إلى الكفر، كما أن إهمال العقل بالكلية لا يعطي الإيمان الراسخ.	١١٣
يكثُر في زماننا نوعان من الناس: منهم من يصدق كل أكذوبة ألصقت بالنبي ﷺ، بدعوى المحبة له، والمدح له، ومنهم من يُعملُ التقد في أحاديث الفضائل كأنها واردة في أصول العقيدة.	١١٤
من التوازن الخطابي ألا يركز الداعي أحاديثه دائمًا بصورة رفيعة تليق بخطاب العلماء، ولا بصورة يسيرة تليق بال العامة، ولا يركز على المواعظ، ولا يُدمِن طرح المناقشات العقلية، بل يكون لديه لكل مقال، ولكل فن رجال، وعند الكلام أمام الجمهور المتنوع فإنه يُنوع في الحديث، ويُغيّر في الأساليب.	١١٥
إن إغلاق القفل ليجعل السامع - بشعور أو عدمه - يبحث عن أخطاء مَنْ بالغت في مدحه، لأنك سوقت المدح وصادرتَه، وصادرتَ - ولو بطريقة خفية - وجود الزلل والخطأ.	١١٦
ما أحيل تحسينَ الحسنِ وتنميَتَه، وتقبِحَ القبيحَ وتوهينَه!	١١٧

الفكرة	الصفحة
ولكن من التعدّي على حقوق الناس أن تنسف أعمالهم لإعجابك بشخص ما.	
مدح الحبيب ﷺ يقتضي أن تعظّم الشرع كما أراد الله تعالى، لا كما تُملي عليه عاطفتك.	١١٦
ألا تفرق معي بين الصحابي الذي تورّط ووقع في الذنب، وبين من يُفقي الشابَ والفتاة ليقعوا في الذنب!	١١٧
إن التوفيق في العبارة، والسداد في الطرح، وانتقاء الحرف اللازم لتوفيق إلهي، لا يسع المسلم إلا أن يفتقر إلى الله تعالى، ويطلب منه العون والمدد، وأما الاعتماد على النفس والبيان والبلاغة والإقناع والحجّة وحدها فهو أكبر مُدمرٍ.	١٢٩
إن حصل خطأً في أداء الدعوة لمدرسة وفرحت المدرسة الأخرى فيها له من ضيق نظر مخجل، عندها اعلم أن حظوظ المتابعة للجماعة قد غلت على حب الدعوة وولائها.	١٢٣
توجد حظوظ جماعة كما توجد حظوظ نفس، وأنانية الجماعة كالأنانية الذاتية، ومكابرة في اعتراف خطأ الجماعة تشبه المكابرة الشخصية.	١٢٣
محازفة العبارة شلل يحجب الساعي عن قبول الخطاب، إلا	١٦٦

الفكرة	الصفحة
لدى عشاق الأمور الفاقعة.	
العامل في حقل الدعوة كالبناء، والمحرب في الدعوة كالسارق يسرق من ذاك البناء، ولكن أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والجحرين لا أكثر، ولو ترك البناء عمله ليجري وراءه لضاع عمره، وما وضع حجراً على حجر، ولكن يَسْعُهُ أن يرُقَّ ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله.	١٦٩
ولو سأله ما مشروعك؟ لأجابك عَمَلُه: ذَمُّ الْجَمِيع، وَتَتَبَعُ العُثُرات، وَإِظْهَارُ شَرٍّ مَا عِنْدِ الْخَلْقِ، مَعَ الْحَرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى طمسِ الْمَحَاسِنِ، وَلَوْ أَسْطَاعَ أَنْ يَفْسِرَ الْخَيْرَ بِشَرٍّ مَا قَصَرَ.	١٦٩
وَاللَّهُ غَيُورٌ عَلَى عِبَادِهِ، يَقْبِلُ مِنَ الْعَبْدِ جَمِيلًا، لَأَنَّهُ «مِنْ كُثُرِ حَسَنَاتِهِ وَعَظَمَتْ وَكَانَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ تَأْثِيرٌ ظَاهِرٌ» فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ لَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ لِغَيْرِهِ، وَيَعْفُ عَنْهُ مَا لَا يَعْفُ عَنِغَيْرِهِ، فَإِنَّ الْمُعْصِيَةَ خَبِيثَةٌ، وَالْمَاءُ إِذَا بَلَغَ قَلْتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبِيثَ».	١٦٩
العامل في حقل الدعوة كالبناء، والمحرب في الدعوة كالسارق يسرق من ذاك البناء، ولكن أقصى ما عنده أن يسرق الحجر والجحرين لا أكثر، ولو ترك البناء عمله ليجري وراءه لضاع عمره، وما وضع حجراً على حجر، ولكن يَسْعُهُ أن يرُقَّ ما سرقه السارق بسرعة، ويتابع عمله، وشتان ما	١٦٩

الفكرة	الصفحة
بين هذا، وبين آخر: ترك العمل الجاد، ومضى يجري خلف اللّصّ، فلا أدرك رَدَّ المسروق، ولا أتمَّ عمران الدار.	
كن يقظاً عند طرح الكلام على الناس، فمن سمات الكثير منهم أن المعلومة الأولى هي التي ترتكز في أذهانهم.	١٣٩
إذا تعلق العوامُ بشخصٍ فمن الصعب أن ينجح بجانبه ثانٍ في ندوة علمية، فضلاً عن أن يخلقه في إماماة أو قيادة مكان.	١٣٤
من أكبر الأخطاء الدعوية الدخول في مَعْمَعة انتصار الداعي لجهة يراها العامة أنها ظالمة أو قوية، وإن كان يعتقد عدها وإنصافها، ولكنه يمكن أن ينصرها بطريق مُلْفَعٍ بالحيادية، أو مخفى غير ظاهر.	١٣٥
من أهم نجاح الداعية أن يَغْضَبَ بصره عما هو حكم معتمد في المذاهب، وإن خالقه، أو زَلَّةٌ لِدَاعِ، أو أسلوب رآه غيره صالحًا، أما هو فلم يَرُه.	١٤١
الاجتماع على مفضول، خير من الاختلاف على أفضل.	١٤٣
ما جاء الأمر القرآني بغض البصر للرجال عن النساء فحسب، ولا النساء عن الرجال فحسب، بل الأمر أن يغضوا من أبصارهم عام، لنا وجب في عيوب الآخر، وزلات	١٤٤

الفكرة	الصفحة
الزوج، وسقطات الصديق، فضلاً عن موقف يحتمل الخطأ والصواب.	
يصيب بعض ذوي الإنتاج والعمل والتميز مرض الأناء، فيرى عمل نفسه، وينسى عمل غيره الذين يتفانون في الميدان معه، وتکبر في عينه أخطاؤهم، وتبصر عنده أخطاء عمله، ويرى لكل أخطائه حججاً وأعذاراً.	١٤٤
أسوء الدعاة حالاً من نصب نفسه محارباً لإخوانه الدعاة، وقد سلم أعداء دينه من لسانه وقلمه، وأحسنهم من توجهه إلى الكفر ومن حاربوا الإسلام، ورتب أولويات الردود والمناقشات العلمية الهدافئة مع إخوته.	١٤٧
إذا كانت الدول المتقدمة تفخر بتهذئة العلاقة مع الجوار والإقليم ودول العالم، فهل من حكمة الداعية أن يفجر العلاقة مع إخوانه.	١٤٧
الحرب عند الداعي لا تكون إلا على متنق على خطئه، أو أمر ذي بالي شره مستطير، فلا حرب في وجهات النظر، ولا الاختلاف الفقهي المعتبر، ولا غير المعتبر - وإن كان لا بد من الإنكار ورفع الصوت بالدليل والمحجة والبرهان - ، إنما الحرب خاصة بمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.	١٥٠

الصفحة	الفكرة
١٥٦	قيل لطفل: هل أضيفك على حلوى، أم أضربك؟ فسخر من عقل السائل وأجابه: الموازنة بين خيرين أو شرين، ولا تصلح بين الخير والشر
١٥٦	مرحباً بكل مناقشة علمية ورداً، فإن كان الفجور في الخصومة خلقاً من أخلاق المنافقين في توافه الدنيا، فإنها لأشد وأعظم في أمور العلم ونقل الشريعة.
١٥٦	عادك غيابياً دون سبق معرفة، ولو رأك لتغير كثيراً، وكم في الناس من ناصب غيره العداء، حتى إذا فقد أخيه، لم يجد بديلاً عنه، ولم يعرف له شبهة!
١٥٦	مشكلتنا ليست بالصدق، وإنما بالتصديق، فالكل صادق، ولكنه متحفظ على أخيه، فهناك الذي يتحفظ للعداء المدرسي.
١٥٦	هناك من يتحفظ لتوهم الغلط، وهناك من يتحفظ على الشخص كله من أجل مسألة من صغار المسائل التي بلغته، وهي صحيحة، وأنكها وأشدّها من يخون أخاه الصادق - الذي لا تكاد تعرف عنه شائبة سوء، ولكن الزلل بلغه - والبلاغ كاذب، أو ظنه - والظن أكذب الحديث -، أو توهّم

الفكرة	الصفحة
والوَهْم يشبه السَّمَادِيرَ.	
قَبَحَ اللَّهُ وَهُمُ الْعَدَاءُ، وَلِيلَ الْهَجْرِ، وَظُلْمَ الْقُطْيَةُ، مَا أَضَرَّهُمْ! فَمَنْ كَانَ مَعَادِيًّا فَلِيَكُنْ مَتْحَرِّيًّا قَبْلَ الْعَدَاءِ، وَمَنْ كَانَ مَقَاطِعًا فَلَا يَقْاطِعُ أَخَاهُ إِلَّا عِنْدَ الْخَبْرِ الْقَطْعِيِّ فِي سَوْءِ وَفْحَشٍ يَسْتَحْقَانَ ذَاكَ الْهَجْرِ الْمَشْرُوعِ.	١٥٨
سَامَحَ اللَّهُ مِنْ فَرْحَةِ لِزْلِلِ الدُّعَاءِ، وَهَدَى مِنْ تَنَاسِيِّ قَاعِدَةِ السُّترِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.	١٥٩
كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرَحُونَ، وَلِغَيْرِهِمْ مُمْتَهِنُونَ، نَتَّهِمُ غَيْرَنَا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَفِي صَفَوْنَا أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ، وَهُمْ مَقْلُّدُونَ لَا مَبْدِعُونَ.	١٥٩
تَعْلَمَ وَأَنْتَ خَالِيُ الْذَّهَنِ، وَإِذَا مَا عَرَضَ أَمْرًا جَدِيدًا فَحَذَارٌ مِنْ مَعَارِضِهِ وَرَدَّهُ، إِلَّا إِنْ ثَبَتَ لِدِيكَ الدَّلِيلُ بِمَا يَؤْيِدُ مَمْشَاكَ.	١٥٩
كَمْ عَابَ النَّاسُ عَلَى بَعْضِهِمُ التَّعْصِبَ، وَذَلِكَ فِي رَمِيِّهِمْ، أَمَّا إِذَا انتَقَلَ الْأَمْرُ إِلَى سَاحِتِهِمْ جَعَلُوهُ التَّعْصِبَ تَمْسِيْكًا بِالْمُبَادِئِ، وَأَلْبِسَ التَّحْيِزَ قِنَاعَ الشَّبَاتِ عَلَى النَّهْجِ الصَّحِيحِ.	١٦٠

الفكرة	الصفحة
متحرر العقل يناقش الفكرة، وصاحب الهوى ينظر من القائل أو الناقل لها.	١٦١
أفلا يدركون أن صاحب العمل هو من تقع منه الأخطاء؟ ثم ألا يعلمون أن من لم يخطئ - من غير الأنبياء - هو الذي لم ي عمل قط؟	١٦٢
أفلا تقدمتم لحمل عباء هذه المهمة؟ أم هو النقد من أجل النقد فحسب؟ أم هي رعونات ظفتُ بعد ضمورِ، وأبْتَ إلا الظهورَ، بل أبْيَ اللَّهُ أَنْ يَتَرَكَ بَعْضَ أَصْحَابِ النَّيَّةِ الْخَبِيثَةِ حتى فضحه في ثنایا حديثه، وصفحات وجهه، وفلَّتاتِ لسانه.	١٦٣
حقق ما تريده من عمل، ولكن من أهل العمل والحركة، ولا تكن من أهل الكسل والنوم، ولك الحق أن تَفْلِيَ أعمال غيرك من العاملين بكل رحابة صدر.	١٦٤
أشبّه المراحل الدعوية عند من يمارس الدعوة بالمراحل الْعُمُرِيَّةِ، فهناك مَنْ دعوته في سن الرضاع والمهد، ومنهم مَنْ في الطفولة المتأخرة، ومنهم مَنْ في المراهقة، ومنهم مَنْ بلغ النضج مع القوة، وهو الكهولة، وبعضهم وصل الشيخوخة،	١٦٥

الفكرة	الصفحة
وآخرهم قد رُدَّ إلى أرذل العمر والحرف والتخليط.	١٦٥
تمثّل بعض المدارس مرحلة المراهقة الدعوية، وكثير من الناس يعرف أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الأفعال والأراء والتصيرات والقرارات غير المتّزنة، وقد تجد فيها اتزاناً ونُبلاً وعقلاً، ولكن هذا خير في غير مظانه.	١٦٦
المراهقة الدعوية: ليست سناً معينة، بل وصف لحالة من اختلال ميزانه الدعوي، واضطرب سُكّانُ المركب لديه.	١٦٧
الحياة عند الغرّ عامة كلوحة مقسومة إلى قسمين: نصفها أبيض والآخر أسود متلاصقين، وليس بينهما منطقة رمادية، لكن طبيعة الإنسان كلما تقدمت سنّه توسيّع مساحة المنطقة الرمادية، على حساب الأبيض والأسود، حتى يفارق الدنيا، ومساحة الأبيض صغيرة جداً، والأسود كذلك، وأكثر لوحة الخبرة عنده رمادية.	١٦٨
ولا يكاد يخلو الكثير من الدخول في مرحلة المراهقة الدعوية، وهي بوجهة نظرى كالخدمة العسكرية الإلزامية لأبناء الوطن، منهم من دخلها غير محب لها، وخرج بأسرع ما يمكن، ومنهم من عاشها بجذافيرها، واستمتع بكل لحظة فيها، ومنهم المخلص لها الذي تطوع فيها أكثر عمره،	١٦٩

الفكرة	الصفحة
حتى أصبح عظيم المراهقين، ومخرج المراهقين، وأصبحت أخلاقه مرجع المراهقة، ومدجنة لتفريخ الأغرار.	
السعيد من ولد صغيراً ثم كبر حتى بلغ الرشد ووقف عنده، ولكن الخسran ملن ولد صغيراً حتى وصل المراهقة فأقام عندها وعاش فيها، ولم يغادرها.	١٧٠
إذا رَفَعَكَ الْكُبَارُ فَلَا يَخْطُرُ بِيَالِكَ أَنْكَ مِنْهُمْ، بَلْ تَذَكَّرُ سَنَّكَ وَأَسْنَانَهُمْ، وَعِلْمَكَ وَعُلُومَهُمْ، وَحَجْمَكَ وَأَحْجَامَهُمْ، وَتَأْثِيرَكَ وَتَأْثِيرَاتِهِمْ.	١٧٠
كم نال الْأَلْمَعُ بِذِكَائِهِ - بعد توفيق الله تعالى له - من أماكن يستحقها، وربما فوق ما يستحق، ولكن كم دَمَرَ نفسه وكان الذكاء سبب مَهْلَكتِهِ! وكم رعى الله أقواماً بتزكيتهم لأنفسهم، وغَرِقَ آخرون في أوحال حظوظ النفس والتطبع للدنيا!	١٧٤
لكل إنسان مفتاح يفتح قلبه، فلا يغريه شيء آخر، ولن يُلَيِّنَ من قلبه، فضلاً عن قلب قلبه، وأنجح الدعاة أثراً من عرف مفتاح كل قلب ليفتحه، وتناسب المعلومات، وتتركز المداية المهدأة.	١٧٩

الفكرة	الصفحة
مفتاح القلب يبدأ من حيث ميول السامع، والنتيجة إيصال كل أنواع الخطاب له، وبهذا تتلاقي أفكار الناس، ويتنوع خطاب الداعي.	١٨٠
ما أحوجنا إلى الأمان المواري أو التعليمي أو أمن عرض المعلومات، كي يؤمن المرء على نفسه من الطرد أو الزجر أو التصنيف المُحرِقِ المُدَمِّر ، بسبب تصريح أو سؤالٍ أو وجهة نظرٍ أو تَوْقِفٍ!	١٨١
الشبهة إذا لم تعط ما تستحقه من الإمامة نمت وكبرت حتى تسيطر على صاحبها، وتصبح معتقدًّا راسخًا.	١٨٣
لم يهدد الطالب بالطرد إن سأله خارج المألوف؟ أليس الواجب على الأكبر وصاحب اليد الطولى أن يتسع للأصغر، وأن يعطيه الأمان الوافي للسؤال بحرية، والتعبير بما يجب في النفس؟	١٨٤
أما يسعنا إلا أن نفرض على القريب منا الوقوف على أرض مكهربة تؤدي ثوانٍ وجوده عليها، حتى نسرع في انسحابه وهربه!	١٨٥
وكم جالست من بني الإنسان من هو متصرف بالإرهاب	١٨٥

الفكرة	الصفحة
الفكري، يسيطر على جليسه، وعيناه تدور كأنها الشرطة، ما أوقعت بأحد إلا انهار أمامها!	
دعاة على أبواب الانحراف يصورون للعامي أنه أهل للاجتهاد ودراسة متون الحديث - لا أسانيدها - والحكم على الحديث من خلال نقد متنه !	١٩٦
يخاصمك الجاهل بكل يسر: وهل الدين حكر على الشيوخ؟ لا، عزيزي: العلم حُكْر على من تعلمه فقط، لكن لا يُسمح لجاهله أن يدخل حِمَاء.	١٩٧
البلاغة الدعوية: تحذيث الناس بما يفيدهم في وقتهم، بلغة تناسب عقولهم.	١٩٩
إظهار اختلاف المدارس الفقهية حالة صحية بين المتخصصين وال العامة، مع عجنها بروح الشكر لله الذي جعل في الأمر فُسْحة، أو دراسة أدلة كلا الفريقين دون إسقاط أحدهما أو الميل عليه، ولكن طرحها على العامة لترجيح رأي أو مذهب وإسقاط أخيه سقطة دعوية.	٢٠٠
ما من إنسان يصغر من رأي مخالفه إلا كان كلامه فتنه على من يكتشف الحقيقة، فمنْ تَقوَى بالعلم والبحث والمعرفة	٢٠٣

الفكرة	الصفحة
والإنصاف نجا، وإنما قرب قتلة كانت على يد محب مغفل، لا حسود ولا مبغض.	
قد تخرج الطفل من المسجد اليوم، وتفرض له الأرض وروداً ليدخل المسجد غداً فلا يستجيب، ولا سيما إذا صار فاسداً ذا نفوذ، فهيهات أن تهديه!	٢٠٦
لا يمدح بالأكاذيب والأباطيل إلا البضاعة المغشوشة، فكيف يرضى بعض الناس أن يمدح المصطفى ﷺ بالأكاذيب؟ أليس عندنا في القرآن والسنة الصحيحة ما يكفي ل مدحه؟ فلم اللجوء إلى الأباطيل؟ [من قول الشيخ سعيد بادنجي].	٢٠٦
ينظم العالمي المسكين قصيدة، ويخرط فيها ما يشاء من موضوعات الحديث، وقصص الخيال، وسمج الأخبار، وبارد المدح، ثم يذهب بعض العلماء يمنة ويسرة كي يبرروا الكلام، أو يألووا عنقه ليقبل.	٢٠٧
الكافرون غرقى، والداعية منقذ يسحب الهملى إلى الحياة.	٢١١
عندما يطرح المربى أمام طلابه ما يوافقهم، ويكتم ما يخالفهم فهو المربى بين أيديهم لا العكس، لأنهم يصرحون	٢١٢

الفكرة	الصفحة
<p>أمامه بكل أفكارهم، أما هو فمُتسلط عليه، مكتوم على أنفاسه، لا يتبين ببنت شفة إلا بما يروق لهم.</p>	
<p>ألا تشعر بعظم أمر القيادة في نظر الصحابة رضي الله عنهم، عندما تركوا جثمان المصطفى ﷺ عقب وفاته من يوم الاثنين، إلى الأربعاء، مما تم دفنه بأبي وأمي حتى بايعوا خليفة يقودهم!</p>	٢١٩
<p>ثم إن في الجندي من يجلس آخر الركب وهو راض، وهو القيادي الفذ، يدعم عمل القائد من موضعه، وربما كان أثره أقوى من القائد ، لأنه جندي يعيش مع الجندي، وينفذ أوامر القيادة، فلا يتهم بالنفع من بعض الجندي.</p>	٢٢٠
<p>في القيادة الدعوية: هناك الداعي الذي صنع مجده بنفسه، والآخر الذي صنعه أمور أخرى.</p>	٢٢٣
<p>لقد كان من أساس بدعيات قيادة الحبيب ﷺ أنه يستشير أصحابه في الأمور العظيمة التي تهم الأمة.</p>	٢٢٤
<p>اعرف كيف تُكَلِّف الدعاة، فبعضهم قيادي، وبعضهم تنفيذي، والتنفيذ إذا وضعته في موضع القيادة شد الرَّكْب كله إلى الوراء، كما أن عمل القيادي في التنفيذ يكثير</p>	٢٢٦

الفكرة	الصفحة
القوانين واللوائح الناظمة للعمل في أعين الناس أحياناً، ويفسرون في أعينهم ما يعدونه تجاوزاً.	
والحكمة فرزاً كل متخصص حيث يحسن من العمل والخبرة، ولا فضل للقيادة على التنفيذ، كما لا عكس.	٢٢٧
أحد القيادات تحت يدي رسول الله ﷺ هو أبو بكر، وقد أسلم على يديه سبعة من العشرة المبشرين بالجنة.	٢٢٩
ويا لهف قلبي على زمان نحن فيه، لا ينتهي الأقوى ليخلف الراحل، بل في كثير من الأحيان لا يخطئ للقادم أبداً، وإنما ينظر إلى الواقع فقط، وينخطئ القائد ما يثبت وجوده، فينتفي صفاً كاملاً من الضعفاء تحته، لأن أول عوامل ثبات القائد في مكانه أن يأتي بعصبة كلهم ضعاف، فهذا ما يرسى قواعد كرسيه، لكن هذه النظرة الدنيوية لا تتماشى مع البعد الدعوي.	٢٣١
إن لم يكن لديكم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فاصنعوا صلاح الدين من مجموع من الشباب، كل فرد يمثل جانباً من شخصيته، وبمجموعهم يمثلون شخصه الكامل.	٢٣٢
في تدريب الموهوب على القيادة لا بد أن يحضر عند جمهرة من مختلف أصناف العلماء، ولكن حذار حذار أن تسلم	٢٣٣

الفكرة	الصفحة
<p>هذا المتدرب إلى المرضى، فإن مشامّة العالم تؤثر في المتلقّي سلبياً وإيجابياً.</p>	
<p>في إعداد القادة إياك أن تنسى قاعدة: «تُقبلُ توبته، وترفضُ إمارته»، وإن رأيت في التائب مؤهلات في القيادة الدعوية، فإنه لا يصح أن يُسلم مقاليد الدعوة، لأن يتوب العدو اليوم ويكون القائد غداً، فمن شروط القيادة أن يذوق مرارة الطاعة كما ذاق حلاوة المعصية.</p>	٢٣٤
<p>إن الترقى بين رتبتي «صف ضابط» إلى «نقيب» سهلة، لكن كلما ارتفعت الرتبة شدد عليها، فكيف في العمل الإسلامي؟ أ يصلح من كان صفرًا أن يرفع إلى رأس الهرم في ليلة؟</p>	٢٣٤
<p>ضعفاء التخطيط يعيشون ويتوالدون ويسعدون ويتعدّبون، وكل هذا في المخططين أيضًا، ولكن الإسلام حَضَنَا على التخطيط والنجاح والمشي بعد الدراسة والمدارسة، ولا بد أن تكون نسبة الزلل عند المخطط أقل منها عند المتبخّط.</p>	٢٣٤
<p>كلما نَضَجَ المتدرب على القيادة أوكل إليه مهمة أعلى من التي قبلها، حتى يصعد درج القيادة درجة درجة، ويصل إلى القمم.</p>	٢٣٤

الفكرة	الصفحة
<p>فاعمل على إعداد القيادات الدعوية، وإنما تخافن من قوم خيانة فلا تبتئس بما يصنعون، وامض إلى إعداد غيرهم ولا تلتفت، فالمتساقطون في الطريق كثير، والتعويل على الثابت النابت، وإنك لا تدرى في أي إعدادك البركة، وقل لسحابة التاركين لك: أمطري حيث شئت فإن خراجك سيأتييني.</p>	٩٣٤
<p>وليتسع صدر الداعي لأخيه الداعي إن دفع الطالب إليه ثم رجع، ثم غير ثم بدأ، فهذا كثير الصدور من المقلبين.</p>	٩٣٧
<p>لا أشك أن بعض الدعاة قد نجح في تربية فئة وجماعة محصورة، ولكن هذا النجاح بقي محصوراً، لأنه مصاب بمرض «القصور الدعوي»، فهو لا يعرف إلا من سبقت معرفتهم، فلا يخرج عنهم، ولا يتواصل مع غيرهم.</p>	٩٣٨
<p>ومن سلبيات عمل المري مع جماعته المحصورة عدم التطلع واستهداف شرائح غير التي بين يديه، ويسيق أفق تفكيره الدعوي، وتُقصُّ جناحاً طموحة، بحيث لا يهمه مخالفة المخالف، بل ربما يصل إلى استعداء الفئات غير المستهدفة، أما عندما يصبح الناس من يستهدف، ويرى عندهم مخالفة مقبولة، فإنه يتسع لهم.</p>	٩٣٨

الفكرة	الصفحة
<p>سيقف الداعي إلى الله تعالى على أهمية تجديد الشريحة، ويرى أن المستهدفين لديه كلامه، إن سال طاب وإن لم يجبر لم يطِبُ.</p>	٤٣٩
<p>من أين يأتي بمثل شيخه منْ تربَّى عند شيخ خطيب مصْقَع، عالمٌ متمكّنٌ، أكاديميٌ فَدٌ، مؤصلٌ عند العلماء، يجمع بين الفقه والفِكْرِ والسلوك والتربية والدعوة والحركة.</p>	٤٤٠
<p>ليَحدُرْ ثم لَيَحدُرْ منْ أن يصل رفض النصح إلى الجندي الصاعقة، بحيث يرى نفسه أنه لا يُعْتَرَضُ عليه، ولا يسأل عمّا يفعل، ولا يُنَاقَشُ في آرائه، وهذا مرض سريع العطب بل الوفاة عن الجماعة.</p>	٤٤١
<p>لا أعرف داءً في الجندي المتميز أكبر من أن يرى نفسه فوق معلمته، وأنه أكبر من قائدته، فإذا وصل البلاء هذا الحد بكى وأبكى، ويكون قد اشتَدَّت عليه النرجسية.</p>	٤٤٢
<p>ومن داء بعض المتميزين أنهم يتوهون أنفسهم أكبر من حجمها، ولا سيما إذا صاحبَ هذا مدحٌ وثناءً وتكبيرٌ من قبل القيادة العليا، فربما يصاب الجندي بداء الانتفاخ، وللأمر أدوية كثيرة، ولكن من أهمها: علاج الورم بتقليل</p>	٤٤٣

الفكرة	الصفحة
أسبابه.	
إن أعظم بُعْيَة يصل إليها أعداء الداعي غالباً ما تكون عن طريق إذاعة سرّ، وربما يكون سبباً في تدميره أو تدمير دعوته، فلذا جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في التركيز على حفظ الأسرار.	٤٤
ألا فَلْتُنْخُلُ الصداقات، وَلْتُحْتَبِرْ الْأُخْوَةُ بِمُعَايِرِ الاختبار المحمدية قبل التوسيع في العلاقات والأسرار.	٤٦
وعند ترك المتخلص عن الركب ومتابعة السير سِيَّئَه الداعي بأنه متقلب، يقطف ثمرات الناس ويتركهم، ولكن الله يعلم المفسد من المصلح، فدع الناس يشغلون أنفسهم بك، واستغلال بالله تعالى.	٤٩
في طريق الدعوة أشواك مؤذية، منهم أناس يتربون مع فئة من الناس، وقد انتسبوا إليهم حيث لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وبعد مدة فتقت أمعاؤهم ونشرت عظامهم من تلك الجماعة أو شيخهم، لكن العقل لم ينضج، مع إصابة القلب بقصر النظر، ففي هذا الجسد عافية وعلة، ونضج مع تشهوه، وفي هذه الحالة ينسق الفرد عن الشيخ أو الجماعة، وينقلب عليهم، ويقلب معه ظهر المجن.	٤٩

الفكرة	الصفحة
<p>النقد إما لأمر ذاع وشاع، وهذا يتداوله العلماء، ويُعطى للعامة بقدر فيه حذر كبير، وإما لأمر مستور فهذا دفنه أولى، وما أشبه هذا بالمولود الذي ولد ميتاً، وإكرام الميت دفنه.</p>	٤٥٩
<p>أشبّه بعض المُغَيّرين لمسار الدعوة بالعبث الذي يجلس جانب سائق السيارة، ويميل بين الفينة والأخرى نحو السائق ويحرف مسار السيارة إلى ما لا يريده السائق، فمن استجاب لهذا المُتَظَلِّل وأذعن ولم يقاومه غير طريقه، ومن زجره ونهاه، وحجزه عن مراده استطاع أن يمضي نحو هدفه.</p>	٤٥٤
<p>ومن طلاب العدل من يشتته شهوة، حتى إذا طُبِّقَ عليه كان من الْحُمُر المستنفرة، فَرَأَتْ من قَسْوَةَ، فأي طلب للعدالة يريد؟ كأنه تخيل العدالة أن يشارك الملوك قصورهم من غير تعب، وأن يحظى بالبساتين هبة، وما عرف أن من العدل أن يُعاقب ويعاتب ويجلس على كرسي القصاص، لرد ما ظلم به الناس.</p>	٤٥٥
<p>الداعي هو من يحدّد الواجب طرحة في الزمان والمكان، ويتكلّم بما يحتاجه الجمهور لا بما يطلبه الجمهور، وله أن ينفذ إلى قلوبهم بما يطلبه الجمهور في طرف يسير لشد</p>	٤٥٨

الفكرة	الصفحة
أنظارهم، ثم يرسل رسالة ما يحتاجه الجمهور، ف تكون الفكرة الأولى مطية للأخرى.	
هيئات أن يكون مصدر أخبار أمي من عدوّاتها، فكيف أصدق كلام الحاقد في الصادقين من إخواني، وكيف أعادي أخي وأغير حكمي عليه من أجل ما يشاع عنه على لسان العدو الماكِر!	٤٦١
- إذا كان الإسلام يطلب الذين بيد الأخ عند الاصطفاف إلى الصلاة، أفاليس الذين مطلوبًا أكثر في سائر الحياة، فرحاً وترحًا، سفراً وحضرًا، ولقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، وقد أرسلهما إلى اليمن معًا: «وَتَطَارَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا».	٤٦٥
الاستفادة من الأسلوب أمر رائع، ولكن لكل شخصيته وطريقته في التربية والتعليم والإشارات والمحروف والأمثلة، وقد تكون في شخص مَزِيَّة، فإن تقلدَها غيره أصبحت مَذَمَّةً وسُخْرِيةً.	٤٧٠
والعقل من عرف نفسه أنه خطوطه فريدة، وليس لها أي نسخة في العالم، وله أن يستفيد من أسلوب غيره بصورة عامة.	٤٧٠

الفكرة	الصفحة
<p>الفَطِن يعلم: أن تطوير الطالب أفكاره وتعديلها عما ورثه من شيوخه حالة صحية ضرورية، وأن المرض يكمن في حالتين: ١- التقليد الأعمى. ٢- الارتداد بشراسة وسوء أدب عما ترَّبَّى عليه، كمثل الذي تبرأ من تربية أبيه.</p>	٤٧٣
<p>فكن داعيًّا يجمع الرحيق من كل الشيوخ، ليخرج منه شراب مختلف ألوانه فيه هداية للناس، لا يشبه عسل دعوته عسلاً آخر، ولن يغنى فرد عن صديقه، والعلماء كالأزهار، لكل زهرة لون وريح مختلف عن الآخر.</p>	٤٧٣
<p>ومن الناس مَنْ عقِيدته وتعلِيمه يتبعان منفعته الشخصية، ولو تحولت الفائدة من جهة إلى أخرى لتحول المُعتقد، ولو تغيَّرت العصبة المستمِعَة له، أو المسجد ورُوَادُه، أو البلد وأهله لتغيَّر جذريًّا.</p>	٤٧٣
<p>لقد حَدَّرَ العلماء كثيرًا من سوء نفاق العالم للحاكم، وذلك لشيوخ هذا الأمر في الزمن الأول، ولكن في زمن أصبح من الواجب على أن أقول: نفاق الضعيف للأقوى، أو نفاق ذي الحاجة لمن يحتاجه.</p>	٤٧٣
<p>وما حيلة الداعي إِلَّا الموازنة في إلقاء الخطاب، حتى تصل</p>	٤٧٦

الفكرة	الصفحة
<p>رسالة الله تعالى دون تشويه ولا بَطْر ولا تحريف، ويحافظ على السامعين من أن ينفروا أو يتركوا التدين من سماع الكلم الذي لا تحبه نفوسهم.</p>	
<p>بئس الإمام من يتحرك بأوامر مقتدية، فلا يركع حتى يشير إليه المصلون أن اركع، ولا يرفع إلا بإشارة، فمن لم يكن أهلاً للاستقلال عن أوامر الدَّهْمَاءِ فلينفض يديه من عَنَاء الدعوة، فإن الدعوة لا ترضى أن تجلس مكان الصَّغار، ولا تدخل ظلمات الشهوات.</p>	٢٧٦
<p>كن على المنهج الإلهي في تبليغ الدعوة، فإن أعجبهم حسنها فسبحان من سخر قلوبهم، وإن لم يكن كذلك، فلا تحرف بُوصَلَةَ عملك، ولا يغررك كثرة المُصَفَّقِين لحديثك، فليس النجاح مبنياً على العدد، ولكن انظر إلى نوع القادح أو المادح، فلا يُهْمِك من الذي مُدِح، إنما يُهْمِك من الذي مَدَح!</p>	٢٧٧
<p>قد يسمع الداعي الرصين النقد من جهلة العوام فتبتئس نفسه، أو يسمع المدح من محب شَغُوف فَتَرْكَنْ، وكلاهما رمضان، فلا المدح بناء على القرب نافع، ولا الذم من جاهل مؤثر.</p>	٢٧٧

الفكرة	الصفحة
<p>لا عجب أن ترى سباق الدراجات الهوائية الماهر غير قادر على قيادة دراجة في حارة صغيرة، فإن أحبيب الإفادة منه فهيء له المكان المناسب، وإياك أن تتوهم قدرته على المكان الصغير، قياساً على المكان الأكبر.</p>	٢٧٧
<p>المهارة في الدعوة هو انتقاء الأصلح للمكان والزمان والمتلقيين، وليس بالضرورة أن يكون الأعلم أو الأكبر أو الأخبر أو الأكثر تميّزاً على الإطلاق.</p>	٢٧٩
<p>والهدم أمر هين، لكن البناء هو الصعب، فمن شاء فليقارن بين كسر الزجاج وصنعه، أو صنع سيارة وتحطيمها، فمن ذا الذي لا يحسن زرع الشبهات في الناس، أكان هذا صعباً؟ إيداع الشّك سريع من يسير، ولكن ما أصعب قلعة!</p>	٢٨١
<p>إن اللَّبَأَة لامر ظاهُرُه السُّهُولة، وحقيقةُه عند الأزمات صعبٌ، وأصعبها إمرازُ الكلام في حارة ضيقَة من المخالفات، من غير خدش جُذْرَان الأخوة يمنة ولا يسراً، فأين المحسن والمتبني لها؟</p>	٢٨١
<p>الأسلوب الذي ظاهره الموافقة، وحقيقة عين المخالففة يجبر</p>	٢٨٣

الفكرة	الصفحة
كسر القلوب، ويمنع بناء الحاجز عن قبول الحق.	
والفطن العامي يقول: لا يهمني أبداً أن أعرف من الطبيب، والصيدلي مركبات الدواء وآراء الكبار في آثاره الجانبية، واختلافاتهم، وإنما المهم أن أعرف هل أتناوله أو لا.	٢٨٥
من أكبر عيوب الداعي أن يبقى على شخصية واحدة في أماكن مختلفة، فبعضها يصلح لمكان لا يصلح لغيره.	٢٨٦
النية الحسنة تشفع في بعض الزوايا، ويلتمس العذر لصاحبها من جانب، ولكن هيئات أن يقرّ على فعله بتمامه.	٢٨٨
لقد نفر نَفَرَ منا من دين الإسلام وهو من ذوي السرائر الصافية، والتوايا الكريمة.	٢٨٨
إن أيّ باب دعوي يحتاج إليه، ولا يُفتح على يدي الدعاة والعلماء بضوابطِهم الشرعية فإنه سيكسر كسرًا، ويحطم دون رجعة.	٢٩١
معاذ الله أن أفتني بالكلمة اللينة بدل إقامة حد الزاني المحسن، ولكني طلت الكلمة الناعمة في موضع أعتقد أن الناس أغفلظوا، وزادوا ومالوا، وصالوا وجالوا في صحراء	٢٩٤

الفكرة	الصفحة
بذاءة اللسان.	
<p>ولطالما حديثك عن وحدة الأمة، وأظهر الحرقه على وحدتها، وليس مستعداً أن يتزحزح من مكانه عقدة إصبع واحدة، عن أيّ وحدةٍ تتكلّم؟ لقد عرفتُ الآن أنَّ الْوَحْدَةَ التي يبكي عليها وينشدُها ويتبجح بها صباح مساء هي اتباع الناس له في كل ما ذهب إليه، ويرى أنَّ الأمة لو اتبعته بأجمعها لتوحدَت.</p>	٢٩٥
<p>فلا والله، ليس حفيد الطبيب طبيباً، ولا سبط المحامي محامياً، فكيف يكون ابن العالم كأبيه أو جده إن لم يقل: هأنذا، ويقدم خيراً كما كانوا يقدمون، حتى يكون مستحقاً للتعظيم، أو اللقب، أو المكانة!</p>	٢٩٩
<p>من أتعس أنواع الغرور ظن الإنسان نفسه أنه محور مكان أو زمان أو فتوى أو عمل، ويسرح به خياله ليدور في فلك نفسه.</p>	٢٩٩
<p>العيش مع المُتَحَدّي كالمشي في حقل ملؤه الألغام، وهو صعب شاق، لأنك لا تعرف كل لغمٍ أين دفن، لكن الألغام في درب الدعوة يمكن المشي بينها غالباً.</p>	٣٠٣

الفكرة	الصفحة
عند تعارض قوة المنطق ومنطق القوة فإن منطق القوة يغلب مؤقتاً، ثم تكون العاقبة لقوة المنطق.	٣٥
العاقبة لمن أثبت الحجة في قوله، والمقنع نفاذ للقلوب، أما المتسلط فمُجبر على الطاعة، حتى إذا قوي الضعيف أمامه، أو خارت قوّة القوي رأيت المعادلة قد انقلب، وتبادل الفريقان مكانهما، وأصبح الضعيف قويّاً، وحدث عن الانتقام بكل وجوهه بلا حرج.	٣٥
فن الخطاب في الشدائيد: هو اتخاذ خطاب محكم: ينبغي عن المعتقد الداخلي، وليس بين الداخل والخارج لدى المتكلم انفصام.	٣٥
في كل دولة من الدول سرعة محددة للدعوة، فلا يسمح بتجاوزها أبداً، ولو أن الدعاة اجتمعوا على بكرتهم وتكلموا في العلن لاستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بثمانين بالمائة مما يقولونه في السر.	٣٨
تشريع أعناق بعض الدعاة إلى القدر المحظور، فلا يعجبه المسموح من السرعة الدعوية في بلده فيتجاوز إلى المئة، ويكون مصيره باقي حياته السجن والعذاب، وكثير من الأل finns تميل إلى تقدير هذا النوع.	٣٨

الصفحة	الفكرة
٣٠٩	<p>في كل دولة لديها لُغُمٌ واحد في آخر الطريق ينادون عليك بأرفع صوتهم إياك أن تقترب، ولكن قبل أن تصلك إليك قد وضعوا ألغاماً كثيرة غير مهمة، ولو أن أحدها انفجر فإنه لا يقطع عنقًا، ولا يَبْتُرُ رجلاً، ولا يُجهز على جسد.</p>
٣١٢	<p>المشي في حقل ألغام الدعاوة ممكّن، وفيه صعوبة، ولكن يحتوي على الإنجاز، وهو مسارٌ قلَّ من يسير فيه، ولا يسلكه إلا الأبطال، وما ألقَّهم والله.</p>
٣١٣	<p>لئن تفَنَّ الناس وتحايلوا في طرق الوصول إلى النار، وبِتَّ دعوتهم الصالة، لنحن أولى بهذا التفنن وأهله للوصول إلى الله، لنقول لرب العالمين: فبعزتك لَهُدِيَّنَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ.</p>
٣١٤	<p>إن خيط الحرير لِيُنَلَّ الملمس، ولكن من سحبه على يده بسرعة جرحها، وهكذا يجب أن يكون الداعي مععارضين الشرسين، لا يظهر منه غضب، ولا صَحَبَ، ومعاذ الله أن يكون منه الأسوأ والأرذل كالسَّبَابِ والقَدْفِ، ولكنه يجرحُ من التُّعْوِمة، وقد يبتَر إصبعَ مَنْ شد عليه.</p>
٣١٥	<p>المزارع يحمل بيده حفنة من قمح، وينثرها في أرضه، فما كل</p>

الفكرة	الصفحة
<p>حبة تنبت ولا تنتج، فمنها من يأكلها النمل، ومنها التي تتعرّف، وفيها ما لا تغمر في التراب أصلًا، ومنها ما تنبت ولا يتم نتاجها، والأكثر يعلو بسنابله، ومنها حبات تنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة.</p>	
<p>من العبث أن طالب الثثار بالعمل، فلو أحسن العمل لأحسن الكف عن تخطئة المنجز، وأحسن إعذار الناس، لأنه يعيش صباح مساء في العقبات والتحديات، فعرف قيمة الإنجاز.</p>	٣١٧
<p>العيش مع المعارضة ثورٌ الإبداع، وتعلّم التحايل على الشدائـد.</p>	٣٢٢
<p>الطفل الذي ينشأ في بيئـة الشدائـد يتعلم مقاومة مصاعـب الحياة، وكيفية الحصول على رغيف الخبـز.</p>	٣٢١
<p>انظر إلى عظماء العالم ستجد فيهم الكثرة من الأيتام، وذلك بسبب فقدان التراخي والفتور، الذي يصيب مـن لديه أـب يحمل هـمة، ويصرف عليه الأـموال، ولا يـكلـفـهـ شيئاً من أعبـاءـ الـحـيـاـةـ، ولـنـ أـطـيلـ فـي ذـكـرـ الفـرقـ بـيـنـ مـنـ كـانـ اـعـتـمـادـهـ عـلـىـ الأـبـ، وـمـنـ كـانـ اـعـتـمـادـهـ عـلـىـ الـرـبـ.</p>	٣٢١
<p>الإبداع في الرد على المعارض: وهو اتخاذ الداعي قاموساً</p>	٣٢٢

الفكرة	الصفحة
شاملاً، بل غير متنه في الرد على المعارض، بحيث يضع الكلمة اللينة في مرحلتها، ويستبدل بها غيرها عند اللزوم.	
ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة.	٣٢٥
أيرضى لي الشرع أن يَحْصُرَني عدوبي بين خياراتي أحلاهما مرجًّا، وأصفاهما سقماً، ولم يتع لي هذا الشع العظيم رخصة أَتَرَّخَصُ بها؟	٣٢٥
الكلام في القواسم المشتركة خير من السكوت والاعتزال لمن لا يحسن أو يستطيع الكلام عن العظائم.	٣٢٩
شر أنواع المعارضين وأشرسهم وأسوؤهم المعارضون المندسون في صفوف الداعي، يظهرون أمام الناس أنهم منه، ويعملون على هدم ما يبنيه وتسريب، أسراره.	٣٢٩
لَدَى التَّجْرِيَةِ تجَدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يُبْطِلُ عمل الـكائدين هو الدفع بالتي هي أحسن.	٣٣١
وما يدرى كثير من الناس أن الرد المباشر على العدو يكون أحياناً أَكْبَرَ عامل مقوًّا لعمل المعارض، أما الإعراض فإنه إضعاف، ولكن الدفع بالتي هي أحسن إبطال وإحباط.	٣٣٣
وتتجدد في بعض المواقع ردوداً أشد من الإعراض، وهي من	٣٣٣

الفكرة	الصفحة
الدفع بالتي هي أحسن، ألا وهو الرد المفهوم لكلا الطرفين، الذي ظاهره النعومة، وباطنه السمُّ الزُّعاف.	
العزلة حل رائع لمن صرَّح له خصمه بالعداء، فيتخذ القرار باعتزال المقاتلين، ليتفوغ الداعي إلى غيرهم، وليس ليستقيل من الدعوة أصلًا، كاعتزال سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه.	٣٣٥
استعمل أسلوب التورية في الخطاب مع الخبيث، وهو الرد الذي ظاهره الحسن، وحقيقة مقصودة من الملقي، ومفهومة لدى المتلقى.	٣٣٧

المحتويات

٥	تقرير العلامة المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلي.....
٦	تقرير العلامة أ. د. أحمد معاذ علوان حقي العلواني.....
٧	تقرير فضيلة العلامة الشيخ سلمان أبو غدة حفظه الله تعالى.....
٩	تقرير العالم الداعي إلى الله الدكتور عبد الجماد صباغ.....
١٢	مقدمة المؤلف.....
١١	فهم الدعوة.....
٢٢	طريق الدعوة متعب.....
٢٣	أ - حُفرٌ في الطريق.....
٢٣	ب - بُنيَّات الطريق.....
٢٤	لست الوحيد في الميدان.....
٢٦	لا يستوون
٢٦	ليسوا سواء
٢٨	تَعمَّقُ في تحليل المشكلات وإلا سقطت نتيجتك
٣١	ليست الوحيدة، ولكنها القاصمة
٣٢	الموقف، وطريقة عرض الموقف، وتفسير الموقف
٣٤	قَطْعُ الموقف عن جذرِه وما يلوذ به
٣٥	من سنن الله في مشروعك

٣٦	سنن في ذات الدعوة:
٣٧	سنن في الدعاة:
٣٨	سنن في المدعويين:
٣٩	الفتوى كالثوب يصلح لأجساد دون أخرى
٤١	فيروس الرضا الدائم، أو المجازفة في المدح
٤٣	فيروس الاعتراض الدائم
٤٦	مريض مسكين تحت يدي طبيب غرّ
٤٨	عامي حاذق نجا من التضليل
٤٩	البيئة المتنوعة
٥٠	العداء المدرسي
٥١	الولاء المدرسي
٥٥	ذم المدارس الدعوية من الكبير
٥٣	التوازن الخطابي
٥٦	التوازن السلوكي - أخوه التوازن الخطابي
٥٧	ظرف الشبهة على المعاف منها
٦١	ظلال الدعوة
٦٢	صيدلية الفقيه
٧٢	الأخذ بأضعف الأقوال خير من الخروج عن حكم الإسلام
٧٤	مسحٌ على الحورفين خيرٌ من ترك الصلاة!
٧٧	إحياء سنة وتوليد فتنة
٧٨	تسويق رأي وقتل أخيه

٨١.....	لم قلْتُ: قتل أخيه؟
٨٢.....	حوار بين شيخي وأحد طلبة العلم
٨٤	استمتع بالخلاف فإن للرأي الآخر وقتاً وسائلًا يحتاجه
٨٥	إذا خير بين أمررين ..
٨٨.....	يفتي بها أربابها
٨٨.....	الأول: أحيل الفتوى في بعض الحالات على من يعيشها ..
٨٩	الثاني: لا يفتى بأهل بلد خاص من كان خارجاً عنها ..
٩٦.....	تكرار المكرر ..
٩٤.....	جَعْجَعَةٌ ولا إِبْدَاعٌ يَشُدُّ النَّظَر
٩٥.....	التميُّز في الطرق الفارغة ..
٩٦.....	مبالغات قاتلة ..
٩٧.....	حوار مع سُنِّي متطرف ..
٩٩.....	أهو سوق مزاد!
١٠٣.....	تقديم الدعوة
١٠٥.....	ابداً بواجب الوقت في الدعوة ..
١٠٦	أدَارَ اللَّوْقَتْ فأفْلَحَ، وأهَدَرَهُ أَنَّاسٌ فخَابُوا ..
١١٢.....	بين ساذج العقل وشيطان الفكر ..
١١٣	لا تمزق تتمة دفترك ..
١١٦.....	التوبة لمن سقط في الذنب، لا لمن يخطط له ..
١١٧.....	حدثهم بما يفيدهم اللحظة ..
١١٩	طَرْحٌ يُكَفِّرُ، وآخَرُ يُدَمِّرُ ..

١٦٦	إجبار لم يُرِبْ نفساً، ولكنه عَقَد حياة.....
١٦٦	النقد المنضبط المحدَّد الشحيح.....
١٦٨	نقد شحيح كأكل الميتة للمضرر.....
١٣٠	حق خاف من ظلاله.....
١٣٣	سحور متعددة.....
١٣٩	العلاقة مع الدعاة.....
١٤٠	غضُّ البصر الدعوي.....
١٤٤	علاقة مع الخطائين، لا مع المرسلين.....
١٤٤	لَوْنُ النظارة تَحْكُم.....
١٤٧	حربك واحدة فلا تتعدَّها.....
١٤٩	دعاة أضاعوا البوصلة.....
١٥٠	انسحاب خير من غرق.....
١٥٦	خاصم في العلم ففجر.....
١٥٥	محاربة المبتكر، وإقرار التقليدي.....
١٥٦	عداء مُتَوَهَّم.....
١٥٨	ذمه من باب الاحتياط.....
١٥٩	مقلَّد يَعِيبُ على مُقلَّد!.....
١٦١	النائم لا ينقد الحارس السهران.....
١٦٣	فمن يحق له النقد إذن؟.....
١٦٥	المراهقة الدعوية.....
١٦٨	ليس في الدعاة من ولد في سن الرشد والسداد.....

١٧٠.....	لا تنس رقم مقعدك
١٧٧.....	العلاقة مع المدعويين
١٧٨.....	ابحث عن مفتاحه الصحيح
١٨١.....	الأمن الصادق لاستيراد وتصدير المعلومات
١٨٣.....	الأمن النفسي والفكري في الحوار
١٨٥.....	حوار مع البعيد، وإرهاب للقريب
١٨٦.....	لِمَ سميته: الأُمن الصادق؟
١٨٨.....	انظر من اتجاه المخالف لا اتجاهك
١٨٩.....	لا يزيل القمع شبهة
١٨٩.....	علمني شيخي فأحسن تعليمي
١٩٦.....	سوق قمْع لأن البائع جاهل
١٩٤.....	بين التهويل والتلهوين
١٩٧.....	عصرِيَّة لا حَجَرِيَّة
٢٠٠.....	قتل الدين لدى الناس
٢٠١.....	تَقْزِيم المخالف
٢٠٤.....	لَكُلِّ وجْهَتُهُ التي يحاسبه الله عليها
٢٠٥.....	أدب لا يريده الله!
٢٠٦.....	مزيدة لا يحبها الخالق
٢٠٨.....	عَرَفَ السامِعُ أَنَّهُ سُلْعَةٌ غَالِيَة
٢١١.....	ولَا يحزنك تهديدهُم
٢١٣.....	الطريق الأُوْعَرُ هو المؤدي إلى النجاة

٤١٧	القيادة الدعوية.....
٤١٩	لا جماعة بدون قائد.....
٤١٩	أقسام الناس إلى قادة وأتباع ومخربين
٤٢٢	القائد الفذ
٤٢٣	الفرق في القيادة بين من تقدم ومن قُدِّم
٤٢٤	أهم أعمال القائد.....
٤٢٦	القائد الأعلى يعين القيادي والتنفيذي
٤٢٧	فرض القيادة الجزئية على التنفيذي
٤٢٧	القائد لا يترك مكانه شاغرًا
٤٢٩	إعداد الخلف من القيادات.....
٤٣١	انتقاء الأقوى للخلافة
٤٣٢	قيادة متفرقة لها وجه واحد
٤٣٥	القائد يعيّن القائد ومن يخلفه.....
٤٣٦	لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ
٤٣٧	دفع الطالب إلى الأصلاح له، بعد دراسة شخصيته
٤٣٨	القصور الدعوي
٤٣٩	قائد صاعقة
٤٤١	جندي صاعقة
٤٤١	من ذا الذي لا يسأل عما يفعل من الناس؟
٤٤١	قتل الصاعقة
٤٤٦	شعور الجندي أنه أكبر من معلميه

٤٤٣	علاج المنتفع تغيير المهام أو تقليلها
٤٤٣	بعض أفكار القائد لا تنشر
٤٤٧	القيادي والانقلابات
٤٤٨	المتخلّفون يُساعِدون مرات ثم يُرَكُون
٤٤٩	المنقلبون عليك
٤٥٠	خطأ القائد بألف
٤٥١	توجيه المركب الدعوي
٤٥١	البعد النفسي لدى العامة
٤٥٦	للقيادة أمراض كثيرة
٤٥٤	تحكُّم الجمهور بالقيادة
٤٥٦	ما يحتاجه الجمهور لا ما يطلبه الجمهور
٤٥٨	مستوى خطاب الضعفاء
٤٥٩	وعي القيادة في مصدر المعلومات
٤٦٣	سلوك الداعي
٤٦٥	أحسن ما ورثه الشيوخ
٤٦٦	النحو السرطاني
٤٦٩	أنت مخطوططة فريدة، وغيرك كذلك
٤٧١	خطيب أبكى وآخر أضحك
٤٧٢	الجمع بين الانتماء والحقيقة وضربيته
٤٧٣	النفاق للعوام وأمثالهم
٤٧٥	أقدم فاحترق، ثم تقدّم فاخترق

٢٧٧	فلا يغرك مُكاؤهم وتصديتهم
٢٧٧	سباح المحيطات أخفق في بُرْكة
٢٧٩	لكن عون الله استنقذه
٢٨٠	الاتهام المعلّب من يسأل خارج المألوف
٢٨١	أسلوب الموافقة المفضي إلى المخالفة
٢٨٣	عقلية الاحتراافية في غير موضعها
٢٨٥	قبعات الداعي إلى الله
٢٨٧	إن منا منفّرين وهم يريدون الخير
٢٩٠	غيور ساكت خير من أحمق لَسِن
٢٩١	باب كنت سبب كسرِه
٢٩٣	جرائم دعوية
٢٩٧	فن صناعة العاهات
٢٩٩	الشعور بالأهمية والتميز
٣٠١	الدعوة مع المعارض
٣٠٣	مقدمة
٣٠٤	في الخطاب الدعوي للرد على المخالف أو المعارض
٣٠٤	من صفات أعداء الإصلاح
٣٠٥	معارض فكر ومعارض بطش
٣٠٥	فن الخطاب في الشدائد
٣٠٨	لا تتجاوز السرعة المحددة
٣٠٩	المشي بين الألغام ممكн

٣١٠.....	المقدم الألunci اليقظ
٣١٤.....	التحليل على الظلام لإشعال النور
٣١٣.....	عامل المعارض بخيط من حرير
٣١٥.....	أنت كالمزارع
٣١٧.....	من فن التعامل مع الجاسوس
٣١٨.....	لن يروي ماء الملح عطشان أبداً
٣٢٠.....	الفارس لا يهتك ستر أهله
٣٢٢.....	الإبداع في الرد على المعارض
٣٢٣.....	الاستسلام للعدو المحاصر خَوْر وتحقيق لخطبه
٣٢٥.....	ليس في الإسلام غرفة بلا باب ولا نافذة
٣٢٦.....	خوف الداعي من النفاق للظالمين
٣٢٧.....	البعد عما تتبناه السلطات السياسية وما تعادي، إلا عن قناعة يقينية
٣٢٨.....	الدعوة بالقواسم المشتركة في ظل هيمنة العدو
٣٢٩.....	طمأنة العدو بما تعتقد وهو يعتقد
٣٢٩.....	أشرس المعارضين
٣٣١.....	قواعد التعامل مع المعارض
٣٣٣.....	الرد الناعم السَّاُم
٣٣٤.....	اعتزال الدعوة
٣٤١.....	صفوة الكتاب
٣٨٤.....	المحتويات

للتوالص مع المؤلف: +905340559301

منصات التواصل الاجتماعي

